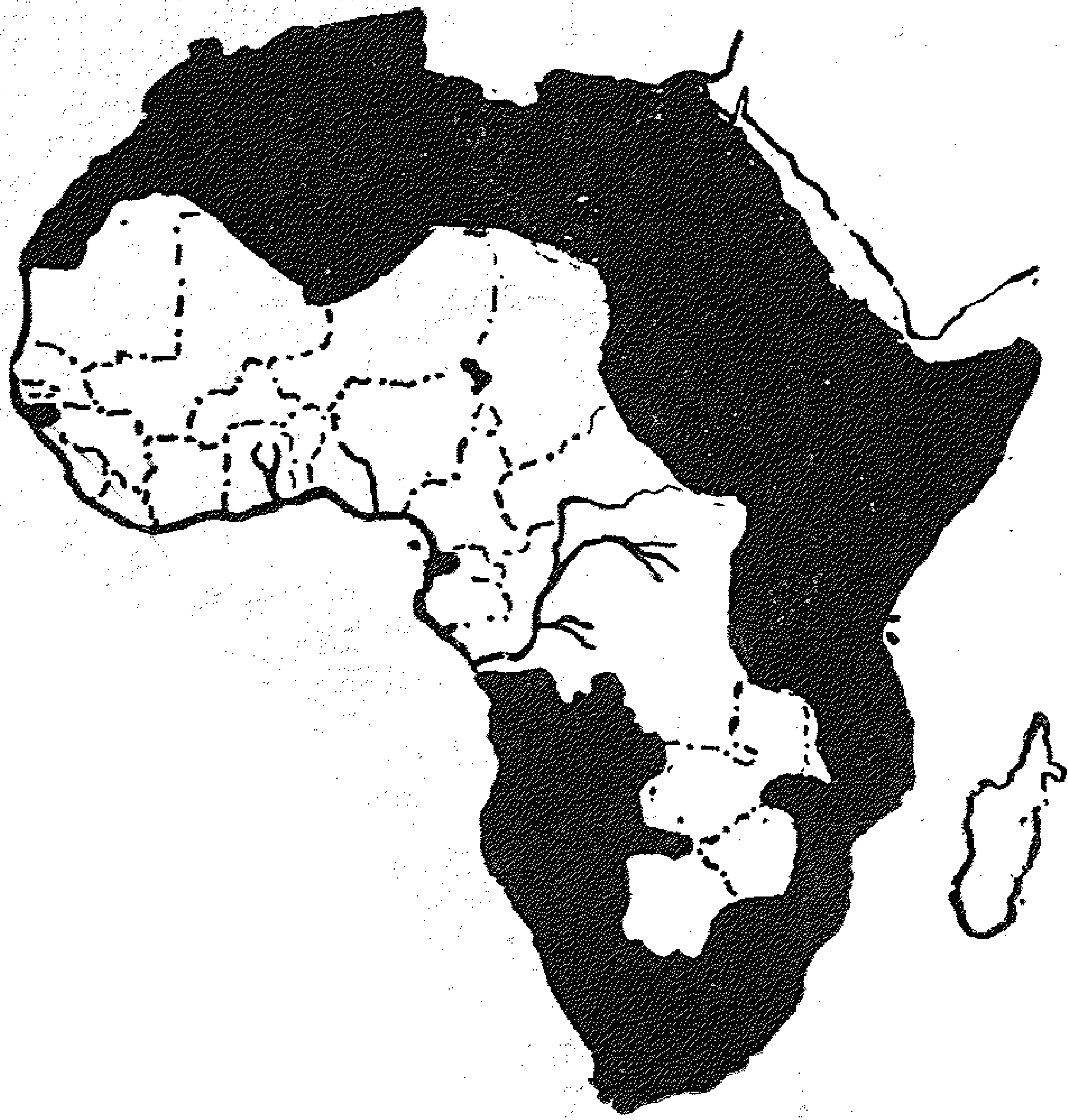
الأفريقيون والعرب



تأليف

الدكتور أحمد سويلم العمري

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

الأفريقيّون والعرب

تأليف

الدكتور أحمد سويلم العمري

١٩٦٧

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٤٤٨٧١

مقدمة

« لاتتحقق وثبات التقدم السريع
بدون ثورة »
الباحث الاجتماعى جورفيتش

قادت الرأسمالية فى نهمها الدول الغربية إلى الاستعمار فى أبشع صوره الوحشية ، وكلما اشتدت المنافسة بين الدول الصناعية الكبرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالغت فى التسلط على الأسواق والمواد الأولية ، وامتد فى طول البلدان وعرضها سباق وتزاحم قاس على بناء الإمبراطوريات ، كما حدث فى آسيا للهند والصين ، كما امتد الصراع إلى غيرهما من البلدان ، وانقضت الدول الأوربية كالطيور الجارحة على إفريقيا واقتسمتها فيما بينها ، وانتزعت إنكلترا لنفسها مصر فى شمال القارة ، واستولت على مساحات واسعة فى الشرق والغرب والجنوب ، وهكذا فعلت فرنسا أيضاً ، وأرادت إيطاليا المشاركة فى الغنيمة غير أنها دحرت فى الحبشة مما أدهش المستعمر الغربى ، وحصلت ألمانيا على نصيب لم يشبع أطماعها ، وواصل الاستعمار غزواته واستخدم أسلحته الفاتكة وهو يهدد ويتوعد ويضرب بقسوة لتحقيق غاياته ، إلا أن الإفريقيين لم يهابوا الخطر واستخفوا بالموت وازدروه ، وجاهدوا بعرقهم ودمهم ليجنوا مستقبلا حراً لبنى جنسهم ، وانتهى بهم المطاف إلى تحقيق استقلالهم وتحرير وطنهم من جحافل الغاصبين .

وظلت إفريقيا فريسة الاستعمار أكثر من قرن من الزمان منذ النصف الأول من القرن الماضى حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وسيطرت الدول الغربية فى قارة العجائب والمجهول على شعوب عديدة بالقوة والضغط السياسى

والهجرة ، وهذه السيطرة تقوم على الاستعمار الرأسمالى الصناعى الذى ظهر فى القرن التاسع عشر ويختلف عن الفتوحات السابقة والغزو القديم .

والتسلط معروف منذ العصور الغابرة وقد صاحب البشرية منذ فجرها الأول ، والأدلة على ذلك لا حصر لها ، فهناك اتساع إمبراطوريات العالم القديم وكان يمتد من ضفاف النيل إلى آسيا الصغرى ، واتساع مقدونيا وغزوات الإسكندر حتى بابل والهند ومصر إلى شمال إفريقيا ، وهناك قيام روما القديمة واستقرار سلطانها من شمال إفريقيا إلى قلبها ، وثمة امتداد حضارة الإسلام والعرب وانتشارها بالحسنى من شبه الجزيرة العربية حتى الأطلس وحدود الأندلس غرباً حتى خراسان وقلب الهند شرقاً وتوغلها فى قلب إفريقيا وأقاصى آسيا عن طريق التجارة وتبادل المنافع .

ولكن الاستعمار الذى صاحب نشأة الدول الصناعية الكبرى وكان عاملا أساسياً فى اتساعها لا يقوم فحسب على الحملات العسكرية أو الحروب أو التجارة فيما وراء البحار ، بل هو ظاهرة سيئة من ظواهر التطور السياسى والاقتصادى لأوربا ، وقد قامت حضارتها المادية ورفاهية أبنائها على أساس الانقلاب الصناعى واستخدام الآلات فى أوسع نطاق ، وإنتاج شركاتها الضخمة وحدات المصنوعات التى تبلغ الملايين ، فضلا عن سلع الرفاهية والترف وإقامة المصارف وفروعها وتوظيف الأموال فيما وراء البحار وإنشاء شركات التأمين والملاحة البحرية والجشع الشديد للحصول على المواد الأولية بأسعار تهبط إلى الحضيض وفتح الأسواق وتشغيل اليد العاملة من أبناء الشعوب المحتلة بما لا يسد الرمق والاستيلاء على مسالك البر والبحر واحتلال المراكز الاستراتيجية الهامة وتحقيق النصر العسكرى ، وبذا يباشر الغرب المستعمر عمليات استرقاق واسعة المدى تطغى على مئات الملايين .

وقد حارب الاستعمار العرب والشعوب الإفريقية لا بمدنيته وفكره بل بالبندقية السريعة الطلقات والمدفع والبارود ، وكسب مؤقتاً الجولة الأولى ثم هزم ونكص على أعقابه بعد صراع طويل جبار ، ولقد كانت حكمة الإغريق وفلسفاتهم التي نقلها العرب عن طريق الأندلس إلى أوربا مع تجاربهم وأفكارهم غذاءاً للغرب وعاملا أساسياً في انبعاث نهضته ، وإن كان قد تنكر لأصحاب هذا الفضل وقلب لهم ظهر المجن .

وكافح الإفريقي طويلا واستخلص حرياته بجهاده منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وهو اليوم في سبيل النهوض والتحليق في فضاء الاستقلال الواسع دون تسلط أجنبي ، والعرب والإفريقيون إخوة في الدار التي يسكنونها ، شركاء في جهادهم وتحررهم وسيرهم الحثيث في نهضتهم الحاضرة ، وليست فقط الحضارة الإسلامية هي التي تربطهم بعضهم ببعض منذ أمد بعيد لتوحد مصائرهم وآمالهم بل يوحد صفوفهم أيضاً كفاحهم ضد محاولات الاستعمار لمنعه من أن يعيد الكرة فيلج ديارهم ويستنزف دماءهم وأموالهم ، ولذا يكونون اليوم حزمة واحدة يصعب كسرها .

وارتبطت منذ القدم مصائر العالم العربي بالقارة الإفريقية ، والعالم العربي جزء لا يستهان به منها ، ويمتد من قلب شبه الجزيرة العربية إلى شاطئ الأطلس ثم يعبر جنوباً الصحراء ومجرى النيل إلى القارة الاستوائية ، وقد امتزجت الحضارة العربية بالحضارات المتعددة للشعوب السوداء التي دخلت في الإسلام أفواجاً متعددة من شتى الأجناس مما جعل العالم العربي وإفريقيا تبعاً للجيرة وسرعة الاندماج والتفاهم صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يصعب اقتحامه .

ودخل الإسلام منذ فجره من طرف القارة الشمالي كما هبط شواطئها

من البحـــر الأحمر والمحيط الهندى دون غزو وعنف بل عن طريق التجارة والهجرة وتم التفاهم مع رؤساء القبائل بالحسنى وتبادل المنافع وقوافل التجارة ، وظل كل على طابعه ومعتقده دون إجبار على اعتناق رسالة القادمين والتقيد بأفكارهم مما شجع القبائل فى قلب القارة على مواصلة التعامل مع القادمين كناشرين للفكر العربى والمعرفة وداعين للإسلام ونظمه الاجتماعية السمحاء والتى سرعان ماصادفت قبولا لدى القبائل التى تعيش على الفطرة تبعاً لعدالتها وبساطتها وتمشياً مع حاجات هذه القبائل وروحها القائمة على المساواة بين الناس مع القناعة ، وهذه المساواة فى صميم حياة الإفريقيين السود الذين يعيشون حياة بساطة وتقشف وقناعة وكل يباشر عملا معيناً يعرفه وقصارى جهدهم العمل فى سبيل البقاء ودرء الأذى عن الجماعة .

وتشعبت الدعوة للحضارة العربية فى إفريقيا ، فشملها من برزخ السويس حتى شاطىء الأطلنطى يهبط اليه العرب فيستقرون برجالهم ونسائهم وحضارتهم ويشيدون المدائن ويقيمون العمران ، وهكذا يصبغ البلاد الطابع العربى الإسلامى الذى يغلب على غيره رغم بقاء الروح البربرية القديمة من بقايا قرطاجة ممتزجة بالإسلام وتعاليمه فى المغرب ، ورغم تداخل الطبائع القبلية والمحلية فى السودان الإسلامى والنيجر وغيرها من بلدان قلب إفريقيا ، وهكذا ظلت بعض العادات الوثنية القديمة على حالها بارزة واضحة فى القبائل السوداء مع إسلامها حتى المناطق الاستوائية من السنغال والنيجر والشاد والسودان إلى موزمبيق وزنجبار وقد دخلها الإسلام وطبعت بالروح العربية طوعاً لاقسراً ، ونشأت ممالك وإمارات مستقلة ذات حضارة إسلامية فى النيجر للهوسا وفى الكونغو ومالى وغانا وامتدت إلى زنجبار ، وبقيت اللهجات الوطنية الأصلية إلى جانب لغة الضاد للكتاب الكريم كدليل على أن الحضارة العربية تقوم على معاملة الناس بالحسنى ، وهكذا

وجدت الشعوب الإفريقية فى الإسلام وحضارة العرب ضالتها ، وليس أفضل عندها من الكتاب الكريم فى تنظيم معاملات الناس وحياتهم السياسية والإجتماعية .

ولم تنجح حضارة الإغريق فى مصر ثم حضارات بيزانطه وروما فى إفريقيا فى ربط أجزاء القارة بعضها ببعض وإقامة روح واحدة لشعوبها بينما نجحت الحضارة الإسلامية والروح العربية فى تحقيق هذه الفكرة، وظلت حضارة العرب حصناً منيعاً ضد الاستعمار بعد أفول نجم الإمبراطوريات الإسلامية وغروب شمس الممالك العربية فى إفريقيا وقد وقت الشعوب من الانحدار فى هوة سحيقة والاندثار دون صحوة ، وإن كانت قد غلبت على أمرها فترة من الزمن تبعاً لفتك السلاح الميكانيكى الحديث ، فقد أعدت العدة للانبعاث فى إطار تضامن الشعوب العربية الإفريقية اليوم ووحدتها فى ثورتها للتحرر واللحاق سريعاً بركب الحضارة العالمية .

وإن الأنظار لتتجه اليوم إلى ما يحققه الشعب العربى من انتصارات حاسمات فى نهضته الحديثة وفى مرحلة انطلاقه وثوراته وضرباته القوية التى يسددها إلى الاستعمار ، وترتبط مصائره بمصائر الشعوب الشقيقة والصديقة المحررة حديثا ، وهو يقدم لها عونه المعنوى والمادى ، وتضفى روحه الوثابة نشاطها السياسى عليها ، وفى طليعة هذه الشعوب أهل إفريقيا الذين يرتبطون بالشعب العربى بحكم التخوم الجغرافية والتاريخ الحافل والكفاح المشترك للتحرر من الاستعمار ووجوب الوقوف كالبنيان المرصوص ضد محاولات عودة النفوذ الغربى من النافذة وقد أقصى من الباب الكبير وقد حاول أن يفرض سلطانه واستغلاله فى صورة جديدة على القارة ، والاشتراكية العربية نبراس يرشد إلى بناء الاشتراكية الإفريقية ، وإن الأضواء اليوم مسلطة على الشعوب

الإفريقية المحررة حديثاً وقد أصبحت محورا للسياسة العالمية .

وإن مسائل إفريقيا وارتباطها بالعالم العربى فى مقدمة المسائل التى يعنى بها عالم اليوم ، ويتعين بحثها بدقة ومعالجتها ببعد النظر ودراسة وسائل تصفيــة الاستعمار بلا رجعة لصالح شعوب القارة الناهضة ورسم سياسة تضامن لهذه الشعوب تشمل تعاونها مع العرب وانتشال الأهلين من وهدة الفاقة والمرض والجهالة التى تردوا فيهامع اتخاذهم مكانهم اللائق بين الشعوب الحرة ولتصبح ثروة القارة لأبنائها لا لنفر من المستغلين الجشعين وتوجيــه طاقات القارة للنهوض بالإنسانية ولتدعيم السلام .

ووسائل علاج مشكلات إفريقيا ليست بالأمور الهينة ، إلا أنه ليس من المتعذر العثور على الأدوية الناجعة ، وقد يتحقق السلام العالمى الدائم يوما ما وقد أضحى الناس أطيب نفسا وأكثر تعقلا وعلى رأسهم ساسة الدول وقادتها وقد أصبح لا مفر للانسانية من إقامة نظام جديد بسياساته ووسائله تتعــاون البشرية فى كنفه وفق الحاجات الاقتصادية والمصالح المشتركة للشعوب ضنا بالمدنية الحديثة أن تفنى فى حرب زرية لا تبقى ولا تذر ، وهذ ما تسعى إليــه الشعوب العربية والإفريقية متعاونة فيما بينهــا ، وهذا ما ترسمه سياسة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز والكفاح ضد الاستعمار وتصفية رواسبه التى يقبض على أعنتها زعماء القارة .

وتهتم ثورتنا الناجحة ليوليه سنة ١٩٥٢ منذ قيامها وكسبها الحقوق تلو الحقوق لصالح الحريات والشعوب بمصائر إفريقيا وقد ارتبطت بها فى اجتماعات باندونج لسنة ١٩٥٥ وما أعقبها وفى شتى المنظمات الدولية وخاصة منظمة الوحدة الإفريقية والمؤتمر الأسيوى الإفريقى ، ووضحت هذه الأهمية منذ مطلع الثورة ونرى فيما جاء فى فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر ما يبرز هذه الأهميــة

حيث قال « . . والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام مايجرى فى إفريقيا ونتصور أنه لايمسنا ولا يعنينا . ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهدا ضخما لإفريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا إفريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين فى كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها » .

ونرى شدة الاهتمام بالمسائل الإفريقية فى الباب العاشر « وهو يتناول السياسة الخارجية » فى الميثاق الوطنى لمايو سنة ١٩٦٢ ، وجاء فيه « . . . وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة إفريقية ويؤمن بتضامن أسيوى إفريقى ، يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة وبولائه لميثاقها الذى استخاصته آلام الشعوب من محنة حربين عالميتين تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة ، إن شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لإفريقيا المناضلة وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والإجتماعى والاقتصادى . . . إن شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرر الوطنى وهو أبرز سمات القرن العشرين » .

وغرض دراستنا هذه إلقاء أضواء على إفريقيا تبين صلاتها بالعالم الخارجى والتقاء الحضارات فيها وعلاقات العرب وأوروبا بها وحياتها الوثابة اليوم وقد نفضت غبار الخمول، وشرح الحياة السياسية للشعوب الإفريقية ماضيها وحاضرها وتطوراتها ، ثم سير هذه الشعوب نحو التحرر والتقدم وموقفها من العالم الخارجى ، وصلاتها بالعرب والحضارة الإسلامية ، هذه الحضارة التى تلائم

الشعوب الإفريقية وتبنى مستقبلها السياسى والاجتماعى ، وجهـاد الشعوب الإفريقية اليوم فى ثوراتهم للتحرر وبناء صرح دولهم الاشتراكية المستقلة ، وإقامة وحدة ذات طابع قومى إفريقى فى إطار يجمع العرب وسائر أهل إفريقيا ويتعاونون جميعاً فى زحف عارم نحو مكانهم اللائق تحت شمس الحرية وبين أسرة الدول المستقلة .

ويشتد فوران القارة وتتوالى فيها الأحداث والانقلابات والدسائس ومسئوليات حكامها وشعوبها جسام ، والاستقرار فى ظل الحكم الاشتراكى التقدمى والمتنور هام وهى لا تزال فى نعومة أظفارها سياسياً ، ويتعين قيام حسن التفاهم بين الجارات ، وإن وخزات الإبر المتكررة فى السياسة الدولية تنتهى غالباً بقصف المدافع ، وعلى شعوب القارة أن تدعم السلام فى ديارها لصالح نموها ورفاهتها ، وهذا ما سنعالجه كذلك فى بحثنا .

ونتناول أيضاً شرح ما كانت عليه إفريقيا قديماً ثم نعرج على صلاتها فى مختلف العصور بالعالم العربى ، ونعرض لأنواع الحضارات الإفريقية ونبين صلاتها بالعرب وبأوروبا ، وكيفية استغلال الإمبراطوريات الصناعية الغربية موارد القارة فى سبيل ثرائها وتدعيم أداتها الحربية ، ونبين كيف غزا الاستعمار التقليدى ثم انهار فى القارة ونكشف الستار عن الاستعمار الجديد وخطره والطاقات الإفريقية وأهمية التصنيع للشعوب الإفريقية الناهضة ، ونعالج فكرة اتحاد إفريقيا ووحدتها وتعاون شعوبها الوثيق مع العالم العربى .

والاستعمار اليوم فى طريق تصفيته بلا رجعة ، وكما يقول الكاتب الفرنسى مونترلان ، «المستعمرات من طبيعتها أن يفقدها المستعمر وهى تولد وعلى جبينها شهادة وفاتها » ، وقادة الثورة الإفريقية بما يلاقونه من صعوبات كالجلاميد التى تتقدم السيل فتحسبها تقوده وهى به مقودة ومندفعة ، وثورة إفريقيا اليوم

تعمل على الإجهاز على الاستعمار وعلى تحقيق الاشتراكية وهى حتمية ولا مفر من تحقيقها لصالح شعوبها وهى أملهم وملاذهم الأول والأخير .

ونقدم فيما يلى دراساتنا لإفريقيا والعالم العربى أو مجموعة دراسات إفريقية بعنوان يجمع بين الغرضين الدراسات الإفريقية وعلاقات إفريقيا بالعرب وهو « الإفريقيون والعرب » .

الباب الأول

إفريقيا وشعوبها وحضاراتها

إن تفهم التنافس السياسى فى إفريقيا وجشع الاستعمار بتلك البلاد ثم كفاح أبنائها فى سبيل تحررهم ووضع شتى الدول الإفريقية التى استقلت حديثاً وأطماع الغرب بعد أن رحل عن القارة الاستعمار التقليدى وقد نهض أبناؤها من كبوتهم وصعب على المحتل الاستمرار فى سياسة الأطماع والضغط والسلب وهو يحاول أن ينفذ بطريق خفى إلى القارة ــ كل هذه العوامل تتطلب التمهيد لشرحها بدراسة روح شعوب إفريقيا وحضاراتهم والعوامل المادية التى تؤثر فيهم .

إن إفريقيا كما يقول المؤرخ الألمانى فروبينيوس Frobenius « هى علبة تحتفظ بمجموعة من الحضارات القديمة » ، وتعيش هذه الحضارات جنباً إلى جنب ، وهى تشهد بآثارها القديمة على مختلف نواحى الحياة فى القارة ، ويمكن تلخيص آثارها وهى لاتزال تبرز فى غير عناء فى مناطق يمكن تحديدها على وجه الدقة فيما يأتى : —

١ — الشمال : تغلب فيه الحضارة العربية والسكان البيض من العرب وغالبيتهم يعتنقون الإسلام وقد اختلط الأهلون منذ التاريخ الغابر بالقادمين من شبه الجزيرة العربية عبر برزخ السويس .

٢ — جنوب الصحراء وبحيرة تشاد والسودان إلى قلب القارة وعبر خط الاستواء : يقطن هذه المناطق أقوام من السود هم غالبية أهل القارة وإذا قيل أهل إفريقيا كثيراً ما يتجه الفكر نحوهم .

٣ — جنوب القارة وبعض مناطق محدودة كروديسيا : تقطنها جالية من البيض الذين هبطوا إليها مهاجرين ومستعمرين من إنكلترا وهولانده .

٤ — الجنوب الشرقى للقارة وسواحلها الشرقية : يقطنها أقوام من العرب والصفر والهنود وقد هبطوا إليها تجاراً ومهاجرين وعاشوا فى نطاق حضاراتهم الأصلية .

وأبناء القارة من السود يمكن توزيعهم وتمييزهم كالآتى : —

١ — السود من الأصول السودانية وهم يقطنون إفريقيا الوسطى والسودان ويحتفظون بعاداتهم القديمة بكل معانيها ويسكنون أكواخاً مستديرة ذات أسطح مدببة ومخازن الحبوب فى أعلى الأكواخ وتقوم على أعمدة رقيقة ، ونظام حياتهم العائلية على أساس سلطان رب الأسرة المسيطر على أسر عديدة تتبعه وهو أقدم الأعضاء ووجوههم مشرطة وبعظامهم وأسنانهم علامات يصطنعونها تميزهم مردها العقيدة .

٢ — أهل الغابات الكثة وقد تأقلموا للعيش فيها ويزرعون بمجارف يدوية معوجة ويقتنون الكلاب ويلبسون ملابس من قشور الأشجار ، وحاصلاتهم متوفرة على طول السنة فلا يحتاجون إلى مخازن للحبوب وأكواخهم ذات زوايا أربع .

٣ — أهل المناطق التى تصلح كمراع ويكثر فيها العشب ، وهم صيادون ورعاة وأكواخهم ذات قباب من الأعشاب ويلبسون الأقنعة ويحملون العصى لحفر الأرض ويرتدون قلادات من القواقع وبيض النعام .

٤ — أهل روديسيا والبحيرات الكبرى ونظامهم إقطاعى وملوكهم لهم بلاط معقد ودقيق فى أساليبه ويدعون بصلتهم الوثيقة بآلهة الشمس .

٥ — الشاميون وهم وفق الأساطير الدينية الذين ينحدرون من جد السود

ويسكنون السهول الرقيقة الحال الجافة بشرق إفريقيا ويربون الأغنام ويعنون بالماشية ودورها الاجتماعى هام عندهم وكذلك نظمهم العسكرية وصلاتهم بأسلافهم

٦ — أهل البانتو وينتسبون إلى الأمهات ، ويقطنون حوض الزامبيزى وللمرأة عندهم الدور الرئيسى فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، والخال له أهميته الكبرى ، والولد ينسب إلى أمه ولا أهمية للمهر عندهم ويكاد يكون معدوما وأخو الزوجة أهم من الزوج .

٧ — أهل شمال إفريقيا وينسبون إلى حوض البحر المتوسط فيما قبل هبوط العرب والبيض هناك وبيوتهم من الطين ويزرعون بالمحراث ، ولطقوسهم الدينية صلة بالزراعة وقد نزحوا من المنطقة إلى داخل القارة .

٨ — أهل السودان وأعقابهم وهم يعملون فى مناجم الذهب ويتقنون صهر الشمع وغزل القطن ونسجه وهم على دراية بشتى نظم الدولة ويقدسون أمراءهم .

ويضاف إلى هؤلاء البوشمان والصيادون والاقزام من أهل الغابات وهم لا ينتمون إلى المجموعات الضخمة من السود الذين يكوّنون حضارات وأجناس وإمارات متباينة .

١ — غرب إفريقيا وهو فيما بين شاطىء الأطلنطى وبحيرة شاد والصحراء والغابات . ويقطن المنطقة شعوب السهول وهم الجبارا والولوف والسونغاى والموسى والهوسا والباريبا ، وكلما نزلنا إلى الجنوب رأينا الأشجار والخضرة والغياض تغلب على المنطقه بينما أن الشمال يتميز بجفافه ، ويتغلغل الإسلام فى قلب هذه المنطقة وأعماقها ، ويضاف إلى الأصول القديمة شعوب حديثة تقطن قرب الأطلنطى هم الماندونج ، ويكون شعب الموسى جماعة بعيدة عن الإسلام ذات طابع سياسى خاص بها بفلاحيها وذكرياتها ومعتقداتها ،

ويباشر الناس الزراعة بالجاروف فى موسم الأمطار أثناء الصيف ، وتربى الأغنام فى النصف الشمالى أما النصف الجنوبى فتربى فيه ماشية صغيرة الحجم كالخنازير ، ويتبع نظام الآباء فى تحديد الأصول فيما عدا بعض أهل السنغال، والخلية الأساسية للحياة الاجتماعية هى القرية ، وهناك الأسرة ذات العمد القوية ، والجميع يعيشون وفق نظام جماعى يحكمهم كبير الأسر، وشاهد غرب إفريقيا سلطانا قويا للموسى ولا تزال بقاياه قائمة إلى اليوم فى داهومى من مخلفات الممالك القديمة .

٢ — السودان المرعى ، وهو من شاد إلى حدود هضاب الحبشة بما فى ذلك سهول السودان الوسطى والشرقية ذات الأعشاب الشوكية ، مع الحاجة الملحة إلى المياه ، وهذه المنطقة موطنا للرعاة الرحل الذين يربون الأغنام والخيول ويعنون بالجمال على الحدود الصحراوية ، وتنتقل القبائل حسب الفصول من جهة إلى أخرى طلباً للعشب والماء ، وغذاؤهم اللبن ومشتقاته ، ويمتزج الإسلام هناك بالعديد من أساليب عبادة الأرواح ، وتعيش فى شمـــال وشرق الشاد مجموعات من العرب ، وتذكرنا الحضارة هناك بسمات الحضارات السامية وخاصة فى كابيبش وكوردفان .

٣ — إفريقيا الاستوائية بغاباتها الـكثيفة ونتاجها الزراعى المستديم، وتقع إفريقيا الاستوائية هذه فى قلب القارة وتمتد من الأطلنطى حتى سلسلة البحيرات وتمتد إلى جنوب وادى النيل ، وتجمع خليطا من الأجناس السوداء ويبرزون فى الـكونغو بوجه خاص والجو شديد الحرارة والرطوبة بلا فصول تميز بين الزراعات خلال العام ، وتقوم القرى فى مناطق معينة ثم تنتقل منها إلى أخرى بعد استنزاف التربة لاستغلال أخرى أدسم منها ، وتنتشر الذبابة التى تحمل جرثومة مرض النوم مما يجعل تربية الماشية الـكبيرة الحجم متعذرة ويقتصر الرعى على الماعز ، وتتـكون القرى من أكواخ مربعة مبنية من الأعشاب والنباتات وينتشر الصيد هناك بأنواعه .

٤ — هضاب الحبشة ، ويسكنها أقوام من نسل حام ، وهم ليسو زنوجا أصليين ، وأهل المنطقة يباشرون الزراعة بالمحراث ودينهم المسيحية التى اعتنقوها منذ قرون عديدة ، ويختلف وجه الحبشة عن غيرها من مناطق إفريقيا بطابعه الخاص ، ولا يزال الناس هناك يخضعون لنظام الحكم للعصور الوسطى وعلى رأسهم إمبراطور ورث العرش منذ قرون عديدة وهو من نسل سليمان .

٥ — الزومبيزى والليمبوبو والأورانج ، ويسكن المنطقة البانتو ومتوسط مرتفعاتها تفوق الألف متر وتخترقها وديان الزامبيزى وبعض الأنهار الأخرى ، ويقطنها سود عمالقة تتسم بهم أفريقيا الجنوبية ، ويعيشون على تربية الماشية كما يزرعون الأرض وينتجون الأذرة ، ويقطن هناك أيضا البوشمان ، وهم جنس يتميز عن بقية السود وأن كانوا فى طريق الانقراض.

وتختلف طبيعة مناطق القارة باختلاف مواقعها من معتدلة إلى معتدلة حارة إلى ساخنة رطبة أو جافة . وإن اتحد المناخ فى ميله إلى الحرارة كما تتنوع التربة والزراعة باختلاف الموقع والمناخ وكميات المياه ودرجة الخصوبة ونشاط الأهلين ، وكذا تختلف طبائعهم وكفاياتهم وإنتاجهم وحاجاتهم ولهجاتهم وحضاراتهم وإن اتفقت فى روحها وصفاتها المعروفة عند السود وفيما يلى بيان بذلك : —

إن إفريقا قارة من العاملين المتقشفين بطبيعتهم ويمكن إطلاق كلمة برولیتیر prolétaire عليهم ، وللمناخ والأرض والنبات فى هذه الأرض تلك الصفات التى يتميز بها أهلها، واسم القارة الحالى حديث فقد كانت تسمى فى العهود الغابرة ليبيا وكانت مقسمة إلى عدة مناطق رئيسية ثم أطلق عليها فى العصور الوسطى أثيوبيا أى قارة السود وهذه الكلمة مشتقة من اليونانية ، ثم استعملت فى التعبير عنها كلمة إفريقيا وكانت تشير لدى القدماء إلى منطقة تونس حيث « رأس

أفرى » . ونسبة إلى قبيلة من البربر تسمى أفرى ، وقد اشتقت الكلمة من تعبير قديم عن المغارة أو الكهف أيضاً وكان أهـل المنطقة يسكنون ما يشبه المغارات ، ثم استخدم العرب هذا المصطلح محورا فصار إفريقيا . وتخصصت ليبيا وإثيوبيا للتعبير عن المنطقتين الجغرافيتين المعروفتين بهذين الإسمين بينما استخدمت كلمة إفريقيا للتعبير عن القارة جملة .

وتتميز غالبية القارة الإفريقية بمناخ قاس وتتأثر تربتها بشدة وطأة المناخ الذى لا اعتدال فيه ، ونرى المياه غزيرة فى مناطق وشحيحة فى أخرى والحرارة غير محتملة مما يحفز إلى العمل والمقدرة على الإنتاج البدنى والذهنى فضلا عن انتشار الأمراض التى تهبط إلى الحضيض بالقدرة على العمل ، وهناك مناطق قحلاء جرداء وأخرى لا خصوبة فيها ويميل لونها إلى الإحمرار لاحتوائها على أملاح تجعلها عقيمة لا تقبل أية زراعة نتيجة اشتداد الأمطار فيها ، كما تتميز سواحلها بأنها ليست سهلة المواصلات وليست قابلة للمأوى وهى معزولة بحواجز طبيعية .

وكذلك تتميز معظم أراضى القارة بزراعة ونباتات تتمشى على وتيرة غاباتها الكثيفة نظراً لمناطقها الاستوائية ، وهى تنتشر وتتشعب بسرعة ودون أن تذهب عميقة فى الأرض بمجرد بذر الحب أسوة بنباتات أحراشها ، وهناك المراعى والغابات والأراضى المكسوة بالأعشاب والمنتشرة فيهـا المستنقعات والهضاب وأحراش النباتات الشوكية ، كما توجد بالقارة مساحات واسعة من الصحارى والقفار ، وتكسو الغابات ٢٠ ٪ من مساحات القارة والمراعى نحو ٤٠ ٪ وبقية المساحة مكونة من أراضى قحلاء ومزروعة ، وبدأت الغابات الاستوائية تنكمش نتيجة استنزاف أشجارها وحاصلاتها ودخول العمران فيها كما توجد على حدودها الأراضى المزرعة واضحة وكذلك الأراضى ذات العشب

والمراعى وهى على ثلاث درجات من خصبة غزيرة الماء والعشب إلى أرض مكسوة بالنباتات ذات الأشواك فالى أرض جافة شبه صحراوية، وفى قطبى القارة على ساحل البحر المتوسط وفى منطقة رأس الرجاء الصالح توجد الأراضى الزراعية الخصبة ذات الرى والصرف والزراعات المنتظمة .

وقد ترتب على قسوة المناخ وضعف الأرض أن أضحت النباتات رقيقة الحال ، غير أنه برز خلالها بعض الحاصلات الهامة وهى التى لفتت الأنظار إلى القارة مثال ذلك الأرز ويزرع فى دلتا بعض الأنهار والنخيل بمستحرجاته وزيوته والبقول والموز وقد تسببت فى مأساه القارة ، أما بقية الحاصلات الإفريقية المعروفة اليوم كالفول السودانى بزيوته والأذرة والبن والكاكاو وغير ذلك من الحاصلات فهى مستورده حديثا من الخارج ، غير أن إفريقيا شحذت القوى الإنسانية فيها برمتها دفاعا عن كيانها لتعيش عيشة صالحة .

وقد تغيرت الحال اليوم فبدأت تتحسن التربة نتيجة لاستعمال الأسمدة وزادت المحاصيل نتيجة لتحسن وسائل الرى والصرف وانتقاء البذور الصالحة ، وبدأ استخدام الوسائل الميكانيكية فى الزراعة ، ثم أخذ رجال الأعمال والمغامرون والشركات والمؤسسات الصناعية ينقبون فى التربة بحثا عن المعادن ، فعثروا على الماس والفحم والنحاس والأورانيوم وأملاح الألومنيوم والحديد والبترول ، ونشطت حركة الزراعة والصناعة فى القارة وصحبها تمرين اليد العاملة الوطنية لاستخدامها على نطاق واسع ، وأخذت الحكومات والمنظمات الدولية والجمعيات تكافح الأوبئة والأمراض وتعمل على رفع المستوى الصحى ، كما شرع المسئولون فى تنظيم الإدارة والأعمال المكتبية وكان ذلك لصالح الاستعمار ثم بدأ هذا التنظيم يتخذ سبيلا قويما قائما على الصالح الوطنى . إلا أن هذا التغيير الهام لا يزال فى أول خطواته والطريق إلى الغاية المنشودة طويل شاق تكتنفه العقبات .

ولما كان الإفريقيون بطبيعتهم مزارعين فقد نظموا زراعاتهم على أساس حاجة بيئتهم ، ولكن يوجد منهم البعض ممن يعيشون على الصيد فى الغابات كأقزام قبائل البيجمى وآخرون يشتغلون برعى الماشية ويسكنون مناطق البرارى القليلة الماء كالبوشمان ، وتوجد هناك جماعات تعيش على صيد الأسماك النهرية كاليوزو بالنيجر أو البحرية كاللوبو بالسنغال ، ولكن لم يعرف عن السود أنهم جابوا البحار واخترقوا قلبها وامتطوا أعلى المحيطات ، وهناك قبائل عدة تباشر الرعى وتربية الماشية ومعظمها من الأغنام والماعز بمناطق المراعى والبرارى كقبائل الفولانى والهوروس وهذه تقيم بجنوب غرب إفريقيا ، ويخضع انتقال الرعاة للعوامل الجوية والمياه ، ويلاحظ أن الزراعة فى مناطق الرعى والسهول فيما عدا أحواض الأنهار لا دراية لها باستخدام الأسمدة ، وزراعة الأرض هناك ليست منتظمة ، وقد تترك الأحواض قحلاء بلا زراعة فترة من الزمن وتحرق النباتات فيها لاعدادها للزراعة وتزرع فيها الأذره والفول السودانى والبقول ومشتقات القمح كما تزرع على حافة الغابات مشتقات البطاطس والنخيل لاستخراج الزيوت ، كما بدأت الحاصلات الزراعية المعدة للتصدير تغير وجه القارة كالزيوت وخاصة زيوت الفول السودانى والكاكاو والبن والنخيل والموز .

وأفريقيا آخر القارات التى أماط عنها اللثام عالم المعرفة وكشف عن خفاياها وذهبت فى الماضى الغابر حملات استكشاف متعددة امتدت إلى أغوار القارة غير أن ما جاءنا من أخبارها قليل ، كما أن السكان الأصليين اندثروا وحل محلهم سود يختلفون عنهم هم الذين يقطنونها اليوم وسلالاتهم ، وتدل الاستكشافات التى تنقب عما قبل التاريخ على أن القارة سكنها أقوام من قديم الأزل يختلفون عن أهلها الحاليين ، واكتشف أن إفريقيا الشرقية وما إلى جنوب خط الاستواء قطنها الجنس البشرى الفطرى إلى أن تطور فأصبح الإنسان الأول الذى بدأ

يفكر وسلالته الإنسان الحالى ، وأهم اكتشاف كان الإنسان الذى يستخدم الحجر المصقول والرحى وما يمت إليهما من صناعة ، وتطورت حركات الأيدى وأصوات الحنجرة واللسان إلى التعبير والنطق والكلمات واللغة وما إليها ، وشوهدت فى إفريقيا أدوات ومعدات ما قبل التاريخ على وتيرة ما عثر عليه الحفريون فى أوروبا ، غير أنه لا يعرف مدى ارتباط النوعين بعضهما ببعض وعمر كل منهما ، وقد تكون هذه الأدوات البدائية ترجع إلى ما بين ٩٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف سنة وهى لأجناس نشأ فى أعقابهم الإنسان « النندرثالين » الأول Néanderthalien ويرجح أن ظهوره يرجع إلى أربعين ألف سنة مضت، ثم جاء الإنسان الأول المفكر Homme Sapiens وينحدر منه الجنس الأسود ولا يعرف بالتحديد وقت ظهوره ، كما لا يمكن تحديد بدء ظهور الأجناس الخمسة وهى القوقازى أو الأبيض والمنغولى أو الأصفر والأسود والاسترالى أو ساكن المحيطات والقزم أو البيمى ، وقد تكون هناك صلة بين الأجناس الثلاثة الأخيرة ، وقد انحدرت وانتشرت من جنوب الهاميلايا ، والإنسان المفكر ظهر منذ نحو ثلاثين ألف سنة ثم تفرعت عنه الأجناس الخمسة المذكورة ، ثم تميزت واتخذ كل منها طابعه الخاص وبرز الجنس الأسود وأخذ تكوينه الحالى منذ نحو عشرة آلاف سنة واستقرت أوضاعه منذ نحو خمسة آلاف سنة فى العصر الحجرى الوسيط ، ولا يعلم بدقة مكان قدومه وأصله غير أن المتوارد هو أن الجنس الأسود قـــدم من الشرق ، وكان يعيش فى إفريقيا أقوام متعددوا الجنسيات متباينوا السحن لا يمتون بصلة إلى السود نذكر منهم البوشمان والأقزام أى البيمى وقد أزيحوا عن مناطق سكناهم تدريجياً واستقروا فى الجهات التى يعيشون فيها اليوم تحت ضغط السود وغزوهم فى الغابات الاستوائية وصحراء كالاهارى ، وانتشر السود من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب وظلت حركاتهم مستمرة حتى قدوم المستعمرين إلى إفريقيا ، وزعم البوير فى

إفريقيا الجنوبية أنهم لم يعثرو على السود فى المناطق التى هبطوا فيها ، ويقال أن السود انتشروا من منطقة جنوب الهاميلايا من مأوى أصيل لهم غير معروف تحديده إلى اليوم ، والفرع الشرقى منهم كون أهـل المحيطات وكذلك أهل إفريقيا ، ويزعم المتخصصون فى علم الأجناس ورجال الحفريات أنه عثر على سود فى الجزيرة العربية وفى الهند الصينية ومدغشقر ، غير أنه يجب أن نعلم أن سود العالم الجديد بالأمريكتين انحـدرو إليها نتيجة الهجرة القهرية الحديثة وتجارة الرقيق .

ويتميز الإفريقيون السود بما يأتى ويمكن تقسيمهم على أساس هذا التمييز :

١ — السود بطبائعهم الموحدة أو المتقاربة : وجلودهم تضرب إلى السواد الفاحم كقبائل الولوف أو النحاس الداكن كبعض البانتو بشعورهم المجعـدة الخشنة وشفاههم الغليظة وأنوفهم المفرطحة وخدودهم البارزة العظام وفكهم الضخم ، وهم طوال عمالقة وجماجمهم مستطيلة فيما عدا قلة ، وتكاد لا تـكسو أجسادهم ووجوههم شعور ، ويفصل بين إفريقيا السوداء والبيضاء حدود فسيحة ، تتبين منها الرحل من البربر البيض القادمين من الشمال والمستقرين فى الجنوب وهم فى حدود خط عرض ١٥ درجة ، والعرب الذين يكونون غالبية شمال إفريقيا وهم أقرب إلى البيض منهم إلى السود بقوامهم الممشوق ولونهم الزيتونى وعيونهم الدعجاء . وأهل الحبشة لا يعدون ضمن السود فهم خليط من البيض والسود .

٢ — جماعات السود تترا كم بعد خط عرض التشاد إلى قلب القارة ويكونون العناصر التالية : —

(أ) السودانيون ، وهم رعاة وألوانهم شديدة الدكانة وقد كونوا فى الماضى قوة مسيطرة على غرب إفريقيا ويعتبرون غالبيتها .

(ب) الغينيون ، وهم ذوو أجسام قويه شديدة المراس ، ولكنهم ليسوا بالطوال ويقطنون الغابات .

(ج) الـكونغوليون وهم يمثلون أول المجموعات من السود التى هبطت إلى إفريقيا ، ثم اضطرت أن تنزح إلى الغابات الاستوائية ، وهم متوسطو الطول وشعورهم كثة .

(د) سكان النيل والأنهار ، وهم طوال القامة وألوانهم ليست بشديدة الدكانة وربما يكونون قد تأثروا بالعنصر القوقازى .

(هـ) أهل إفريقيا الجنوبية من السود ، ومنهم البانتو نسبة إلى اللغة التى يتكلمونها وألوانهم ليست بشديدة السواد وسحنهم سمحاء منسقة .

ويقطن القارة عـلاوة على غالبية سكان إفريقيا المشار إليهم أقوام ليسوا من الأصول السود وهم :

١ — البيجمى فى الغابات الاستوائية،ولا يبلغ طول الفرد منهم أكثر من ١٥٠ سنتى ، وجلودهم سمراء وليست سوداء ، وجماجمهم مستديرة وأجسامهم ضئيلة وأنوفهم مفرطحة وجذورها مغروسة داخل وجوههم وشعورهم كثة ، ويشتغلون بالصيد والقنص فى مجموعات متراصة بالعشرات ، وقد ظلوا طويلا فى معزل عن السود ثم اختلطوا بهم فى قلة ، وتهددوا يوما ما بالانقراض ثم بدأ عددهم فى النمو من جديد ، ولا يزيد عددهم اليوم عن عشرات من الآلاف .

٢ — والبوشمان ، وهو مصطلح هولاندى ، ويعنى به سكان الفيافى ويسكنون مناطق الرعى حيث يـكثر العشب وفى المناطق المحاذية لصحراء كالاهارى فى جنوب غرب إفريقيا ، وكانوا كالبيجمى يحتلون جزءاً كبيراً من القارة ، ولا تزال أساطير وطبائع أهل القارة تحتفظ بذكريات البيجمى الرحل ذوى الجلد الأحمر : هذا القناص الماهر الذى لا يباشر زراعة ما ، والبوشمان الذى

أنتهى به المطاف فى جنوب إفريقيا ، وكان من أهلها الأصليين . وطاردهم الأوروبيون كما اضطهدهم واقتفى أثرهم السود القادمون من الشمال ، وقد قاسوا أشد أنواع العذاب والإبادة حتى أصبح عددهم اليوم لا يتجاوز بضعة آلاف ، وهم يستخدمون الرمح والسهام المسمومة فى حروبهم .

٣ — الهوتنتوت ، ويكونون خليطاً من البوشمان والسود ويسكنون شمال نهر الأورانج ويقرب عددهم من عشرين ألف نسمة ويشتغلون برعى الأغنام والماعز .

ويجب ألا ننظر إلى السود على أساس وضعهم الحالى من الإنعزال فقد كان وجه إفريقيا منذ خمسة آلاف سنة يختلف عنه اليوم ، فقد كانت الصحراء القحلاء التى تعزلهم عن الشمال أرضاً نضرة عامرة زاخرة ، ويسكنها أقوام من صيادى الأسماك والمزارعين والرعاة ، وكان السود على علاقات مستمرة مع حضارات مصر وغيرها فى الشمال ، وكانت قبائل البيجمى منتشرة على حدود المنطقة ، ولم تكن قبائل البوشمان قد أزيحت إلى صحراء كالاهارى ، ثم رحلت هذه القبائل مرغمة إلى الكونغو والسودان وغينيا وجنوب إفريقيا وإلى جنوب خط الاستواء ، ثم جاءت قبائل من البيض تقاسمهم أرزاقهم ومناطقهم من الشاميين والحاميين والساميين ، وظهر الشاميون لآلاف السنين مضت قبل المسيح فى شمال شرق إفريقيا وتوغلوا فى القارة عن طريق النيل والبحيرات الكبرى ولا تزال آثارهم ومخلفاتهم تحتوى عليها نحو نصف القارة الإفريقية . كما تكونت مجموعة هامة لها شخصيتها على جبال الحبشة هى خليط من السود والبيض بامتزاجهم بعضهم ببعض ، وقد اعتنق الناس فى تلك الأنحاء الديانة المسيحية فكانت لهم مهذباً ومرشداً واستخدموا المحراث وكونوا مملكة مستقرة بعرش متوارث . أما الحاميون وقد قدموا فيما بعد إلى القارة وساروا

من الشرق إلى الغرب فى حذاء شاطىء البحر المتوسط . كما تغلغلت قبائل البربر فى شمال إفريقيا حتى شاطىء الأطلنطى وامتزجوا بالسود فى مناطق الرعى والبرارى ، أما الساميون فقد ظهروا فى القارة مع ظهور الإسلام وهم العرب الذين هبطو إليها فى القرن السابع للمسيح ، وانتشروا فى طول شمال إفريقيا وعرضها ونزلوا إلى تشاد والسودان وفيما وراء الصحراء بعد القرن الحادى عشر للميلاد، ثم هبطت فيما بعد أقليات أجنبية من آسيا وأوروبا لتقاسم أهل القارة حياتهم وأقواتهم وتكون جماعات سياسية لها مشاكلها وأولاها مشكلة الأقليات والمشكلة العنصرية .

أما فيما يتناول حضارات إفريقيا بسودها على الخصوص ، فلم تتضح معالم التاريخ لإفريقيا السوداء إلا بالقليل من الوثائق المكتوبة عنها وهى ترجع إلى تاريخ متأخر عن بدء ظهور حضاراتها ، وكان من أهمها ما تركه لنا العرب منذ بدء القرن السادس عشر ، ثم ما كتبه الأوروبيون عنها فيما بعد حينما اتصلوا بأهلها ، غير أنه من السهولة بمكان أن نبنى ماضى القارة من بعض المخلفات والحفريات ، وهى حديثة نوعاً ما ، ويمكننا أن نحدد تاريخها عن طريق الكاربون المشع Le carbone radio-actif وكذا أساطير الناس وقصصهم وأحاجيهم وعاداتهم وآلهتهم والباقى من طبائعهم ، وهذا التاريخ ليس بأكثر تعقيداً من غيره ، وينبئنا بأنه كانت هناك حضارات لها طابعها الخاص واندثرت اليوم ، وكانت لهذه الحضارات سيطرتها وازدهارها واتساعها واتصالاتها الثقافية مع حوض البحر المتوسط ومصر والشرق ·

ويمكن وصفها من ناحية السكان تفصيلا بما يلى : —

١ — أهل الصحراء : ولا نعلم الكثير عنهم اليوم بينما كانت معالم مدنيتهم ونشاطهم وانتقالاتهم لا تكل ولا تهبط ، ودلت الدراسات على أنهم

كانوا على صلة بقلب القارة وبمصر منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ويزعم بعض المتخصصين أن هذه الصحراء كانت ترويها أنهار وكانت عامرة بالزراعة والمحاصيل ولا نزال نجد فى مناطق مبعثرة فيها الأجران التى كانت تطحن بجوارها الغلال، وكانت تحتوى على بحيرات يعيش على شواطئها صيادو الأسماك، وكانت المناطق الأقل رطوبة يقطنها الرعاة بقطعان ماشيتهم، ودلت الفحوص والحفريات فى أوائل القرن العشرين على هذا الوضع وعلى أنه كان هناك فن ممتاز فى الصحراء يرجع إلى العصر الحجرى بدأ بحياة استوائية ثم بحياة أخرى على أساس الرعى، ثم برزت صور الخيول وأعقبها فى وقت ما صور الجمال، كما خلف الأهلون نقوشاً لعربات القتال وللمحاربين ذات أوصاف تنتمى للبربر منذ بضعة قرون فحسب، ودلت بعض الاكتشافات الحديثة عند أعلى النيل على صلات حضارات الصحراء بحضارات حوض النيل والبحر المتوسط، ولكن المياه أخذت تنضب منذ قرون فتحولت المنطقة إلى فياف جرداء مما أدى إلى تقهقر الأجناس السوداء نحو الجنوب، ولكن ظل الاتصال بينها وبين الصحراء بواسطة القوافل، وظهرت منذ القرن الرابع للميلاد سفينة الصحراء وهى الجمل بأهميتها القصوى للأهلين فى تنظيم قوافل التجارة، ولكن عرف الجمل منذ القرن الأول للمسيح وشاد به يوليوس قيصر وأدى التقدم الفنى إلى سهولة تسخيره لخدمة الإنسان وقد كان مستعصياً عليه مما ساعد فى أعمار الصحراء ثانية على يد البربر والعرب والطوارق.

٢ — الإمبراطوريات السودانية والسوداء فى نصف القارة الشمالى وقلبها وقد ازدهرت منذ العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر وأهمها:

(ا) غانا: وقد أحرزت ملكاً عريضاً واتسعت رقعتها فى العصور الوسطى وتاخمت إفريقيا البيضاء والجزء الغربى من إفريقيا السوداء، وكان

اسم « غانا » لسيد الإمبراطورية وملكها ، وقد نشأت المملكة منذ القرن الرابع للمسيح على يد حفنة ارستقراطية من الأصول البيض والسارا كولى ، وتقع المملكة فى منطقة الصحراء وجنوب المراعى السودانية ، وكان يعزى ازدهارها إلى تبادلها التجارة واستخراجها الذهب من مناجمها ، ويذكر المؤرخون العرب عنها أن المرابطين استولوا على عاصمتها فى القرن الحادى عشر للميلاد مما أدى إلى تحرر البلدان التى كانت تتبعها واستقلالها وأهمها ساسو التى ظلت دولة قوية إلى أن سيطر عليها أهل الماندنج سنة ١٢٣٥ .

(ب) إمبراطورية مالى : الكلمة محـــرفة عن اسمى مقاطعتين هما مانى وماندى ، وقد ظهرت فى منطقة أعالى النيجر فى مطلع القرن السادس للميلاد ، وقد وردت فى مصنفات ابن خلدون . وقد خاضت المعارك ضد ساسو وانتهت إلى النصر ، ووطد ملكها سوندياتا سلطانه على المقاطعات التى تحتوى على الذهب ، واعتنق أمراؤها الإسلام بدعوة المرابطين وحج الإمبراطور « كان كان موسى » إلى مكة حيث الكعبة بيت الله ، وبذر طوال رحلته الذهب يمينا وشمالا وأنفق عن كرم باذخ ، ونجح المـاندونج فى القرن الرابع عشر تبعاً لسيطرتهم فى ترويج التجـــارة وتنشيطها ، وأمنوا لاستمرار ازدهارها وسائل انتقال القوافل ، وقدم إلى غرب إفريقيا الكتاب والفقهاء والعلماء من المسلمين، كما أقامت الامبراطورية صلات مع شمال أفريقيا ، وخلف الرحالة ابن بطوطة الذى زار مالى سنة ١٣٥٢ وصفاً شاملاً مفصلاً لتقدم هذه البلاد ، وما كاد القرن الخامس عشر يقترب حتى تمزقت هذه الإمبراطورية وشتتت أوصـالها تحت ضربات الطوارق من الشمال ، والسونغاى من الشرق والموسى من الجنوب ، وهددها الحكام المراكشيون لجاوو وتومبوكتو الذين انتصروا على السونغاى وصاروا خطراً عليها ، ثم انفصل عنها فى القرن السابع عشر البامبارا والسيجو، وكان هذا المعول الأخير سبباً فى أفول نجم إمبراطورية الماندونج .

(جـ) السونغاى (السونارى) : وقد نشأ سلطانهم فى النيجر الأوسط وعاصمتهم جاوو فى مطلع القرن الحادى عشر ، وازدهر ملكهم وأثروا على نسق غانا عن طريق تبادل الحاجات بين الجنوب والشمال ، ولم يعرف تاريخهم بدقة إلا ابتداء من القرن الرابع عشر ، ودانت إمبراطوريتهم فى مبدأ الأمر لمالى ثم تحررت من هذه التبعية فيما بعد، وكان أهم ملوكهم على بر أو على الكبير الذى امتد سلطانه من سنة ١٤٦٥ إلى ١٤٩٢ ، ثم قامت أسرة مالكة أخرى تدعى أسكيا أسسها مامادو تورى الذى أعاد تنظيم الإمبراطورية وأقام عمدها على نظم إدارية قوية وضم إلى ملكه مساحات واسعة ابتداء من الصحراء حتى شمال داهومى ، وطلع إلى الحج سنة ١٤٩٥ فى رحلة اتسمت ببذخها وسعة عطائه ، وبدأ اضمحلال الدولة على يد أخلافه ، وحاول سلطان مراكش فى آخر القرن السادس عشر الاستيلاء على الإمبراطورية وقد انتشرت الشائعات عن احتوائها على كميات وفيرة من الذهب وعلى مناجم غنية بالملح فى الصحراء ، وأرسل حملة لهذا الغرض مكونة من جنود مرتزقة من العرب والنصارى وكانت اللغة الشائعة بين العسكر اللغة الأسبانية وانتصرت فى النهاية على السونغاى واستولت على تومبوكتو ، غير أن السلطان لم يهتم فيما بعد تدريجياً بنصره حينما أدرك أن هذه البلاد ليست من الرخاء والثراء كما كان يظن ، وحصر السلطان نفوذه فى سيادته على تومبوكتو .

(د) الغزاة السودانيون فى القرن التاسع عشر : هناك عدة غزاة سودانيون يمثلون حقبات من التاريخ الاستعمارى لإفريقيا وقد جمعوا حولهم ووحدوا مجموعات من السكان من السنغال إلى قلب الأحراش الإفريقية ، واتخذت غزواتهم صورا من السطو والسبى وحرب الجهاد ينادى بها زعماء من المسلمين نذكر منهم الحاج عمر أو عمر تال وقد فرض سلطانه على أهل غينيا والسنغال والسودان فى منتصف القرن التاسع عشر ، غير أن انتصاراته لم تترك

آثارا تذكر بعده ، وكان آخر الغزاة ساموري وقد تميز ببراعته فى التنظيم الإدارى وكان آخر قناصة الأرقاء فى غرب إفريقيا ، وقد استمرت تجارة الرقيق فترة بعد إلغائها بالمعاهدات رسميا عن طريق البر ، وسيطر فى السودان الأوسط « رباح » أحد رؤساء القبائل وقد كان من تجار الرقيق ، فرض جبروته وقسوته على الأهلين فى برنو وكانم فى العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضى حتى هزيمته على يد الاستعمار الفرنسى الذى هبط إلى القارة مع الاستعمار الأوربى ليجهز على البقية الباقية من حضاراتها القديمة ، غير أنه لم يستطع أن ينال منها كثيرا وتأثرت الحضارة الغربية بالروح الإفريقيةفى الفن والموسيقى بنوع خاص.

(هـ) السودان الأوسط : وهذه المنطقة معروفة بالنيجر وحدود نيجيريا ويسكنها اليوم الهوسا ، قدموا إليها من المنطقة الوسطى واعتنقوا الإسلام فى القرن الرابع عشر الميلادى وكثيرا ما حكمتهم ملكات ، وانقسمت بلادهم إلى إمارات وكافح الأهلون ضد سيطرة السونغاى وكانت أقوى الإمارات كسبى ، وتبع الفلاحون هناك زعماءهم متأخرين فى اعتناق الإسلام ، ودخل الإسلام شمال وشمال شرقى التشاد وإمبراطورية برنو ابتداء من القرن الثانى عشر ، وحاربت هذه الحوسا وانتصرت عليهم وحكمت جيرانها ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر ثم انتهت بسقوطها على يد الواداى ورباح ، ودخل الإسلام مملكة الواداى شرق تشاد فى القرن السابع عشر ، ونخرفى عظامها سوس المنازعات والأحقاد والصراع ضدالجيران ، وكانت هناك جنوب شرق التشاد سلطنة باجيرمى وقد اعتنقت الإسلام فى القرن السابع عشر وتداولت عليها سيادة بوربو والواداى .

(و) إمبراطوريات موسى : وهذه الإمبراطوريات فى مدخل النيجر ويتميز أهلها بالصلابة والقوة ويشتغلون بالزراعة وقد عزفوا عن الإسلام ،

وأنشأوا ممالك انقسمت فيما بعد إلى إمارات صغيرة ، وأهمها في الشمال باتنجا والجنوب واجندوجو والأولى كانت على اتصال بالإمبراطوريات السودانية الماندنج والسونغاى ونجحت فى إرهابهما والثانية ظلت فى عزلة ، وكان ملوكها يلقبون بالنابا ويعدون أباطرة آلهة ويطلبون من الرعية عبادتهم ويحاطون ببلاط منظم ، ولا يزال للموسى بقاياهم إلى اليوم وكذلك النابا غير أنه ليس لهم سلطان سياسى بينما بقى لهم التبجيل الدينى الذى يفرضونه على رعاياهم .

(ز) إمارات الساحل وممالك بينين : كانت تعيش على ساحل الأطلنطى جماعات ضحلة العدد مبعثرة متباينة الأجناس قدمت مهاجرة اضطرارا من الشرق ، وكونت إمارات عسكرية الطابع متعددة ، وكانت أولى الأراضى التى احتلت أهلها بالبحارة الأوروبيين الذين قدموا إلى سواحل إفريقيا ، وقد خلعت أوروبا على هذه الإمارات طابعا من الأهمية تبعا للصالح المادى أكثر مما ينبغى فهى طريق تجارة الرقيق ، وأبرم زعماؤها المعاهدات الأولى مع المستعمرين. ونشأت ممالك اتسعت رقعتها فى داهومى وجنوب نيجيريا كانت تنتمى إلى المجموعة الحضارية البنينية ، وكانت هناك إمارات الأدا (ويـــدا وابومى وبورتونوفو) وهى إمارات ومدن وروبا بنيجيريا الحالية فيما بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر ، ونمت حضارة بنين وهى فى صميم مدينة أيفا التى تميزت بالفن البرونزى وباستخدام قوالب الشمع المصهور وبنحت العاج وعمل تماثيل من الطمى المحروق غير أنه لم يعرف أصل هذا الفن بعد .

(ق) إفريقيا الوسطى والجنوبية : كانت هذه المنطقة تتكون من الكونغو الحالية التى كان يطلق عليها الكونغو البلجيكية ، وقد اكتشفها البحارة البرتغاليون فى آخر القرن الخامس عشر وشاهدوا المملكتين هما لوانجو وكونغو وكانت الأولى تتبع الثانية ، وكان يحكم مملكة الكونغو الأمير مانى كونجو وتتبعه عدة إمارات

أخرى ، وترتب على احتكاكها بالبرتغال أن تكونت هناك ارستقراطية على نسق الاستقراطيات البرتغالية ، كما تبادلت مع البرتغال التمثيل الدبلوماسى ، غير أن مملكة الكونغو لم تستطع الاحتفاظ بسيادتها على الإمارات التى كسبتها وما لبثت أن تفككت الإمبراطورية .

٣ — إمبراطوريات السود فى النصف الجنوبى من القارة تضم المنطقة أراضى أنجولا حالا وروديسيا وكانت تعرف بمملكة ندونجو وكان ملكها يلقب بالنجولا ، غير أنه لم تعرف حضارتها بدقة وامتد سلطانها جنوباً إلى الزمبيرى وهى الإمبراطورية المشهورة مونوموتايا ، وآثار الزمبيرى تقع اليوم فى حدود موزمبيق وتشبه حضارة الأنجولا كما وضح ذلك من الدراسات المقارنة للمناطق ، وآثارها تتكون من مبان بحوائط من الأحجار مرصوفة بلا مونة كثيفة السمك تثبت أحجارها ، كما دل التنقيب على أن هذه الجهات كان بها كميات وفيرة من الذهب ، وعثر هناك على بقايا خزف إيرانى وصينى مما دل على نشاط التجارة الخارجية على طول شواطىء إفريقيا الشرقية وربما صحب تقدم هذه الإمبراطورية نشاط استخراج الذهب هناك .

وظل جنوب أنجولا وموتوموتابا أى إفريقيا الجنوبية لا يسكنه السود إلى أمد بعيد وكان يصول ويجول فى كالاهارى البوشمان والهوتنتوت ، ثم أخذ السود يزحفون تدريجياً من الشمال إلى الجنوب ، وظهر هناك فى مطلع القرن التاسع عشر محارب قوى هو « شاكا » نجح فى سيطرته على الزولو وفرض سلطانه على أهالى المناطق المجاورة وجهز هو ومن خلفه سلسلة من الحملات الدموية القاسية اجتاح بها البلاد حتى قيام الاحتلال الإنكليزى وبالتحديد مقتل الأمير الإمبراطورى نجل نابليون الثالث الذى تطوع فى الحرب مع الإنكليز ضد ثوار البربر فى إفريقيا الجنوبية .

٤ — إثيوبيا : وهى بلاد ساحلية فى حدود إفريقيا الشرقية وقد عمرتها قبائل قدمت من اليمن منذ عشرة قرون قبل المسيح أطلق عليها الحبشان ، وسكن أهم مناطق الجبال خليط من الشاميين والسود ، وكان أول اتصالاتها الخارجية مع مصر ، وبلغت مملكة أكسيوم هناك أوجها فى مطلع التاريخ الميلادى وفى حضارتها مسحة من الحضارة الإفريقية ، كما أنها امتدت بسلطانها إلى بعض البلاد العربية ، وقبل النجاشى فى القرن الرابع المسيحية فى بلاده ، وامتزج الشاميون الذين تغلغلوا فى البلاد فى القرون اللاحقة بالأجناس السابقة عليهم ، وتاريخ إثيوبيا ينبىء عن الصراع بين النجاشى والرؤوس وأمراء وحكام المقاطعات وسائر الرؤساء المحليين .

وجماع القول أن هذه المنطقة من القارة ظلت فى معزل عن العالم الخارجى الأوروبى والآسيوى فيما عدا العرب وحوض البحر المتوسط ، ثم بدأت وفود الاستعمار الغربى تتدفق عليها منذ القرن التاسع عشر إلى السواحل فيما عدا فترة هبط إليها البرتغاليون وهم فى حمى استكشافهم واتساعهم وللتبشير فى القرن السادس عشر غير أنه لم يعلم إلا القليل عن قلبها ، وتدل الحفريات على أنه قامت علاقات قديمة بين الحبشة وحوض البحر المتوسط ووادى النيل والشرق الأوسط وخاصة العرب وفارس والهند . وإفريقيا هذه وكما سبق أن ذكرنا كانت اسماً لإحدى قبائل البربر وقد اشتقت من تسمية قديمة للكهوف وتعبير بلاد أهل الكهوف، ولا تزال بقايا منهم يعيشون فى شمالها وهى قارة العجائب والمتناقضات حيث تلتقى أقدم الحضارات الفرعونية واليونانية والبيزنطية والرومانية والعربية فى شمالها بحضارات أخرى ظهرت واندثرت وتركت معالم على غموضها تدل على قدمها فى قلبها وجنوبها ، وهى كذلك القارة التى تدل على أنه سكنها الناس منذ مطلع ظهور الإنسان والتى تحوى متنوعات من النباتات والحيوانات مع عادات متناقضة فمن قبائل تعيش على جذور الأشجار والأعشاب إلى

أخرى تأكل لحوم البشر فإلى الإنســان المتحضر الراقى الذى علم البشرية ولقنهـا على مر التاريخ الحضارة إلى أن اتخذت صورتهـا الحديثة التى ننعم بها اليوم.

ولقد كانت بالقارة كما تنبىء الحفريات والرسوم والنقوش حضارات قوية قديمة فى العصر الحجرى، وظهر فى مصر رجال البحر الذين داروا حول شواطىء القارة للـكشف عن معالمها وشق عباب البحار أسطول الفرعون محاولا لأول مرة استكشاف القارة كما فعل كذلك أسطول البطالسة، وبعث القرطاجيون سفنهم إلى غرب القارة لنفس الغرض وكانت أهم الرحلات رحلة هانون التى تمت فى ١٢٥ يوما فى القرن السادس قبل المسيح، ووقفت عند ساحل إفريقيا الغربى وكانت تحمل آلاف المستعمرين ثم قفلت راجعة بعد أن أتمت مهمتها، غير أن الإغريق لم يذهبوا إلى إفريقيا السوداء وإن كانت الياذة هوميروس تشير إلى أقزام إفريقيا فيما أشارت إليه، واتصل الرومان مدى قرون متواصلة عن طريق القوافل والحملات العسكرية لجلب الذهب والعاج والحبوب من الجنوب وتبادلها مع الساحل والصحراء المحتل من ملح وريش نعام وسائر منتجات حوض البحر المتوسط وشمال أوروبا كالأقمشة والزجاج والعنبر والنحاس والرخام، ولـكن ما وصل إلينا من هذا النشاط ضئيل، فـكان بعض الأقدمين على علم بهذه البلاد غير أنه كانت هناك أسرار تخفى خبايا الطرق التجارية تبعاً لخطر المنافسة مما حال دون معرفتنا الصحيحة بالموقف، وزاد الأمر تعقيداً نضوب معين مناطق الصحراء كما سبق أن بينا مما أوقف تبادل المنافع بانتظام منذ العصور الوسطى وما لبث الإسلام أن ولج الديار فى شمال إفريقيا ليخلع ثياباً من السماحة والحريات على القارة ويصرف أهلها عن استمرار التصارع على النفوذ. ولجأ الأوروبيون إلى البحر ليحاربوا النفوذ الإسلامى فى القارة وليجلبوا إلى مزارعهم

الواسعة وبلاط أباطرتهم ومرافقهم الأقوياء من السود أرقاء يعملون لإثراء الغرب واتساع نفوذه وسلطانه العريض .

ونذكر بهذه المناسبة أن شاطىء إفريقيا الشرقية وفده منذ العصور السحيقة تجارة من الشرق الأوسط جذبتهم إلى المكان المغامرة والسعى وراء مناجم الذهب ، ودلت خرائب المدن القديمة على أنه كانت هناك حركة تجارية واسعة النطاق ، كما نمت بعد ذلك تجارة الرقيق وظلت مدة بعد إلغاء الرق رسمياً بالمعاهدات الدولية يباشرها النخاسون سراً .

وإن بقايا المبانى المستديرة فى الزامبيا وروديسيا تدل على تأثر المنطقة بمناطق أخرى بعيدة عنها فضلا عما عثر عليه من مخلفات الخزف والأوانى من آسيا ، وكانت عملات إفريقيا هى القواقع والودع المستحضر من المحيط الهندى على نسق مثيله المستعمل فى الهند فى ذلك الوقت وقد دخل القارة عن طريق الساحل الشرقى ، أما فيما يختص بصهر البرونز والشمع وسائر المعادن فقد نقلت القارة وسائل الصهر من الخارج ، كما أنه استعمل الحجر المحروق كوسيلة من وسائل تبادل العملة ، واستحضر العنبر من البلطيق للقارة ، وتأثرت حضارات القارة السوداء بالحضارة المصرية القديمة ثم بالحضارة العربية وكذلك بالمسيحية المتقشفة فى عصورها الأولى ثم بدعوة رجال التبشير وقد جاءوا لتوطيد أقدام الاستعمار وتنظيم استنزاف دماء وأموال أهل القارة ، وهى لا ترقى إلى مستوى الدعوة الإسلامية هذه الدعوة القائمة على الحسنى والبساطة والقناعة ، وقد اعتنقت القبائل الإسلام عن طيب خاطر ودخلته أفواجا لسهولة العبادة ووحدة الإله وسرعة تفهم النظم الاجتماعية والسياسية التى نشرها الإسلام وما فى هذه الدعوة السمحاء من الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى فى المساجد والعراء دون ما حاجز بين وجدان الإنسان وضميره وتوحيده وذكره الله ورسوله علاوة على سماحة

الدين وبعده عن التعصب والعنف واحترامه لسائر العبادات وأن المؤمن من سلم الناس من يده ولسانه ، ونبذه الأصنام والسحر وسائر الموبقات التى تفت فى عضد القبائل الوثنية ، وقد تأثرت القارة بالحضارة العربيـة وبصلاتها بالهند والصين أكثر من تأثرها بحضارات الغرب وخاصة الإغريقيـة والبيزنطية والرومانية .

ودخلت المسيحية القارة فى مبدأ الأمر عن طريق الحبشة منذ القرن الرابع للميلاد كما سبق أن بينا ، ثم جاء عصر الاستكشافات الجغرافية وطاف دياز حول القارة إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ للبحث عن طريق إلى الهند ، ونشأت المحطات التجارية للأوروبيين على السواحل وبدأت بالمخـازن البرتغالية فى ريواورو فى القرن الخامس عشر ، وبدأت الوسائل الاستعمارية الغربية تنمو وتتضخم لتنوخ بكلكلها على القارة تبعاً لعوامل متعددة منها : حب الاستطلاع والمغامرة وأعمال التبشير ونشر المسيحية والبحث عن منتجات المناطق الحارة واستحضار الأرقاء ، وحصلت أوروبا من القارة على قوى من الأيدى العاملة ذات السواعد المفتولة خلال عدة قرون وقد بلغ عددهم عشرات الملايين على حساب رخاء القارة وتقدمها ، كما أدخل الأوروبيون لصالحهم نباتات ووسائل استغلال جديدة وظل الرق سائداً قرناً من الزمان بعد إلغائه رسمياً ، ثم أخذ الاستعمار طريقه إلى التصفية بعد الحرب العالمية الثانية ونشأت دول جديدة فى القارة الناهضة ، وظلت مشكلات العنصرية بدون حل حاسم وهى من رواسب الاستعمار .

وهكذا تأرجحت سمات الحضارة الإفريقية بين وفود بلقيس ملكة سبأ وكانت إثيوبيا فى بعض القول ضمن مملكتها ووردت قصتها فى الكتب المقدسة ، واتجهت بلقيس إلى سليمان لتضع بين يديه حكمتها ، ووفود اليهود إلى الحبشة وهم الفلاشا وقد رحلوا إليها فى عهد سليمان ويبلغ عددهم نحو خمسين

ألفاً وكان يعيش معظمهم فى الغابات ويرفضون أن يسلموا بوجود يهود بيض ، ومن الرجل البدائى الذى يعيش على الأعشاب والقنص فالمتحضر الذى ورث الحضارات القديمة وورثها لأوروبا فقامت من كبوتها فى عصر البعث والنهضة وتطور اليوم وفق المدنية المادية الحديثة ، وفى دخول المسيحية بكنائسها وتماثيلها وطقوسها وقساوستها ورهبانها ومذاهبها ومبشريها وفى اعتناق القبائل الإسلام عن طريق التجارة والقوافل وحسن التفاهم والتعاضد وقيام دين ودنيا ، وفى الحروب والمصادمات المستمرة فى القارة وقيام إمبراطوريات ثم تفككها وانتشار النخاسة وتدهور الحياة السياسية والاجتماعية وأنشب الاستعمار أظفاره فى القارة فقيامها اليوم من كبوتها وتحررها وتصفية الاستعمار ، وتسير القارة سريعاً نحو تعويض مافاتها لتصبح زراعاتها وصناعاتها وعواصمها ومدنها وقراها ونظم حكوماتها متضامنة جديرة بماضيها وكفيلة بضمان الرفاهة والتقدم للأهلين فى حاضرها ومستقبلها .

الباب الثانى

الروح الافريقية

يقتضينا البحث عن إتجاهات إفريقيا الحديثة وسياستها أن نغوص فى أعماق قلبها وروحها ونكشف عن وسائلها الزراعية والفنية والمعيشية والغذائية والحرفية وتكوين الأسرة والحياة السياسية للجماعة والديانات والفنون لندرك على ضوء ما تقدم حال هذه القارة العريقة ومستقبلها وهى تسير سيرها الحثيث نحو نهضتها الحديثة بوثبات سريعة ، وفيما يلى بيان ذلك : —

١ — الزراعة ونشاطها : يكثر الرعى فى القارة وهو يخضع إلى العناصر الجوية وتقلباتها ، وأهم قبائل الرعاة الفولانى . والرعاة دائمو التنقل فى إفريقيا الشرقية ، وتصحب الرعى زراعة مؤقتة بأشغال بعض مساحات محدودة بها فى مواسم الأمطار ، وتختفى القطعان الضخمة فى المنطقة الإستوائية تبعاً لأخطار ذبابة « التسى تسى » حيث يربى هناك الماعز والخنازير ، وبدأ يقل عدد هذه القبائل وأخذت تفقد أهميتها وأهلها يعيشون على مستخرجات ماشيتهم وعلى ما يتبادلونه مع سائر الأهلين من سكان المدن والقرى ، ولا تخصب الأرض بمخصبات مما يجعل إنتاجها ضعيفاً إذ تعتمد الزراعة على حرق الأعشاب لتسميدها ويبذر الحب قبل موسم الأمطار ويجنى المحصول بعد إنتهاء موسم الرطوبة وتعتبر الأرض التى تزرع فى دورات عدة من السنة محددة ، والمنطقة الإستوائية تستمر فيها الزراعة طوال العام حيث تساعد العوامل الجوية على هذا الوضع غير أن نتاج الأرض ضعيف نسبياً ، ويباشر الزراع العمل بقيادة رئيس يوزع عليهم الأعمال والمساحات وتترك الأرض بوراً لمدة طويلة حتى الدورة الزراعية المقبلة ، واستغلال الأرض دون أسمدة وبلا محاريث وحيوانات ومياه رى

منتظمة لا يساعد على نمو ثروة القارة وإطعام أهلها بما فيه الكفاية وربما يرجع هذا إلى قسوة العوامل الجغرافية والجوية هناك ، والأرض فى هذا الوضع تعتبر ملكا لعامل خفى أو بعبارة أخرى مملوكة للمجموع ، والعبادات أهم من الأرض ويرجع إليها فى اعتقاد أبناء القارة تحقيق الرخاء وازدهار المحاصيل ، مما حدا إلى تقديم الشكر بالعبادة للحصول على المحاصيل ، ويخضع لهذا الوضع المحصول والحيوان ، ولهذا إذا هزمت جماعة أخرى وغزت ديارها فعليها بناء على هذه العادات احترام معتقداتها وأثر العبادة فى الأرض والمحصول ، وصاحب الأرض سيد القبيلة أو الأسرة المسيطرة أو الجماعة ولكن يستمر الجميع فى الإشراف على الزراعة حتى بعد الغزو وغلبهم على أمرهم .

٢ — السكنى والملبس : يخضع السكن والأكل إلى عوامل المناخ والأرض والحضارة ، وتسود شمال السودان المنازل المربعة المبنية من اللبن وأسقفها مسطحة وفتحاتها قليلة وضيقة ، وهناك الأكواخ المبنية من النباتات والأعشاب وهى أقدم من الأولى ، وبعضها حوائطها قد تتكون من التراب الصلب ، وتنتشر فى الغابات والأحراش المساكن المكونة من الأعشاب فحسب وجدرانها من أوراق الأشجار وقشورها ، وتقام على قواعد خشبية ، وتتكون أسطحها من فروع النخيل ، والقرية هى محور الحياة الجماعية للعشيرة ، غير أن الحياة لا تنتظم هناك تبعا لانتشار الأشجار الكثة والأحراش وتترك مساحات واسعة مسطحة لأداء الرقص والطقوس الدينية ، وهناك صنم خشبي مقدس فى طرف القرية ، وكل مكان به مقر للسكنى وقد كان ولا يزال لايواء الأسرة برمتها وتتجمع فيه عدة أزواج وزوجاتهم وأطفالهم ويحاط بسور مطلى بالجير لحماية حرمة السكن ، وتباشر ربات الأسرة الطبخ خارج أكواخ السكنى وفى جهات معدة لذلك منعزلة عن الأولى وذلك لاتقاء الحرائق .

والملبس يخضع للعوامل المناخية ولنوع من الحياة والعبادات ، كما تؤثر فيه عوامل أخرى كالعادات واتصالات القبائل بغيرها ، وقد تساعد الحرارة على انتشار العرى كما قد تدفع إلى ارتداء ملابس عازلة ، مثال ذلك استخدام الصوف كما نرى عند الطوارق ، وقد قضى الإسلام فى المناطق التى انتشر فيها على العرى ، ويتميز المؤمن بملبسة النظيف الأنيق ، كما ارتدى الذين يعيشون على الصيد والنقص مدة طويلة جلود الحيوانات والماشية مثال ذلك النمادى ، ونشاهد لدى السود أنهم بنبذ الوثنية واعتناق الإسلام أو المسيحية ونزوحهم من الأحراش والأدغال إلى الوديان تبدأ أجسادهم فى الاكتساء بالملابس ، ولكن هناك أقواماً يعيشون عرايا مع ستر بسيط لعوراتهم مثال ذلك البوبو فى ساحل العاج والسامبا فى شمال داهومى ، وكان أهل الغابات يكسون أجسادهم بملابس من قشور الأشجار على نسق بعض البالاسور فى الهند والتابا فى الباسفيك ولا يزال هذا الوضع قائما اليوم .

٣ — المأكل : كان مأكل أهل إفريقيا السود حتى السنوات الأخيرة فقيراً عاجزاً غير متوازن ، وكانت التغذية غير كافية وتفتقر إلى الفيتامينات والبروتينات ، ومما زاد الطين بلة انتشار الأمراض المعدية والطفيليات بين الأهلين، ولم تك المجاعات بنادرة فى القارة فضلا عن عجز المحاصيل، والحرمان كان القاعدة فيما بين استهلاك المخزون فى الأجران وظهور المحصول الجديد ، وكميات سعرات الحرارة (كالورى) التى يحصل عليها الإفريقى كل يوم من طعامه لا تصل إلى ٢٠٠٠ وحدة بينما أن حاجة الإنسان الذى يعمل بساعديه أعمالا يدوية زراعية أو صناعية أو حرفية تتعدى ٣٢٠٠ وحدة ، وهكذا يتضح عجز الوسائل الصحية وضعفها وارتفاع معدل الوفيات فى الأطفال لا سيا فى زمن فطامهم ، وكانت الأمهات تؤخر الفطام وتطيل سنوات الرضاعة إلى ثلاث أو أربع للإبقاء على أطفالهم .

وهناك من الإفريقيين السود من يعيشون على الماشية ومنتجاتها والذين يعيشون على الأسماك الطازجة والمدخنة والذين يأكلون الحاصلات الزراعية مع ما يجمعونه من الغابات ، والأخيرون ينقسمون إلى قسمين رئيسيين وهم الذين يزرعون الحبوب ويقتاتون من الحنطة وزيوتها ، والذين يعيشون فى الغابات ، ويأكلون فصائل البطاطا وزيوت النخيل ، وجنوب السودان طعامه الأساسى الأذرة وأنواع الحنطة ، كما أن بعض المناطق تقتات الأرز وهو مصدر تجمعات بشرية كثيفة تعيش عليه ، وتنتشر فى المناطق الاستوائية الفاكهة وخاصة الموز والأناناس والباباز ، وتتبلغ بعض الجماعات فيما بين نضوب معين المخزون من المحاصيل وظهور الجديد منها وكذا فى أزمنة القحط الطين اللزج الدهنى ، وهو يخفف من ألم الجوع ويمد الجسم بمادة زيتية تقوم أوده .

واللحوم ليست بالوفرة المتصورة فى إفريقيا ، وهى غذاء استثنائى لا يتوفر بسهولة ويضاف إلى الطعام الأساسى ،أما الطعام الأساسى فهو إما أصناف الحنطة أو البقول أو البطاطا المعجونة بالزيوت اللزجة أو النباتات والاعشاب والفاكهة وتضاف إليها مواد حريقة ، وكثيراً ما تتدخل العادات والمعتقدات الدينية فى أنواع الغذاء لتحرم بعضها ، كما قد يمنع السحرة وأدعياء الطب الناس من تعاطى أطعمة معينة ، كما أن الرجال والنساء يأكلون بمعزل بعضهم عن بعض على نسق الحضارات الغابرة .

٤ — الحرف : يشغل أبناء الحرف مكانا مرموقا فى المجتمع الإفريقى ،وأهمهم الحداد وهو الذى يتفهم أسرار التعدين واستخدام النار فى صهر المعادن ويعد فى نظر الإفريقيين فى مستوى فن السحر ، وهو لا يعد فعلا ضمن الجماعة المرموقة فى الهيئة الاجتماعية ولكنه على هامشها ، وهو إما فى قمة التقدير لفنه وإما فى مستوى منخفض لبعده عن طبقات المجتمع ولكنه دائما مهيب الجانب ،ويرجع

الخوف منه إلى معتقدات الإفريقيين فى قوته الخفية وأنه يقوم بأعمال فنية خطيرة، ويعد التعدين عندهم تدنيساً للأرض التى تنتج ما يهبهم الحياة ، وهناك طقوس يقومون بها ورموزها مصدرها ضرب المعادن وأعمال الحدادة، والحدادون يكوّنون طائفة مهنية قائمة بذاتها ، ولا تتزوج بنات الطائفة من شباب طوائف أخرى ، وهذا نوع من العزل الاجتماعى، وتوزع اختصاصات الحداد أو رجل التعدين فى نطاق الطائفة ، وهناك المشتغلون بالصياغة والحلى وغيرهم ، والذين يعملون فى الأصباغ والجلود ، ويشتغل نساء الحدادين بأعمال الفخار والخزف ، ويوزع النشاط بين الرجال والنساء ولا تشتغل المرأة بالتعدين والمعادن النفيسة والخشب ونادراً ما تعمل فى الجلود ، وكل من النساء والرجال يشتغلون بأعمال الخزف والفخار والصباغة والصوف .

٥ — الأسرة : إن المجتمع الإفريقى حسب عاداته وتقاليده فى أصله جماعى وكل مجموعة من البشر تكون وحدة اجتماعية يندمج فيها الفرد بكليته، والتضامن بين الأعضاء أساس هذا المجتمع ولا يحس العضو بشخصيته وسعادته وتوازنه إلا بين الجماعة ، وإذا أحس بعزلة عن الجماعة ووحدته فقد ثقته بنفسه ، ويضاف إلى الجماعة القائمة الأسلاف ويعتبرون أحيـــاء غير مرئيين وكذلك الأرواح والآلهة ، ويشعر الإفريقى فى هذه الحياة الجماعية وفى القرية والأسرة أنه على سجيته بينه وبين نفسه وفى مواجهة العالم .

ويقوم نظام الجماعة كما يأتى :

(١) الخلية الأولى الأسرة : وهى الخلية الاجتماعية ويعنى بهـا الأسرة الكبرى الممتدة من بدء تكوينهـا وقد عرفتهـا أوروبا فى القرون الغابرة والوسطى ، وهى مكونة نظرياً من رأسها الوحيد ، وفروع هم أخلافه وأحفاده ، ويعيشون جميعاً حزمة واحدة فى مكان واحد ويكوّنون كتلة اقتصادية فيما

يختص بالعمل والإنتاج والاستهلاك ، ورئيسها أقدمهم ويستمد سلطانه كوكيل للأسلاف والأجداد وهمزة الوصل بين الآباء الذين قضوا والأخلاف ، وينتقل السلطان من الأخ إلى أخيه حسب ترتيب المولد ، والعمل جماعى فى الحقول والمزارع وفق خطة يرسمها الرئيس ، وهو المسئول عن توفير المحصولات وتوزيعها ، وهكذا تتكون الأسرة الكبرى تدرجاً من اجتماع عدة أسرات ، وقد أخذت تتحرر من هذا الخضوع الأسرات التابعة تدريجياً تبعاً لتطور القارة .

(ب) رب الأسرة : وكان رب الأسرة رئيسها فيما مضى ، وهو السيد والأب الروحى لها ، ويقوم بفض المنازعات ويباشر الطقوس الدينية وإحياء ذكرى الأسلاف وينظم الحياة الاقتصادية والاستثمار ، وهو الذى يوافق على الزواج ويفاوض من على مستواه فى مصالح الجماعة، وأخذ رب الأسرة هذا يفقد بعد التطورات التى حدثت فى إفريقيا الكثير من سلطاته .

(ح) النظام السياسى للجماعة : الجماعة هى مجموعات الأسرات المتعددة ، ولا يمكن اعتبار نظام الجماعة الإفريقية أوتوقراطيا أى يقوم على حكم الملك المطلق اليد أو ديموقراطيا أى يقوم على حكم الشعب للمدينه ، وزعم بعض الكتاب دون ما سند أن الجماعات التى تعيش على الفطرة أو ما يقرب منها تسودها المساواة التامة كما هى الحال فى الحياة الطبيعية وهذه المثل العليا فى المساواة والعدالة وألا فرق بين فرد وآخر قد ذوت بفعل شوائب المدنية ، إلا أن الواقع يدل على أن هذه الجماعات الإفريقية القريبة من الطبيعة لم تسدها الديموقراطية والمساواة بل كان هناك تسلسل وتدرج بين مختلف طبقاتها الاجتماعية ، كما قيل خطأ بأن هناك نظم حكم مطلق تسود القارة وأن على رأس الجماعة رؤساء لا يسألون الحساب ويحكمون بمحض إرادتهم بلا رقيب ، وفيما عدا بعض الزعماء

الذين سادوا استثناء بالقوة والحرب والسيف وفرضوا نفوذهم بلا حساب فإن الرؤساء والزعماء يخضعون لعوامل عدة تحفظ التوازن السياسى فى الجماعة ، ونرى بعض جماعات قليلة ومحـدودة تسودها الفوضى وليس لها رئيس سياسى يحكمها ، ولـكن غالبية الجماعات السياسـية ينظمها التدرج فى الطبقات والطوائف فهناك الطبقات الارستقراطية والنبلاء والأحرار والموالى ثم الأرقاء ويضاف إلى ذلك أبناء الحرف الذين نوهنا عنهم فيما سبق ، والرئيس عليه أن ينصاع إلى الأوضاع القائمة وتقاليد الجماعة ورأى النبلاء وحاجات بقية أبناء المجتمع السياسى ، وهذا ما يقيم التوازن بين السلطات ، كما رأينا أنظمة الإقطاع فى سلطنات غرب إفريقيا والتشاد وأنظمة تقدس إلى حد العبادة الإله الزعيم ، كما تسود الرئاسة والإمارة فى المناطق المحدودة السكان والممالك فى الجهات الـكثيفة السكان ، وتتوازن قوة الرئيس أو الأمير عن طريق النبلاء وكبار الزعماء الذين يشرفون على الأراضى وأصحاب الحنكة من المسنين والطوائف المتميزة وتسود فى بعض المناطق النظم المركزية وفى البعض الآخر النظم اللامركزية . ولا يصبح الفرد عضواً عاملا فى الجماعة إلا بعد بلوغه الحلم ويمر فى سـلسلة من الطقوس لهذه الغاية كما يباشر تدريباً معيناً ، وقد يطلب إليه الاعتزال فى الغابة لفترة من الزمن ، ويبدأ الأطفال نشاطهم بتعلم التقاليد والعبادات وبعض الحرف والصناعات .

٦ — العبادات : تتعدد الأديان والعبادات وتتباين فى القارة السوداء ، ونقصد فى دراساتنا هذه العبادات الوثنية الإفريقية الصميمة القديمة وقد استبعدنا منها الإسلام والمسيحية ، ويمكن تلخيص صفاتها فيما يلى .

(ا) الأسلاف والأجداد : تتميز هذه العبادات بعبادة الأسلاف والأجداد ولهذه العبادة أهميتها القصوى فى القارة السوداء ، وترجع إلى اعتقاد الوثنيين

بأن هناك حياة منفصلة عن الحيـــاة الإنسانية القائمة البالية ، وأن الأسلاف هم الأوصياء على الأحياء والجماعات وقد تتقمص أرواحهم فى المولودين الجدد وأن رعايتهم وحمايتهم لهذه الجماعات هى التى توفر رفاهتها بل وحياة الأخلاف ، والعبادة هى فى دائرة الأسرة أو شجرتها وفروعها وقد تتحول رؤوس الأسر المـالـكة وأسر الأمراء إلى أشخاص مقدسة يعبدون بواسطة الجماعة برمتها .

(ب) تقمص روح الأجداد : تتقمص روح الأجداد فى الأخلاف ، وفى المعتقدات الوثنية الإفريقية أن هناك قوة روحية تتمثل فى الحيوان أو النبات وتتغلغل فى النفس البشرية ، ويحدو بهم هذا الوضع إلى التقارب أو التباعد بين جماعات وأخرى .

(جـ) تقارب فـكرة الأديان القديمة : إن الأنظمة الدينية الوثنية الإفريقية تـكون وحدة وكتلة لها منطقها داخل نطـــاق الشعوب الإفريقية ، وتتناول العبادات الأمور الدنيوية أيضاً كالزراعة ، وتتعدد نواحيها المقدسة وتقوم على الرموز والطقوس والتعاويذ والخيالات والتضحيات والأناشيد والغناء والرقص، والرمز يشير إلى شىء معين ملموس فى الحياة الدنيا وقد يكون سحرياً أو دينياً وهو من أهم وسائل تبادل الفـكر والتعاون الاجتماعى بين شعوب ليس لديها لغة مكتوبة وصناعات تذكر ، والقصص والخيالات من لوازم الحضارات الشفوية وتعبر عن مكنون النفس وما فى الضمير والعقل الظـاهر والباطن بالعرافين والمداحين والمنشدين ، والتضحية من لوازم كافة الأديان وهى تباشرها وفى خدمة قوة خارقة خفية ، ويحصل الإنسان فى مقابلها على جزء من هذه القوة أو على رعايتها ، وقد تـكون بتضحية الحيوان أو النبات أو الإنسان ، وتتم على يد الرؤوس الذين يسهرون على رعاية الأديان وأداء طقوسها .

(د) الروح فى الوثنية الإفريقية : ظن البعض ممن لم يتعمقوا فى الحيـــاة

الإفريقية الأصيلة أن الأديان القديمة للقارة تقوم على أساس عبادة الأصنام والأنصاب والتماثيل فحسب وهى تمثل الآلهة والأرواح ، ولكن استبعدت هذه الفكرة اليوم ، وهذه الأديان تتمثل فى الروح التى تسير الحياة وتنظمها بما فى ذلك الاتجاهات العقلية والثقافية ، وهى كائنة فى الطبيعة ، وهذه العبادة تدعو إلى الفصل بين قواعد لها يتفهمها الجميع وأخرى مقصورة على نخبة ممتازة من المتمسكين بالدين ، ويمكن إدراك مدى أهمية الرموز وفكرة الإله الجبار التى تضم إليها مجموعات الآلهة الشتى من هذا التفسير ، والإله المقدس عند الإفريقيين قد يكون فى الشمس كما هى الحال لدى السارا أو القمر كما هى الحال لدى الكيردى أو فى مرض الجدرى كما هى الحال لدى الداهوميين ، وفى الأرض الطيبة التى تبعث الحياة أو فى الأسلاف الذين يعتبرون دائماً مقيمين بين الأحياء بأرواحهم .

(ه) جماعات المريدين : ونعتت خطأ بالجمعيات السرية ، وهى جمعيات على رأس كل منها شخص لا شك فى إخلاصه وإيمانه ويجمع حوله مئات من المريدين وتتسلسل فيها مراكز الأعضاء وتتبع نظاماً صارماً والعديدون منهم يرتدون نوعاً معيناً من الملابس فضلا عن اللثامات التى تنبىء عن الجمعية ومبادئها ، وفلسفتها تعبر عن إمكان اتصال الفرد الإنسان بالإنسان المسيطر على الآخرين ، وهذا يمكنه أن يفسر أقوال القدماء وينقل إليهم أفكار الأحياء ، وينتمى العديد منهم إلى طائفة السحرة ومنهم الأفراد الفهود والأفراد الطيور ، وقد يرتكبون جرائم دينية فى مباشرتهم العبادات ، ولا تزال هذه العادات قائمة فى عدة مقاطعات لمكافحة الآفات والعدوى والأوبئة .

(و) المكتوب والحتم : يعتقد السود اعتقاداً جازماً بأن مستقبل الإنسان ليس بيده بل هو يخضع للحتمية وأنه مرسوم مقدماً ، ولهذا فإن مستقبله فى نظرهم

مخطوط مقدماً ويمكن إدراكه عن طريق مباشرة أعمال وحركات مقدسة معروفة، وكذا يمكن تخفيف سوء المصير بوسائل فنية خاصة، ويتبع السحر فى هذه الحالة وهو على نوعين: الأول الطيب المفيد ويباشره الساحر المداوى والثانى الخبيث الضار ويباشره المشعوذ للإضرار بالغير ويمكن تلافيه بالكشف عنه مقدماً، وهذا الأخير فى اعتقادهم سبب شتى الأمراض، وتتبع سلسلة من التعاويذ والإشارات والعبادات لطرد الشر والروح الشريرة، وقد تأثرت العبادات الحديثة القائمة على الكتب السماوية بهذه التقاليد والعادات القديمة الموروثة ولم يمكن محوها بحال، وهذا ما شوهد فى مطلع المسيحية فى روما حينما كانت تبنى كنائسها على الربوات التى سبق أن كانت تباشر فيها العبادات الوثنية التقليدية.

٧ — فنون الشعوب السود وآدابها : للشعوب السود فنون وآداب وموسيقى تدل على ذاتيتها وقد كشفت عنها أوروبا وأفادت منها وفيما يلى الشرح:

(ا) الفن : كشفت أوروبا عن فن السود من التماثيل والأقنعة لأهل إفريقيا السوداء والمحيط الباسيفيكى فى مطلع القرن العشرين، وانتهل من موردها ديران وبيكاسو، وتختلف الرسوم وغيرها عن مثيلاتها لمعايير الجمال وتناسق الأعضاء فى اليونان القديمة وروما، وأحدث هذا الكشف ثورة فى الفن الغربى، وفتح هذا العمل المستحدث طريقاً جديدة فى التعبير وهدم الحواجز ما بين التقليدى والجديد، خصوصاً فى بحث أصول الأشياء فيما وراء المظهر، وفى الكشف عما تحويه الرسوم والرموز من أشكال جميلة دون الاهتمام بالجمال فى شكله الواضح، وهكذا نشأ ما يسمى برسم المكعبات والخطوط الهندسية (الكوبيزم) cubisme والتعبير دون التقيد بالفكر (الدادايزم) dadaisme والتعبير على أساس لا تتقيد فيه بالمنطق الظاهر والاعتماد على العقل الباطن (السورياليزم)

surréalisme وهذا يدل على تطعيم الفن الأوروبى بالفن الحريق الاستوائى، ويمكن أن نصف الموسيقى الصاخبة الراقصة أو الجاز بنفس هذا الوصف ، وقد ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية وانتقلت إلى أوروبا ، ومن الخطأ القول بأنها نتيجة الحياة الصناعية والآلية الحديثة ، وهكذا أحدثت فنون الرسم والنحت والموسيقى والرقص آثاراً عميقة الجذور باقية على الدهر فى الفنون الغربية .

(ب) الأدب الشفوى : ويتناول هذا الأدب فى إفريقيا السوداء مجموعات من الأغانى وقصص البطولة الخيالية والأحاجى ويصحبها الإشارات والحركات والموسيقى ، وهى أقرب إلى الفن الأدبى منها إلى الأدب ، ويرويها متخصصون على نسق الزجالين والمداحين والكوميديين، ويروون الشعر فى إفريقيا الغربية وكذلك يحكون القصص والمآسى والأساطير الدينية أمام جمهرة صاخبة من الناس يشاركونهم فى التعبير ويرددون أقوالهم بين التهليل والتأييد والتشجيع والضحك والإشارات والحركات ، ويتحول الحديث إلى حوار وتبادل العبارات بين الرواة والمستمعين ، ويحتوى بعض ما يروونه على ألغاز بقصد حلها وتفسيرها وإلى فكاهات وعظات ، وهى تعبر عن مثل الجماعة وروحها وترشدها وهى تتغير وتتعدل باستمرار وتعرض لأحداث الجماعة وحاجاتها وعاداتها وتاريخها منذ القدم وما وصلت إليه شعوب القارة من اضمحلال نتيجة استعمار الغرب وقسوته ، ويعبر عن الروايات باصطلاحات مختلفة ، فهناك دور الأرنب ودور الضبع ودور الفيل ، وللحيوانات التى تعبر عن الإنسان أهمية فى بيانها موقف الأفراد وحاجاتهم واتجاهاتهم ، وهذا ما كان عليه المجتمع فى العصور الوسطى فى الغرب .

(حـ) الإبتداع الإفريقى : يختلف الفنان الإفريقى عن الغربى فى أن الأول لا يبرز بشخصيته بل هو يعبر عن الجماعة ولا يسعى فى سبيل الظهور بشخصه

والزهو بفنه ، كما أنه ينقل أحاسيس الجماعة وهو بهذا لا يهتم بالاسم بقدر اهتمامه بإبراز شعور وصور الجماعة ، أما الثانى فهو يبرز شخصيته ويهتم بعبقريته كتعبير عن روحه التى تمثل الجماعة ، وهو بابتداعه وابتكاره يظهر المستطرف والجديد بأى ثمن ويبحث عن طرق جديدة فى سبيل هذه الغاية ، وهمه الأول هو إبراز ما يراه ويعرفه بشخصه فى هذا العالم ولا يترجم ما يتفق عليه الجماعة فى هـــذا الشأن ، وهكذا نرى الجبهتين متباينتين فى المبدأ ، غير أن فنان إفريقيا السوداء الحديثة خرج عن هـذا النطاق القديم وسار على نسق الفنان الغربى فى التعبير عما يراه فى الكون بقلبه لا بمنظار جماعته ، غير أنه يرجى أن تمتزج الفكرتين الإفريقية والغربية فى التعبير الفنى الجديد .

وفيما يختص بالعمارة فالإفريقى يباشر البناء وفن بيئته ومناخه ، ومبانيه من اللبن والطوب المحروق ، وليس من الحجارة . والرسوم محـدودة غير أنه يعبر بسخاء عن روحه فى الزخرفة والزينة والنحت وكثيراً ما تسودها التعبيرات الهندسية ، وهذا ماشوهد فى فن « شعب البينين » وفيما يختص بالتعبير الموسيقى للقيام بالرقص الدينى أو الحربى أو طلباً للأمطار أو احتفالا بسخاء المحصول فإن الآلات من قيثارات وطبل ومزمار وسائر الآلات الوترية أو التى تحركها الرياح تدفع إلى الرقص كأنه يزج بالإنسان فى حلبة حياة ثانية أخرى غير الحياة الدنيا ، وهـذا الرقص هو تحرير للانسان وابتهال منه إلى القوة المقدسة ولغة اجتماعية تعبر بعمق عن اتجاه الكائن الإنسانى ، وهذه النغمات المتكررة التى على نفس النسق هى نوع من التقديس لما وراء الإنسانية والطبيعة ، ولقد كان الرقص ولا يزال إلى حد ما من أهم الفنون المقدسة ، والفن الزنجى بوجه عام له فلسفته وجماله وتناسق خطوطه التعبيرية وهو يترجم فى الموسيقى والرقص والنحت والرسم حياة معينة ومصورة وفى الغرب يعبر الفن عن روح الفنان وشخصه ويبرز عبقرية الفنان بما يقدمه من جديد مبتدع ، أما الفنان الإفريقى

فهو يعبر عن روح الجماعة برمتهـا وشعورها عن طريق النغمات والأشكال والألوان ، وهذه الأنغام المتكررة التى تحولت إلى الجاز فى الغرب وهـذا الرقص الجماعى لحشود من الإفريقيين يكررون على نغمات لاتتغير حركات معادة (تحولت إلى الرقص الاستعراضى فى الغرب) هى نوع من الابتهال والعبادة سواء كان ذلك بسبب شح الأمطار أو تقديم الشكر إلى الآلهة أو الاستعداد للقيام بغزوة من الغزوات أو صد اعتداءات المهاجمين .

الباب الثالث

الغموض فى افريقيا

إن الأوضاع الرئيسية التى تحدد معالم القارة وتبين موقفها من الاستعمار ثلاثة ، فالشمال إلى قرب قلب القارة تطبعه الحضارة الإسلامية ، وتنتشر فيه الأصول العربية ، وبقية القارة وغالبية مناطقها فيما عدا جهات محدودة تقطنها الشعوب السود وجنوبها وبعض مرتفعات فى قلبها تستوطنها سلالات المستعمرين البيض الذين هبطوا هناك منذ نهاية عصر الاستكشاف الجغرافى فى القرن السادس عشر وهم أقلية ، وإذا قيل إفريقيا يتجه الفكر إلى شعوبها السود وإلى آثار الاستعمار السيئة فى بلدانها ، وكذلك إلى انتشار الحضارة الإسلامية والتجارة العربية منذ ازدهار الإمبراطوريات الإسلامية ورسو السفن العربية على موانىء القارة بانتظام وتغلغل القوافل إلى قلبها وقد ثبتت دعوتها بالحسنى بين القبائل الوثنية التى تعيش على الفطرة وتشتغل بالسحر والشعوذة والتعاويذ لتطرد الشر وتشفى الأدواء وتطارد الغرباء والمبشرين وبذرت بذور المودة والتحاب فى القلوب بالدين السمح الكريم .

وإذا قيل إفريقيا اتجه الفكر أيضاً إلى العرب الذين يعيشون فى شمالها وقد أرسوا مراسى حضارة شامخة وأنشأوا المدائن والعمران وأصبحت هذه البقعة من المحيط إلى الخليج بما فى ذلك حوض البحر المتوسط وطناً رئيسياً لهم واتجه الفكر أيضاً إلى الأوربيين المستعمرين المستغلين وقد وفدوا إليها مستوطنين ومحتلين بجيوشهم وحكامهم القساة وسخروا السواعد القوية لأبناء البلاد نظير مالا يسد الرمق لصالح مزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم وإمبراطورياتهم

الصناعية الكبرى وشركاتهم وبنوكهم واحتكاراتهم ، واتجه الفكر أيضاً إلى عهد تقسيم القارة فى آخر القرن الماضى وتوزيع مناطقها بشعوبها دون اعتبار لإرادة الاهلين وحقوقهم وصالحهم ، وكان هذا التقسيم نتيجة التسابق بين الإمبراطوريات الاستعمارية لاحتلال الأصقاع الغنية فى القارة ، واشتد التنافس الاستعمارى بين الدول الكبرى التى اشتهرت بنشاط أساطيلها البحرية فى الاستكشاف الجغرافى فى نشر نفوذها هناك ، وتصارعت إلى حد إشعال الحروب للحصول على أكبر قسط فى القارة الغنية بثروتها النباتية والحيوانية والمعدنية المجهولة المعالم على حد قول الاستعمار ، وقد شل الإنتاج فيها واندثرت ذكريات الماضى الزاهر نتيجة نضوب معين الرجال مدى قرون طويلة بفعل السبي والرق وخطف الرجال ليساقوا كالأنعام إلى المزارع والمصانع والموانىء وغيرها فى البلدان الأوربية والعالم الجديد ، ومن أسباب ذلك اشتداد جشع الاستعمار نتيجة الثورة الصناعية الكبرى فى منتصف القرن الماضى واتساع نطاق الإنتاج وانتشار الآلات والاحتكارات واستثمارات البنوك لصالح الغرب فيما وراء البحار ، واشتدت فاقة الشعوب المغلوبة على أمرها وانتفخت جعبات رجال المال والأعمال فى أوربا وأمريكا تبعاً لذلك .

وتميزت إفريقيا بروحها البسيطة فى مظهرها والغامضة فى مخبرها مما يصعب إدراك كهنه ، وخاصة أن الحضارات الغابرة التى قامت فى ممالكها فى غانا وغينيا ومالى والكونغو والسنغال والنيجر وأراضى الزولو منذ قرون اختفت دون أن تخلف آثاراً تذكر ، وجاء الاستعمار ليطمس البقية الباقية من معالمها ويقلل من شأن ماضيها ، وسحرت القارة العذراء على حد تعبير البعض والمظلمة على حد تعبير البعض الآخر المستكشفين والكتاب ، ثم رجال السياسة والاستعمار فيما بعد منذ مطلع القرن التاسع عشر ، لا وغرو فى ذلك إذا نظرنا إلى طبيعة إحراشها وأدغالها ومرتفعاتها ونباتاتها وحيواناتها وضواريها وقبائلها

التى تعيش على الفطرة وتشتغل بالسحر والشعوذة وغموض عباداتها وتعدد اللغات واللهجات رغم وحدة اللون وشدة الحرارة وسرعة النمو والفناء ، فالبذرة تلقى فى التربة ثم لا تلبث أن تنمو وترتفع فى الجو إلى شجرة باسقة ثم تذوى سريعاً ، والحياة تشرق ثم تغرب فى عجلة والمرأة تصبح جدة فى سن الخامسة والعشرين على الأكثر ، ويشتد الكفاح على العيش ، والحروب بين القبائل لا تخمد والموت أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، وثمن العيش رهين الحراب والسهام ، وانقضاض الضوارى على الفرائس أمر يومى عادى ، واليقظة ضرورية لتلافى ضربات العدو وغدره ، وتكييف الحياة يجرى حسب العوامل الجوية ، كما أن الصراع ضد الضوارى والحشرات السامة والأوبئة . وسائر عوامل الطبيعة القاسية من لوازم الحياة الإفريقية ، والحياة فى قلب القارة من أشد المغامرات الإنسانية ، وهذا ماجذب إليها المستكشفين والباحثين عن الذهب والكتاب والمستعمرين فى القرن التاسع عشر .

وانطبع سحر القارة وما تزخر به من كنوز وطبيعتها الدسمة البراقة فى قصص الكتاب التى يصفون فيها الرحلات العديدة المحفوفة بالأخطار والمغامرات وصراع القبائل والحضارات ، نذكر منهم الكاتب الإنكليزى ريدرهاجار Rider Haggar فى قصته بعنوان « الان كواترمان » وفيها يصف الطبيعة وقسوتها ومغامرات الرجل الأبيض فى إفريقيا الاستوائية ، والكاتب الفرنسى بيير بنوا Pierre Benoit فى قصته بعنوان « الاتلانتيد » يتخيل مملكة عريضة عريقة الحضارات مجهولة للعالم الحاضر فى قلب القارة تحكمها ملكة على أساس سيادة المرأة على الرجل ، والكاتب الأمريكى هيمنجواى Hemingway فى قصته بعنوان « ثلوج كاليمانجارو » يصف فيها الطبيعة بجبالها الشامخة فى قلب القارة وقسوتها وما يحيط بالحياة من مفاجآت ومغامرات .

ونفذت إلى إفريقيا عن طريق طرف عنقودها الشرقى وهو برزخ السويس

والبحر الأحمر حضارات متعاقبة للشرق الأوسط لأشور وبابل والحثيين والعرب ، كما جاءت إليها فى بعض القول وبحساب تيارات مدنيات الشرق الأقصى من الهند والصين عن طريق شواطئها الشرقية ، وامتدت الحضارة الإسلامية إلى مناطق نائية فى القارة عن طريق مصر والنيل منذ دخول عمرو ابن العاص بعسكره إلى مصر فى القرن السابع الميلادى برضا الأهلين لتحريرهم من ظلم بيزانطة ، وعن طريق الصحراء الكبرى حينما امتدت فتوحات العرب إلى المغرب حتى الأطلسى ، ولاحت حضارات العرب من القارة إلى أوروبا عن طريق طرف عنقودها الغربى الذى سمى باسم فاتح الأندلس وهو جبل طارق لتهذب أوروبا المتأخرة وتقدم لها قطوف الحضارة دانية وتلقنها العلوم والمعارف كما تنقل إليها حضارة اليونان القديمة .

ولقد استقرت الحضارة العربية بلسانها وجنسها ودينها فى شمال القارة واتخذت من حوض البحر المتوسط وهو مهد الحضارات القديمة والفلسفات والأديان دياراً فسيحة العرصات ، وقبل ذلك انتقلت المدنيات المختلفة على مر العصور منذ التاريخ الغابر إلى قلب القارة سراعاً فى المناطق السهلة المنبسطة وعبر الأنهار الصالحة للملاحة وفى مقدمتها وادى النيل ونهره الميمون الغدوات المبارك الروحات على حد تعبير ابن العاص ، وصعب الاتصال بالخارج وانتقال المدنيات فى المناطق الكثيفة الأحراش التى يتعذر فيها الانتقال بالأنهار لصعوبة الملاحة كما هى الحال بالكنغو .

وانتشرت الحضارة العربية فى بعض مناطق القارة كما سبق أن بينا بتعاليم الإسلام ونظمه الاجتماعية ، ونزح إلى قلب القارة من النيل عبر السودان ومن المغرب الإفريقى عبر القوافل المتفرعة من طريق الحرير القديم المشهور الممتد من أواسط آسيا إلى شاطىء الأطلسي ، وسبقت الحضارة العربية هناك حضارات

مصر القديمة ، واليونان والرومان ، وتدل على ذلك الحفريات والآثار فى قلب القارة حتى قرب أم درمان ، ولكنها لم تتأصل جذورها كتأصل جذور الإسلام، وكذا اتصلت شعوب آسيا وأوروبا بشعوب إفريقيا ثم اتصل العرب بالقارة ورسخت أقدامهم فيها وارتبطت مصائر الشعوب العربية بسائر أهل إفريقيا باعتناق الإسلام والحضارة العربية وتوحدت المصالح والآمال .

وصدرت إفريقيا السوداء إلى أوروبا وسائر القارات الأيدى العاملة والمواد الأولية والأخشاب النادرة والحبوب والزيوت والنباتات والحيوانات والجلود ومنتجات الفنون الزاهية الألوان وانتقلت منها الموسيقى الصاخبة والتماثيل والرقص ولم يعرف الخارج الكثير حتى عهد قريب عن ممالكها السوداء التى ازدهرت منذ قرون ثم طمست معالمها فى نهاية القرن الثامن عشر ، ولا يرجع ذلك لصعوبة المواصلات أو لقلة الوثائق والآثار الدالة عليها بل تبعاً لانتشار تجارة النخاسة لصالح الغرب وإثرائه من الأرقاء فهى المسئولة عن تدهور العديد من بلدان إفريقيا وقد أقفرت الديار من بنيها وزاد الطين بلة الاستعمار ووقوفه فى وجه تقدمها فضلا عن تطاحن ممالكها وإماراتها وفوضى الحروب والغزوات ، وقد ادعى الأوروبيون الحنان والرحمة والإنسانية لمنع النخاسة فى أفريقيا وآسيا ، واتهموا الشرق بتشجيعها وهم خير من يعلم أنهم هم الذين باشروها وروجوها لتغذية المزارع الواسعة التى استولى عليها السادة البيض ، بالأيدى العاملة من إفريقيا بالسخرة وبلا مقابل وهى مصدر ربح وتجارة وثراء عريض لهم ، والأوربيون هم الذين أكرهوا الصينيين بقوة المدفع على أن يواصلوا شراء الأفيون من التجار الإنكليز فى الهند سنة ١٨٤٠ ، وكان هذا المخدر يهلك فى سنة واحدة ما لم تهلكه تجارة الرقيق فى عشر سنوات ، وهم الذين اتخذوا من الصفر والسود مطايا بدلا من دواب العربات ومن الحمر فى أمريكا أدوات للهوم

بجعلهم أهدافاً لهم فى صيدهم واستخدامهم البندقة والرصاص، وسخروهم كذلك كالسائمة وكانوا يقتلون من يظهر الامتعاض منهم ، وعرف عن البلجيكيين والألمان فى الكونغو والكامرون القسوة وسفك الدماء فى استعمارهم وقد صنعوا من الأجساد البشرية للافريقيين جلوداً وأدوات للزينة ، ويضاف إلى الرق قديماً الاستعمار حديثاً فهو سخرة على نسق سياسة أنصاف الأرقاء للعصور الوسطى وما قبل البورجوازية والثورة الفرنسية .

ومنيت شعوب إفريقيا وآسيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بنكبات متتابعات، واستمر تدهور الإمبراطوريات الإسلامية وتغلغل الغرب فى ديارها واستغلاله مواردها دون الاهتمام بحقوق الأهلين وقد أخضعهم المدفع، ولم تسلم من هذا الموقف المشين إلا الصين التى عمدت إلى الانعزال عن المستعمر وأوصدت أبوابها فى وجهه فترة من الزمن ، واتبعت اليابان هذه السياسة كذلك ، ثم سارت فيما بعد على نقيضها بعد أن اشتد ساعدها بتطورها وأخذها بالمدنية الحديثة وضرب العدو بنفس سلاحه ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وسارت بلاد الشمس المشرقة نحو تشييد إمبراطورية صناعية عسكرية مرهوبة الجانب .

وكان ضمن أيالات الدولة العثمانية العديد من أقطار إفريقيا، وسارت نتيجة ضربات الاستعمار واضمحلال السلطنة فى طريق الانهيار وعجزت عن الدفاع عن كيانها ، وأصيبت دار الخلافة بالهزائم العسكرية المستمرة ، ولم تعد تزدهر فى أنحاء الإمبراطورية صناعة أو تجارة أو علوم ومعارف وكانت البلاد من أدناها إلى أقصاها مسرحا للمؤامرات والدسائس والرشاوى والخيانات والانغماس فى الشهوات ، واشتدت المظالم لتحصيل الجزية والخراج والعشور وغيرها من الضرائب لصالح السلطان . وكان المماليك السناجق فى مصر لا يخضعون لعسكر السلطان وإن كانوا يدينون له بالطاعة ولم يك هناك احتلال عثمانى بحق غير أن الفوضى والصراع والتنافس على السلطة على حساب الشعب

كانت شعارات ذلك الوقت ، كانت الاستانة عاجزة عن إعادة النظام إلى البلاد ، وقامت محاولات فاشلة بتدخل مسلح سنة ١٧٨٦ بقصد إعادة السلام على ضفاف النيل مما أثارنهم الغرب ووجه أنظاره إلى هذه البقعة الغنية اللينة لا بتلاعها لقمة سائغة ، وقامت فى تونس أسرة مالكة جديدة سنة ١٧١٠ غير أن خلفاءها من البايات مالبثوا أن اصطدموا مع جيرانهم الجزائريين وسائر أهل المغرب ، وفرضت الجزائر على تونس ولايتها سنة ١٧٥٦ إلى سنة ١٧٩٠ ونشطت التجارة الأوروبية وفى مقدمتها الفرنسية هناك . ومهد هذا فيما بعد لفرض الاستعمار على المنطقة ، كما عمت الفوضى الجزائر نتيجة عجز أميرها الداى وكان سلطانه على القبائل ضعيفاً غير محسوس ، واشتد ساعد مراكش مؤقتاً بسلطانها مولاى اسماعيل من سنة ١٦٧٢ إلى سنة ١٧٢٧ وقد أخرج الأوربيين من الوطن بعد أن أحس بالخطر على استقلال بلاده منهم وترك لهم بضع مخازن للتجارة فحسب ، وتنافس أبناؤه من بعده على الحكم وحارب بعضهم بعضاً ، ثم انتشل مولاى محمد سنة ١٧٥٧ بلاده من الفوضى وأعاد لها النظام والهدوء واستعان بخبراء من الدنمركيين والفرنسيين لتنظيم البلاد ، واستمرت الحبشة مسيحية شديدة التمسك بالأرثوذكسية وقد أفل نجم الإسلام فيها قبل ذلك بنحو قرنين ، وأغلقت أبوابها فى وجه العالم الخارجى ، وكانت هذه الدولة على مدى قرون طويلة هى الدولة الوحيدة المستقلة فى القارة استقلالاً حقيقياً ، غير أنه لم يك لها أى دور فى السياسة العالمية ، ثم جاءت فيما بعد ليبريا الحرة وهى دولة صغيرة مستقلة نشأت لمعالجة العنصرية بايواء السود الذين استوطنوا الولايات المتحدة الأمريكية فى مطلع القرن الماضى ولكنها لم تنجح فى رسالتها .

واستمرت إفريقيا السوداء تنزف دماءها القانية الزكية نتيجة سياسة النخاسة وصيد الأيدى العاملة البشرية لصالح الاستعمار الأوروبى وتنافس دولها وصراع الأمراء وتحفز الاستعمار للنيل منها وابتلاعها ، وكانت الأوبئة والقسوة وسوء

الوسائل الصحية تودى بالعديد من الصيد البشرى الثمين المشين ، وتهاوت ممالكها الواحدة تلو الأخرى وقد دكت معاقلها بالمدافع وسائر الأسلحة الحديثة ولم تستطع حرابها وسهامها وفاقة أهلها وسحرهم شيئاً لمواجهة البارود ومنع الغزاة من ولوج ديارها وتدمير حضاراتها وإقامة معاقل الاحتلال والاستعمار الحديث ، وكانت أكثر الجهات نشاطاً لتجارة الرقيق الأسود لصالح الولايات المتحدة الأمريكية التى يعمل فيها الأوروبيون ويربحون الأموال الطائلة منها تبدأ من موريتانيا إلى الكونغو ، غير أن امارات الجنوب وهى النيجر والموسى وكذلك سائر الممالك الداخلية ظل يسودها النظام إلى حدما ، ثم أخذ يتزايد تنافس الإمارات السوداء ويشتد صراعها على السيادة والسيطرة بتحريض المحتلين الأوروبيين الأمراء وزعماء القبائل والعشائر البعض على البعض الآخر، ورأينا بريقا من الحضارات القديمة فى القارة فكونت الداهومى وحدتها على حساب مملكة الاردا كما لمعت دولة البينين القائمة على الحضارة البرونزية ، وذوت حضارات وإمارات قبائل الزولو وغيرهم من أهل أواسط إفريقيا نتيجة حروبهم المستمرة ثم أعمال الاستعمار السيف فى رقابهم .

وكان الوضع فى إفريقيا مضطرباً مائعاً ، ويتزايد ضعفها ابتداء من القرن السادس عشر وهو عصر الاستكشاف الجغرافى فيما خلا قوة الحضارة العربية التى كانت ترشد بعض شعوب القارة إلى حياة سياسية واجتماعية صائبة ، وكان الاضطراب ينتشر فيما وراء الصحراء الكبرى جنوباً ويتزايد بالاشتباك مع الأوروبيين ، كما هزمت إمبراطورية الماندينج فى مالى على يد السونارى الذين أقاموا دولة نيجيرية وأرسى مراسيها القوية «مامادو تورى» وصارت المدن السونورية مراكز قوية للحضارة والثقافة الإسلامية ، حيث قام المرابطون بأدوار هامة فى تدعيمها ، غير أن عمل « مامادو تورى » الناجح حطمه فى نهاية القرن السادس عشر المرتزقة الأسبان الذين استخدمهم سلطان مراكش

كما تغلغل الإسلام فى السودان الشرقى إلى قلب الاقليم حتى بحيرة تشاد ، ونشأت هناك فى الربع الأخير من القرن السادس عشر دولة البورنو الإسلامية واشتد ساعدها بعد فترة طويلة من الاضطراب ، وكان ملكها إدريس الثانى يحكم على جيش يقدر بنحو ٢٥٫٠٠٠ مقاتل بينهم عـدد من حملة البنادق ، وهزم فى معارك عدة رجال الطوارق وامتد سلطانه من كاتو حتى بولالا ، وأنشأت قبائل الفولانى بقيادة « كولى تنجيلا » التى قدمت من السنغال مملكة الدينانكى ، وانتشر الإسلام أيضاً ورسخت أقدامه فى باجيرس ودارفور بقيادة أسرة مالكة عربية ، وكانت شواطىء شمال إفريقيا فى مصر حتى الجزائر تخضع لسلطان الخليفة العثمانى ، وقامت حملات إسلامية قوية للدعوة فى الحبشة واشتد الصراع بين محمد جرينى والنجاشى جلاديوس (١٥٤٠ — ١٥٦٠) إلا أن الحملة لم تبلغ غايتها ، كما هبطت عدة قبائل من الرعاة والمحاربين شديدى المراس من الحبشة نحو الغرب والجنوب فى محاذاة البحيرات الكبرى ، وأخضعت الأهلين بالقوة ونشأت أمارات عدة من أصول حبشية فى راونده تسمى أمارات التوتسى ، وفرضت سلطانها على الممالك الصغيرة للباهوتو التى كانت تحكم قبائل من الزراع ، وكلما ابتعدنا عن شاطىء البحر المتوسط ومركز الحضارة الإسلامية رأينا تفتتا وتمزقاً وتقسيماً للامارات والشعوب ، وأنشأت قبائل التيمنى فى مطلع القرن السادس عشر مملكة فى سيراليون ، كما أقامت قبائل الادجا بنظامها فى داهومى وأقامت اليوروبا فى نيجيريا سلطاناً وحكماً وشادت الحضارة النحاسية فى البينين ، وعاد إلى غانا سلطانها ومجدها للقرن الحادى عشر وسيطرت بقوتها على شعب أكان ، ونشأت لدى البانتو اتحادات من القبائل التى تحكم على بعض النظم السياسية ، ونشأ نظام تعاهدى بين الزمبيرى واللومبوبو من قبائل الفونا ، وتكونت إمبراطورية مومونوتاپا ، وانبثقت حضارة الزامبابوى أو روديسيا الجنوبية ، ولحضارة الزامبابوى صلات لاشك فيها بحضارة مملكة

اللوبا التى تأسست فى أعالى الكونغو ، كما قامت أمارات اللواندا فى الكالانجى وهاجرت إلى الكوانجو واللوالابه والزمبيزى والكاساى ، وكانت هناك جماعات البانتو ، وأهم ممالك البانتو مملكة باكونجو التى التقى بها البرتغاليون فى مصب نهر الكونغو ، وامتدت فى القرن الخامس عشر على طول النهر وأحاطت به حتى أنجولا وكوانجو والمنطقة السوداء ، وتغلغل المبشرون المسيحيون هناك فى عهد الملك « الفونسو منفجا نزنجا » ، وبنيت الكنائس وقامت تجارة خارجية هامة ، كما تبادل الملك البعثات الدبلوماسية مع ملك البرتغال والبابا ، وتعلم نجله اللاهوت وحصل على تكوينه الكنسى فى أوروبا وعاد إلى إفريقيا برتبة أسقف ، غير أن البرتغاليين لم يقصروا بعثاتهم إلى الملك على رجال الدين بل أوفدوا إلى هذه البلاد التعسة الحظ تجار الرقيق ، وأدخلوا هناك الخمور وسائر الموبقات ، ثم بدأ سلطانهم يضعف تبعاً لضعف دولتهم فى القارة الأوروبية كما أخذت المسيحية تضعف بدورها هناك ، غير أن البرتغاليين سنة ١٥٧٠ وضعوا حداً لغزوات بعض القبائل المعروفة بشدة بطشها للمنطقة وتسمى الجاجاز ثم ركزوا بعد ذلك جهدهم على استعمار وحكم مملكة النجو ندواى انجولا ، وسرعان ما انحدرت إلى الهاوية مملكة الكونغو نتيجة نشاط تجارة الرقيق واستئصال شأفة القبائل السوداء لصالح المزارع الأمريكية وغيرها ولصالح الرجل الأبيض ، وهزمت قبائل البانتو فيما وراء الزامبيزى جنوباً الهوتنتوت والبوشمان ، وكانت للناس حضارة يعتد بها تدل على ذلك كما سبق أن بينا فنون النحت والرسم وخلافها إلا أن المستوطن الأوروبى سار فى سياسة أفنائهم ليحل محلهم فى هذه المنطقة الغنية ، وتعددت ابتداء من أواخر القرن الخامس عشر مخازن التجارة وقواعدها على السواحل الإفريقية لصالح التجارة الأوروبية على أساس المقايضة والاتصال بالقبائل الإفريقية فى الداخل والعديد منها كان ملكاً للبرتغال كما أوفد الأمراء السود مبعوثيهم الدبلوماسيين إلى ملك البرتغال

والبابا وارتفع عدد القواعد التجارية إلى مائة مخزن وقاعدة مبعثرة على طول الساحل سنة ١٦٣٧ وأكثر من نصفها فى الشاطىء الغربى . وجلبت هذه القواعد إلى الأسواق الإفريقية منتجات أوروبا من خمور ومواد ترف وأقمشة قطنية ومنتجات نحاسية مع العديد من رذائل الغرب وموبقاته وكانت هذه أولى خطوات بث الفوضى فى الشعوب الإفريقية السمحاء البريئة تمهيداً لاستعمارها فيما بعد .

وهكذا كان هناك اتصال بين حين وآخر بين إفريقيا السوداء والحضارات القديمة للشرقين الأدنى والأقصى منذ عشرات القرون ، وقدمت فى العصور الوسطى هذه القارة الغامضة الأرقاء والعطور والأخشاب وهى مغلوب على أمرها واستقر التجار العرب على شواطىء الصومال وفى موزمبيق وغيرها ، ودخل الإسلام إلى قلبها عن طريق السويس والبحر الأحمر وموزمبيق والمغرب والصحراء الكبرى ، وحاصر ثغورها الأوروبيون فى العصور الحديثة وأقاموا فيها المعاقل والحصون دفاعاً عن أحسن أنواع التجارة وهى النخاسة وللحصول على المواد الأولية بأبخس الأسعار وللتمهيد للاستعمار ، ولكن الأوضاع قد تغيرت اليوم فعلى قدر قسوة الغربى فى استغلاله للافريقى اشتدت الحركة الوطنية فى إفريقيا وقامت نهضة جديدة لبناء مجتمع جديد دون النظر إلى الخلف ولم تقم على أساس تاريخ قديم وآثار ضخمة ومعابد وهياكل وكنائس ، وكما هو معروف فخلفات الأقدمين فى إفريقيا فيما عدا حضارات الفراعين وقرطاجة وروما وبيزانطة ثم الإسلام محدودة تبعاً لاشتداد حرارة الجو والرطوبة وشدة العواصف الرملية والأمطار وندرة الوثائق القديمة كمرجع للبحث مع استمرار تنقل القبائل وهجرة الناس ، وهم لا يذكرون بدقة أصولهم وماضيهم ، وغالبية المخلفات القديمة والأحداث التى وقعت وتغير الوجوه والممالك يتداولها الناس على شفاههم كما جاءت صورها عن طريق العادات والعبادات ، غير أن للافريقى الأسود شأنه

شأن غيره تاريخه الذى يدل عليه وأنه موجود فعلاً وعلى ذلك فله ماضيه ، وله أيضاً حضارته إذ أنه عاش فى الإطار العام للسكان المقيم فيه ، وأنشأ على مر الزمن نظامة الاجتماعى الذى يطمئن اليه وله عمرانه وأدبه وفنه ونحته وتصويره وشعره ونثره ، وللافريقى بوجه عام من شاطىء البحر المتوسط إلى جنوب القارة كفاحه المرير ضد الاستعمار وسعيه الحثيث للتحرر من نير الاستغلال الأجنبى ، وأمله فى مستقبل يتحرر فيه من التبعية والخضوع للمحتل فى أى صورة من الصور وفى تثمير موارده الواسعة لرفع مستواه المادى والمعنوى .

الباب الرابع

العرب والأوربيون فى إفريقيا

ليس هناك شعب أقرب إلى الإفريقيين من العرب ، وليس هناك قوم أبعد من الأوروبيين إلى أهل إفريقيا ، وتميز العرب بغرس حضارة عميقة الجذور فى إفريقيا ، بينما لا تذكر علاقات أوروبا بإفريقيا إلا مصحوبة بالآلام والجهالة والتأخر ومفاسد الاستعمار واستنزاف المحتل لدماء وعرق أبناء القارة واغتصاب منابع الثورة منهم لصالح الإمبراطوريات الصناعية الشديدة النهم، ولقد حطم الإفريقيون سلاسل الرق والتسلط اليوم وأزاحوا كابوس استرقاق الرجل الأبيض للافريقى باسم رسالة المدنية التى يدعيها باطلا ونشر التحاب بين الناس عن طريق المسيحية هـذا الرجل الذى أثار حربين عالميتين فى سبيل التنافس الاستعمارى ونتيجة سباق الدول الأوروبية العظمى للتسلط على مسالك البر والبحر والأسـواق وموارد المواد الأولية لصالح الصناعات الغربية ، وجند لهذه الحرب التى شنها لسلطانه الملايين من الإفريقيين السود والعرب وسواهم من شعوب ما وراء البحار .

ويتأصل الإسـلام والحضارة العربية فى إفريقيا وله علاماته التى يتميز بها ويتمشى مع طبائع أهل القارة السود وروحهم وحاجاتهم ممـا أدى إلى انتشاره وبفكرة الأمة يكون رابطة من الإخوة بين المسلمين رغم ما يشجر من حين لحين بينهم من خلاف ، وتختلف روحه عن المسيحية ، كما يختلف الرق فى الإسلام بدعته ورحمته عن الاسترقاق القاسى والاستعمار والتمييز العنصرى الذى خلقه الأوروبيين الغزاة المستعمرون ، ويتطلب البحث دراسة الإسلام والحضارة

العربية فى إفريقيا وانتشار الإسلام فى إفريقيا السوداء وروح الأمة الإسلامية والمسيحيين فى إفريقيا والرق فى القارة والتميز العنصرى ومقارنات العنصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية دائماً وجنوب إفريقيا وروديسيا ، وفيما يلى بيان ذلك :

(أولا) الإسلام والحضارة العربية فى إفريقيا : —

قدم العربى لأخيه الإفريقى عن طريق برزخ السويس استجابة للنجدة التى طلبها فى فجر الإسلام على يد عمرو بن العاص الخلاص والمساواة والإخاء والديمقراطية التى تميزت بها الرسالة المحمدية فى ذلك الوقت لينقذ المقوقس وأتباعه وأهل النيل من استعباد بيزانطة وفساد حكمها ودكتاتوريتها الطاغية .

وقد سارت حضارة العرب بلسانها وجنسها ودينها غرب النيل وجنوبه وعبرت الفيافى والقفار ، وكان همها تنظيم الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة بالآيات البينات التى بثها الكتاب الكريم والابتهال إلى الله والعبادة حيث ينوى الإنسان أن يعبد الله الواحد الذى لا شريك له ، وبتمصير الأمصار وتدوين الدواوين على أساس ما ورد فى القرآن الشريف والسنة الكريمة والحديث وأعمال الخلفاء الصالحين واجتهاد المجتهدين ، وانتشر العرب بروح حضارتهم السهلة السمحاء فى شمال إفريقيا ، ثم اخترقوا صحراءها إلى الجنوب ووصلوا إلى قلبها حتى خط الاستواء واستقروا عند سواحلهـــا الشرقية والغربية وتبادلوا مع الأهلين المنافع والحاجات ، وانتظمت قوافل التجارة بين الطرفين ، كما قدموا إلى السواحل وقد مخروا عباب المحيط فى سبيل تبادل المنافع وكانت الحسنى والإقناع والتفاهم والتجارة أدوات التعامل .

واعتنق السود مدنية العرب ودخلوا أفواجاً فى دينهم ، وهو خير ما يلائم طبيعتهم البسيطة الحرة فى انطلاقها ، الـكثة فى كثافتها ، وروحهم المتقشفة

المتواضعة المطالب ، وتعطشهم إلى عبادة حقة يبتهلون فيها إلى إله واحد يعبد حيث وجد العابد فى العراء أو فى المساجد دون طقوس متعددة وفلسفات ورموز وتفسيرات غامضة وهذا ما كان فى الوثنية وفى الطقوس المسيحية التى يصعب على الإفريقى أن يدرك كنهها . وتفهموا سريعاً روح الحضارة العربية التى تشف عما يكمن فيها .

والطبيعة فى ديارهم وهى مبعث الحياة وانطلاق النفس على سجيتها وحريات الإنسان تدفع بهم نحو الإسلام ، وهذه الطبيعة هى مأوى الإفريقى ومرشده ، طبيعة على قسوتها حنون ينشد فى ظلها راحته وهدوءه ويعمل فى ظلها لتمده بغذائه وكسائه ، وحضارة العرب خير حضارة تنظم مجتمعهم فى الإطار الذى يعيشون فيه .

وقد تأصلت جذور المدنية الإسلامية فى شمال إفريقيا ، حيث يقطن السواد الأعظم من العالم العربى وتمتد رقعته من المحيط الأطلسى حتى السويس ومن البحر المتوسط حتى حدود الصحراء الكبرى جنوباً ويضم إلى أعطافه أهل وادى النيل من جذور شجرته قرب منابع النيل وجذعها فى الوادى وفروعها وغصونها فى الدلتا ويبلغ عددهم نحو ٧٥ مليون نسمة يمثلون غالبية الأمة العربية وبقية العالم العربى يمتد غرباً إلى مابعد أرض السواد وخليج العرب ويبلغ عدد سكانه نحو ٣٣ مليون نسمة ، ولقد كان نتيجة انتشار الحضارة العربية فى شمال القارة أن وفدت إلى الأندلس ثم مرقت إلى ماوراء البرانس ، كما بسطت جناحيها العريضين على موانى البحر المتوسط وجزيرة صقلية .

وجابت أساطيل المسلمين عباب البحار من القرن السابع الميلادى واخترع العرب البوصلة والأسطرلاب ورسموا خرائط الماء واليابسة ، وأخذ الأوروبيون عن العرب علوم الأقدمين وفنونهم وما أدخلوه من تنقيح عليها فضلا عما

ابتدعوه فى ميادين الزراعة والصناعة وغيرها ، وتلقى الفرنجة عن العرب فى عصور جهالة أوروبا دروساً فى الهندسة والكيمياء والطبيعة والطب والفلك والجبر والسياسة والاجتماع والأدب والأخلاق وأخذوا عنهم حرية الفكر والعقيدة والفلسفة ، وتعلموا الكثير من آداب السلوك وقد أشربت قلوبهم حب الطبيعة بجمالها وفضائل البشر ومحاسنهم عن طريق الشعر العربى الرقيق الحاشية والمفعم بالأدب الرفيع وقد أخذوا عنهم مبدأ احترام المرأة وحسن معاملتها ، وكان لا يزال الأوروبى فى حياته البدائية الجافة .

وكان نتيجة تأصل المدنية الإسلامية فى شمال إفريقيا وزحفها إلى جنوب القارة دخول القبائل أفواجاً فيها وقد سهل عليهم تفهم أصولها وأدركوا أنهم جميعاً أخوة فى ظلال الإسلام وأنه واق لهم من استبداد الحكام وأنه درعهم حيال الاستعمار الأوربى الذى ينشر بينهم ظلامه الدامس بما يحمله إليهم من فاقة وجهالة فضلا عن فضيلة الإسلام فى عدم التمييز فى المعاملة بسبب اللون والجنس ، وليس فضل لمسلم على آخر إلا بالتقوى وحسن المعاملة ، ولقد أوقع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين العقاب العادل على ابن عمرو بن العاص فاتح مصر وحاكمها لاعتدائه على مصرى سبقت فرسه فى رهان فرس محمد بن عمرو . فضرب هذا المصرى بالسوط وقد ادعى أن فرسه فازت ثم اكتشف أنها فرس المصرى ، فكبر عليه أن تفوز فرس المحكوم على فرس ابن الأكرمين ، وحبسه زمناً ثم أفلت وذهب يشكو إلى الخليفة ، واستقدم هذا المشكو فيه وطلب إلى المصرى أن يضرب ابن الأكرمين بالدرة أى السوط ونفذ المصرى أمر الخليفة الذى طلب إليه أن يضرب أيضاً عمرو على رأسه وهو يقول « أجلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه » ، وقال للمصرى معتذراً « يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى » ورد الخليفة بقوله « أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه »

ثم التفت إلى عمرو مغضباً وقال عبارته المشهورة «أبا عمر ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، وتدل على عدالة الإسلام وسماحته مما لا يعرفه المستعمر فى إفريقيا ولم يتبعه الغرب ، وقد لجأ إلى السوط والسيف والبندقة حتى يوم تحرر الشعوب الافريقية جرياً وراء تحقيق مطامعه الاستعمارية وأرباحه الخيالية عن طريق السخرة ...

ويسود الإسلام بحضارته فى أفريقيا من خط عرض ١٠ إلى الشمال ، كما ينتشر فى الجنوب وهناك جالية إسلامية فى اتحاد جنوب أفريقيا ، وذلك على أساس اعتناق نصف مليون نسمة للاسلام سنوياً ، وإن إذاعات القاهرة وكراتشى ودعايات التجار المسلمين وقد اعتادت أجيال منهم أن تطأ قوافلها هذه البلاد وسائر الذين ينشرون الدعوة للاسلام ويلقنون الأهالى آيات الله البينات تكتسح الآن دعايات التبشير فى أنحاء القارة وتقضى على أضاليل المبشرين .

والإسلام بفكره وقوته المعنوية حول حياة الشعوب السوداء التى اعتنقته من مجرد نظام قبلى بأسراته ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة فى وجوه ما وراءها إلى نظام سياسى يقوم على الدولة وحكمها ، على أساس قيام إدارة وحكومة وبناء حضارة بمدنها وعمرانها وسياستها ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم ، مثال ذلك ما رأيناه فى غانا ومالى وسونرهاى وممالك الموسى واليانتجا وأوجادوجو وبينين وإيفا ، وكان للأمير هنالك سلطانه الروحى ويتبعه نبلاء من الإقطاعيين ، وقد تفككت هذه الممالك أمام الزحف الأوروبى وسياسة تجارة الرقيق الأسود لصالح المزارع الغربية فى العالم الجديد التى رسمها ونفذها الغرب ، كما تفككت نظم القبيلة والعشيرة والقرية المغلقة فى مواجهة النظم الاقتصادية الحديثة التى تصاحب تحرير أفريقيا .

ثانياً : انتشار الإسلام فى القارة السوداء :

أنشأ الإسلام فى أفريقيا تيارات جديدة كان لها رد فعل شـديد فى طول القارة وعرضها واتصلت فى سلسلة متماسكة وذلك لأن الإسلام لم يكن عقيدة فحسب بل هو قانون وعادات ومثل أخلاقية عليا ووحدة سياسية ، هو حضارة وبناء اجتماعى على أساس الـكتاب الـكريم وما جاء فيه من آيات بينات هدى ونبراس لحياتهم الدنيا ولما يرضى الله ورسوله ، وغرست فـكرة الأمة فى قلوب المسلمين السود فى أفريقيا لتقارب بينهم ولـكى تدفع بهم نهضتهم الحديثة نحو الاتحاد والوحدة ، ولقد قضى الإسلام على مبالغات عبادة الأسلاف ومثول أرواحهم بين الأحياء وتقمصها فى الأشجار والجماد فى المجتمعات الوثنية ، وكـذلك على السحر والشعوذة والفتك بالأعداء ، وقضى أيضاً فى المجتمعات التى اعتنقت الإسلام على المبالغة فى استخدام الزينة والتحلى بالذهب وتعاطى الخمر والمنـكر ، وأنهى نظام سيادة المرأة لحل محله الرجل كرب الأسرة وزعيم العشيرة . وحارب العرى وارتدت المرأة فى ظله الملابس التى تحفظ لها كرامتها وإنسانيتها ، وإذا كانت لم تعد تتزعم القبيلة وتحـكمها ، فهى تنعم بكيانها وحرية تصرفاتها فى أموالها مع طاعتها لزوجها وعنايتها بمنزلها وأطفالها ، كما جاء ببذور الاسـتقلال فى المجتمع فالابن يكن الاحترام والتبجيل لرب الأسرة ولـكنه لا يدين له بالخنوع والتسليم نتيجة الظلم والتحكم والاستبداد ، كما حدد الإسلام تعدد الزوجات ، فقضى على فوضى اقتناء النساء عند رؤساء العشائر ، وجعل العدل بينهن أساس التعدد : فإن لم تستطيعوا أن تعدلوا فواحدة ، وحافظ على الأنساب ، ووضع لمهر الزوجة قواعد أساسها التواضع فلا تباع المرأة كسلعة ويدفع من يقتنيها تعويضاً لمن أخذت منه ، ودخلت فى لهجات القبائل السود كلمات عربية لا حصر لها استخدمت فى معاملاتهم وتجارتهم بصرف النظر عن

إسلامهم ، وإذا استمرت بعض الفتيات فى السنغال وغيره من الأقطار التى اعتنق أهلها الإسلام عرايا الوجوه والثدى فيرجع هذا إلى أن دور المرأة فى الإسلام عند القبائل الإفريقية السوداء وقد انتقلت من الوثنية لا يزال ثانوياً والنساء فى تلك البلاد يعتبرون الرجل هو الذى يحمل مسئولية العقيدة . إلى حد أن قبائل الموسى والياريسى لا تباشر المرأة فيها الصلاة ، وجاء الإسلام للافريقيين بقاعدة كيف يسوس الرجل المرأة على أساس أن الرجال قوامون على النساء والرجل وحده هو الذى يقيمها ويطلب الغفران للزوجة .

ورغم أثر الإسلام العميق فى العمارة وفى العادات والطبائع وانتشار المساجد فى المناطق التى اعتنقت الإسلام فلا تزال بعض المعتقدات والعادات الوثنية سائدة فى بعض الأنحاء ، ويلجأ الناس فيها إلى السحر والتعاويذ والأحجبة ويخشون العيون الشريرة ويطالبون المرأة بوصفات معينة ضد الأمراض ، غير أننا رأينا من جهة أخرى تمسكا بالدين الحنيف إلى أقصى الحدود فى السنغال مثلا ، ورأينا هناك المرأة تباشر العبادات ، وتنشىء الجمعيات الدينية ، وتقوم بحج بيت الله الحرام ، ويكنّ الناس للإمام الذى يصلون خلفه كل احترام ، كذلك احتفظ التاريخ بذكرى نساء فاضلات إلى أبعد الحدود متذرعات بالتقوى والصلاح مثال ذلك من هى من وليات الله الصالحات « أداماسيسه » وهى أم الفاتح الحاج عمرتال ، وكذلك عيساتا الأم ونينيه زوجة تيرنوبوكار وهما على قدر كبير من الورع والخشوع إلى الله ، ولقد قدم الأزهر الشريف وغيره من مدارس الدين وزواياه فى شمال إفريقيا أجل الخدمات لإسلام إفريقيا بمن تعلموا فى رحبات وحلقات العلم فيه وتتلمذوا على كبار أساتذته ليعودوا إلى قلب القارة ينشرون الدعوة فيها .

ونشأ فى رحاب الإسلام بين القبائل السوداء فريق مصلح جديد يحارب

الوسائل القديمة التى اتبعها المسلمون الأوائل والأجداد فى مباشرة العبادة وهذا الفريق من الشباب يحارب جمود القديم وتتجلى دعوته فى صراع شباب التيجانية ضد القدرية القديمة ، ووجدت حديثاً جواً صالحاً لها فى دعوة الشيخ حماالله الذى كان يحل الأولاد من سلطان الآباء ، كما نجد ذلك أيضاً فى قلب جماعات الأخوة السنغالية بزاوية الحاج مالك سى أو بطوبه لدى المريدين ، ورأى فريق من المصلحين المجددين المعتدلين أن يحتفظوا بالأساس القديم للدعوة على أن يدخلوا بعض التجديد فى وسائل التعليم ورأى فريق آخر من الشباب أن يسلكوا سبيلا أبعد للوصول إلى الدعوة السليمة وهم من أنصار سى ومن رجال إبراهيم نياس وذلك بالإكثار من فتح المدارس وتعليم اللغة العربية على يد مدرسين ذوى علم وكفاية ، ونادى رجال فاليلومبكيه الذى بنى مسجداً كبيراً بإنشاء جامعة للمريدين تعمل لهذه الغاية .

وقد برز الصراع بين القديم والجديد لا فى الناحية الدينية فحسب فقد اتخذ سبيلا سياسياً على أساس الإبقاء على القديم والتجديد فيه تمشياً مع تطور العصر غير أنه وضح بون كبير بين جماعة السود والبيض من المسلمين الذين ينتمون إلى المغرب أو الطوارق ، ورغم تردد السود على مدارس البيض وزواياهم لتعلم أصول الدين واتجاههم إلى زوايا السود من المرابطين لتلقى البركات وتتلمذهم على يد العلماء والمثقفين من المغاربة فقد ظلت بعض الطبائع والعادات عالقة بهم ومرجعها التفكير الإفريقى الزنجى .

إلا أنه قد بدأ يتضح الفرق بين السود ممن ظلوا على ما كانوا عليه والآخرين الذين اعتنقوا الإسلام ، ووقعت مصادمات بين المسلمين والحكومات السوداء والقبائل ، وأخذت الحكومات فى مالى والنيجر تتبع وسائل المضايقات حيال الطوارق الذين لا يرتضون بتلقى الأوامر منها والطاعة لها ، واشتدت المنافسات

بين القبائل والعشائر فى السودان واهتم الرأى العام بهذا الصراع ، واحتدمت المعارك بين عشائر الفولانى والبمبارا وكانت لها عوامل سياسية ودينية مردها اختلاف الطرق الصوفية التى تنتمى إليها ، يدل على ذلك صراع الأئمة فى بما كو بحى مدينا كورا ، وقامت أزمات ضمير بين السود ممن دخلوا الإسلام تبعاً لسعيهم فى الجمع بين مثلهم وخيالاتهم القديمة البالية ومبادىء الأخـــلاق القديمة التى يدعو إليها الدين الحنيف ويحض على التمسك بعمدها وخاصة عبادة الأجداد والأرواح والجن وسائر المعتقدات الوثنية ، وتنظم فى الوثنية العلاقات فى الأسرة قوى خفية تصب جام غضب الأسلاف على الأعقاب كعقاب إذا لزم الأمر مما حدا إلى اعتبار الخطوب نوعاً من العقاب على خطيئة ارتكبت أو عدم اتباع تقاليد الوثنية .

والإسلام دين سمح ينادى باتباع الخلق الحميد والطريق السوى ولا يقبل مثل هذه الخزعبلات والعقاب يأتى بعد الحساب فى الآخرة وبعد الموت ، والقدر عند المسلمين لا يهدم الإرادة الإنسانية التى يجب أن تمضى فى سبيلها والنجاح أو الفشل يجىء بعد العمل وهذا يتنافى مع عبادة الأسلاف عند الوثنيين ، كما فرقت القبائل وقد اعتنقت الإسلام حديثاً بين ما يتناول الأسرة والحيـــاة الاجتماعية والعامة وأخضعت هذه لمبادىء الإسلام أما ما يتناول الإخصاب والصحة والزراعة فظلت تحـكمها عادات الوثنية والجن .

ونحت المثل الإسلامية التى تأقلمت فى أفريقيا السوداء نحواً يمزج بين العادات القديمة والقواعد الأساسية للاسلام وخاصة فـكرة الأمة وأخوة المسلمين وروحهم الواحدة والوحدة العربية ، وسرعان ما قام مصلحون بين المسلمين السود واشتد الصراع بين القديم والحديث ، ثم تفرع الحديث إلى طرق عدة بين المعتدلة والمتطرفة ، ولـكن مما لا شك فيه أن الإسلام بروحه الحية المتطورة

والذى يمكنه أن يتمشى مع الحاجات الاجتماعية للبلدان السوداء فى أفريقيا هو خير العقائد التى تتمشى مع رغبات أبناء القارة وتبث فيهم روح الفضيلة والخير، هو دين جامع بلغته وفكرته فى اتجاه الجميع إلى عبادة إله واحد دون ما تعقيد أو طقوس ملتوية ، وهذا الكتاب الكريم يجمع بين الدين والدنيا فى يسر وتتجلى تعاليمه فى عبارات الآيات البينات الواضحة ولغته الفصيحة وفكرته العالمية فى أن المسلمين من أدنى الأرض إلى أقصاها أمة واحدة .

ويمكن تقسيم المسلمين فى إفريقيا السوداء إلى تسعة أقسام وهى كما يأتى :

١ — السنغال : ويتأثر الإسلام هناك بالصوفية وبالدعوة التى قدمت إليه من المغرب وبالزوايا وبدروس المرابطين وقد تعلقوا بها بشدة ، والإسلام عندهم هو الخضوع بلا شرط إلى نوع من الإفراط فى التعبد والابتهال إلى الله، ويخضع المسلم هنالك خضوعاً أعمى إلى شيخ الطريقة الصوفية وبطاعته وإخلاصه يعتقد أنه سينال شيئاً مما بلغه ولى الله هذا ، وأثر الرؤساء الدينيين أو الروحانيين كبير على تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى السنغال ، ومما يزيد الطين بلة أن هذا الوضع الصوفى مع ضعف المدرسين فى المدارس المتعددة هناك وصعوبة هضم التلاميذ لتعاليمهم يجعل البلاد والدين فى معزل عن التطور العالمى ، مع ما هو معروف من تمشى الإسلام الصحيح مع سنن التطور على أساس ما نادى به جمال الدين الأفغانى وغيره من المصلحين على ضفاف النيل ، ولم يعن المرابطون كثيراً بمسائل الزراعة وكان لهذا أثره فى تطور وادى السنغال ولم يهتموا إلا بالمسائل التقليدية التى تتطلب خضوعاً وابتهالا جماعياً وبحثاً عن مريدين بالجملة ، غير أن الجيل الجديد شعر بالخطر نتيجة الجمود وقامت حركات إصلاح أفادت من منافسات رؤساء الطرق وطالبت بضرورة تطور الإسلام وتمشيه مع السياسة العالمية وعارض مشايخ الطرق الإصلاح وأنشأوا مجلساً أعلى

سنة ١٩٥٧ ليكافح محاولات الإصلاح والأخـذ بالمبادىء المدنية الحديثة مع ضرورة الإبقاء على الأسس والعقيدة القائمة ، ويعتبر الإسلام فى السنغال القوة الروحية الأولى فى الدولة التى بدورها تقيم علاقات الود مع الكثلكة والفاتيكان .

٢ — مالى وغينيا : يختلف الوضع الإسلامى فى مالى وغينيا عنه فى السنغال وليست هناك زوايا هامة ولا تسود البلاد طرق صوفية ، غير أنه يرشد إلى الإسلام علماء لهم احترامهم ووقارهم ، وينتشر الإسلام فى مصب النيجر وهو يتأثر بإسلام شمال إفريقيا للمغاربة والطوارق ، والدراسات الروحانية لها أثرها الكبير هناك ، غير أنه يقال إن الإسلام فى ماسينا بقلب مالى فى وهن تبعاً لعدم تفهم الداعين والمعلمين لوسائله ويضاف إلى ذلك التنافس بين الطرق إلى حد الحرب التى أدت إلى وقوف القدرية فى وجه التيجانية ولم يهدأ صراعهم بعد ، ولكن بدأ التطور حديثاً على يد المصلحين لأسباب سياسية ، ويتميز الإصلاح بتعضيد الحكومة له رسمياً ، وترتب على نجاح الإصلاح سير الحكومة على يد موديبوكيتا فى الطريق اليسارى فى ظلال الدين ، وتصر الدولة على ألا يتدخل الدين فى المسائل السياسية ، ولهذا الاسلام المتنور أثره الكبير فى نشر الفكرة العربية ووحدة العرب فى المنطقة .

وتأثر الاسلام فى غينيا فترة طويلة بقبائل الفولانى الذين حاولوا إقامة بناء سياسى دينى متقشف فى طباعه مع تمسكه بأهداب الدين إلى أقصى حد ، ورغم انتشار الدعوة له فقد ظل وضعه فى نطاق تفكير العصور الوسطى،وتقوم الزوايا هناك بجهود ضعيفة محدودة ، وليست للدعوة ثمة مميزات خاصة براقة ولا يتجدد دمها بالإصلاح والشباب ، والإسلام فى هذه البلاد يسير سيرا هادئاً وإن كانت الحكومة تنظر إليه على أنه فى وضع متأخر لا يمكن إدماجه فى النطاق الماركسى ،

غير أن المالينكى بغينيا يعتبرون أكثر تقدماً وتطوراً من غيرهم وكذلك لا يؤخذون على أنهم مبالغون فى الابتهال والتعبد وهم يقبلون التطور والاصلاح ويعملون على استمالة الناس إلى الإسلام وهدايتهم غير أن اهتمامهم بالتجارة والسياسة أكثر، وهناك التوكولور للدينجيرية وقد أنشأوا مركزا قوياً للهداية تحت لواء عمر تال وتنظر إليهم السلطات بحذر وتراقبهم بشدة وتعتبرهم رجعيين ، ويعتبر الإسلام فى غينيا ضحية للماركسية التى تقوم بالدعوة ضده نتيجة رواجها الأول،وحاربت السلطات فى بعض الزعم الاسلام التقليدى ثم إسلام الاصلاح واسلام الفولانية وتقوم اليوم بمباشرة سياسة ضد الدين عموما وفى مواجهة المرابطين وبعض المشايخ الأئمة وذلك لكى تذلل فى رأيها ما قد يعترض الإصلاح من عقبات .

٣ — ساحل العاج وداهومى وتوجو : يبلغ الذين يدينون بالاسلام فى ساحل العاج نحو خمس السكان، وإسلام الشمال الغربى قوى زراعى على عمد رصينة ينتمى إلى مالينكه وهناك فى الوسط وسائر أنحاء البلاد إسلام الديبولا وينتشر بين التجار على طول خطوط المواصلات وكذا فى المدن المكتظة بالسكان ، وهو إسلام شديد السماحة غير أنه يفتقر إلى المدارس ونور العلم ويبدو بين أقلية لا تتعمق الروحانيات وأسرار التصوف إذ هم من التجار وأصحاب المعاملات وتبادل المنافع وأداء الفرائض والعبادات بقدر محدود .

وإسلام داهومى يقوم بين أقوام أشداء وهم عصب القوات العسكرية وعملاء الانتخابات لصالح ذوى الأطماع السياسية ، ونرى فى توجو أن الأجانب لجرما وهوسا يكونون نواة دينية قوية بينما أن الكوتوكولى والكشوكوس وهم من أصول الأوتارا أى ينتمون إلى اسلام مالينكه يباشر بعضهم إسلاماً مشوباً بالفتور والاعتقاد فى الجن ، ونرى فى داهومى نوعين من الإسلام دون اتصال بينهما فالشمال بين الفولانى والدندى والجنوب بين اليوروبا والقبائل من

القربى ، وإسلام الفولانى فاتر لا يرتـكز إلى علم ومعرفة ويشوبه الاعتقاد فى الجن ، وإسلام اليوربا من نوع خاص لا يتقيد بالعشائر وما إليها ولا يقوموا بالطهارة والوضوء وهو على غير استعداد فى بعض الزعم إلى التعاون مع الإسلام التقليدى ، ويضم الإسلام فى جنوب الداهومى إليه البرازيليين وهم الأرقاء السابقون الذين أعتقوا وقدموا من البرازيل وقـد احتفظوا بعقيدتهم على طول السنين .

٤ — فولتا العليا : يعرف عن هذه البلاد أن الغالبية منها تؤمن بالأسلاف وأرواحهم التى تشترك مع الأحياء وفى الجن ، والإسلام ينتشر بين الديبولا مما يجعله شبيها بإسلام ساحل العاج وقبائل الفولانى وله شبيهه أيضاً فى ماسيناومصب النيجر ، وهناك فى بلاد الموسى إسلام قديم لدى اليارسى وقد قدم من الشمال فى القرن السابع عشر وله دور هام فى نشر الدعوة فى البلاد وخاصة فى مباشرة طهارة الأطفال ، غير أنه تبعاً لانعزال البلاد أخذ الاسلام يفتر فى هذه المنطقة تدريجيا ، وعند الفولانى بمنطقة دورى نجد إسلاماً قوياً مدركا لرسالته خير إدارك مدقق ، ومركز الاعتقاد فى الأرواح والجن قوى ولـكنه عامل من عوامل التأخر فى القارة ، ولاشك أن الإسلام كلما تأصل كان العامل الأساسى فى الفـكرة القومية وفى القضاء على خزعبلات الوثنية .

٥ — سيراليون وليبريا وغانا : دخل الإسلام فى سيراليون سنة ١٨٣٠ ، وسرعان ما اعتنق الرؤساء الإسلام وشجعوا إقامة المدارس ومباشرة شرائع الإسلام ، أما فى غانا وليبريا فالإسلام هناك ضعيف تعتنقه أقلية من أصل أجنبى ، وهم مهاجرون ويقيمون هناك بصفة مؤقتة وقدموا من السودان والفولتا ولا يندمجون بصفة فعلية فى الأهلين ، كما تعيش جاليات إسلامية نشطة في بلاد الاشانتي منذ سنة ١٧٥٠ وينتمون إلي الأحمدية .

٦ — النيجر ونيجيريا : النيجر ونيجيريا تحتوى على سكان يعدون بالملايين اعتنقوا الإسلام وصبغوا البلاد بالدين الحنيف على أصوله القديمة ، وهناك الطوارق والكانورى والفولانى والحوسا خصوصاً فى المدن والعمران المكتظ بالسكان ، والإسلام هناك شديد المراس يمت إلى تفكير العصور الوسطى ولا يحيد عن قواعد الشرع بحرفيتها ، وفى إسلام شمال نيجيريا تطبق الشريعة على نسق ما يطبق فى العربية السعودية وخاصة حيال النساء واللصوص ، والعادات الإسلامية مرعية فى حدود نطاق الأمراء وسلطانهم واسع النطاق — ونشاهد فى النيجر أقواماً من الزندر والجورى وهم يتبعون طائفة خاصة من الفولانى واليانكوبلى ومجتمعهم مغلق وهم ينظمون حياتهم على أساس الآيات الكريمة حرفياً فى سور معينة من كتاب الله ، ولكن بعض الأهالى من الموارى والكوفرى والبربيرى والدجرما والسونرهاى والهوسا وهم من المزارعين يباشرون عبادة الإسلام ومع ذلك فبعضهم لا يزالون يباشرون عبادة الأرواح والطبيعة والجن ؛ وتسير طبائعهم القديمة للعبادات جنبا إلى جنب مع الإسلام البسيط الصريح فى أداء فروضه ، وليس الإسلام فى هذه الحالة إلا طلاء اجتماعيا سطحيا يغطى فكرة عبادة الأرواح والجن ويقبل الطقوس التقليدية ، وظل رجال الفولانى والهوسا مدة طويلة معزولين معنويا عن العالم ويدورون حول محورهم ولا يعطون إلا اهتماماً بسيطاً بتقدم جيرانهم فى الكاميرون وداهومى ، وكانوا إلى وقت حديث يجهلون ما يجرى خارج عالمهم ، وهم قانعون بأحوالهم ويعيشون فى ظل الحكم البريطانى غير المباشر ، وقد قاوموا كل جهود تسعى لتطويرهم ، ولم تنشأ فى ديارهم مدارس تذكر ولم يشتركوا فى حكم أو إدارة أو وظيفة ، ثم هبوا من رقادهم سنة ١٩٤٧ وقد أدركوا خطر الاستعمار وسمومه بدعايات أهل الجنوب وطالبوا بالمدارس الحديثة وبالاستقلال ، وظل النيجر منعزلا عن نيجيريا وبعيدا عن التأثر بما يأتى من الشرق وبمحاولات الإصلاح

والتجديد وغرقت دعوة الإسلام الحديث بين أ كثر من أثنى عشر مليونا من المسلمين يتعلقون أشد التعلق بالإسلام المحافظ ، وحافظ إسلام النيجر على الصفات التقليدية القديمة للرسالة غير أن البلاد فى حاجة إلى التمشى مع التقدم العالمى ولا خطر على الإسلام منه ، وأثر نيجيريا على المنطقة قوى ، والبلاد تكون اتحاداً إسلاميا مرهوب الجانب هو أ كثر وأ كثف مجموعة من المسلمين السود ، وإذا سارت نيجيريا سيرا حثيثاً فى سبيل التقدم وهبت من كبوتها أصبحت لها سيطرة قوية وإشعاع وضاح على قلب إفريقيا .

٧ — التشاد : التشاد هى نقطة تقابل إسلام الغرب فى إفريقيا مع إسلام الشرق وعربه ، والإسلام هناك بدائى والتعليم محدود ، غير أن الأهالى شديدو التمسك بدينهم الحنيف وليس فى إسلامهم مرونة كالإسلام فى السودان الشرقى الذى تأثر بدعوة المصلحين وبفكرة الوحدة العربية ، ويقوم الإسلام فى التشاد بمهمة خطيرة وهى الوقوف فى وجه انتشار المسيحية من الغرب إلى الشرق وإلى الجنوب ، والمسلمون هناك ينحدون من أصول عربية ويشتغلون بالرعى ومنهم من ينتمى إلى ولد سليمان وبعضهم أيضاً من أصول سوداء ، والتجار المسلمون بينهم من يرجعون إلى أصول أجنبية ويكونون طبقة ارستقراطية غنية ومثقفة ، ويقوم الإسلام على أساس الدعوة والعقيدة فى بدء ظهوره كما تنتشر الصوفية والزوايا ويشتغل الأهلون بالسياسة إلى أبعد حد ، إلا أننا نشاهد فى سياستهم غموضاً فالحكومة تميل إلى الصفة المدنية البحتة بينما تعتمد على الاسلام التقليدى وتحول دون النشاط القائم على الإصلاح والتجديد فى تعاليمه ولا تتحمس لفكرة الوحدة العربية .

٨ — السودان الشرقى : يتجلى الإسلام فى السودان الشرقى فى ثوبه التقليدى ، والعديد من المساجد والقباب ومقابر أولياء الله الصالحين المطلاة بالآجر الأبيض .

وقد ترتب على دخول الاسلام وحلوله محل المسيحية وبعض صفات الحضارة الهيلينية ، جمعه حوله الجماعة فى حزمة قوية وإقامة مجتمع مؤمن بالعقيدة له أسسه الاجتماعية الراسخة اليوم ، ويعير المسلمون أهمية كبرى للمظاهر الخارجية للعقيدة الدينية ولشعائرها ، كما أنه قد تغلغلت فى البلاد الآداب والطبائع العربية ، كما يتميز الاسلام بروحه العالية هناك وبالسعى فى سبيل اصلاح المجتمع عن طريق المصلحين الذين قاموا فى منتصف القرن الماضى بالدعوة لتطهير المجتمع من الشوائب على أساس الكتاب الحكيم وهم المهدى وأنصاره ، كما تنتشر هناك الطرق الصوفية على اختلافها وتشتد الدعوة لها ، وكثيرا ما قدم من الحجاز إلى السودان رجال الدين والأدب والفقه لينشروا الدعوة والمعرفة ، ثم مالبثوا أن بجلوا وأكرمت وفادتهم واعتبروا من أهل الكرامات وأولياء الله الصالحين وحج الناس إلى قبورهم وجمعت الأموال باسمهم للاحسان على الفقراء والمعوزين، ويمكن تلخيص أوضاع الإسلام بين المؤمنين فى وجوهها الآتية : البوبيون من أهالى الوديان وهم مستعربون ، والفلاحون من أهل البرارى النضرة ، والرحل الذين لا ينون عن الانتقال من مكان لآخر والزنوج ، ويحترم العامة شيوخهم الذين يوجهونهم فى الصلاة والعبادة كما يتحمسون لقصص وأساطير أولياء الله ويتجهون إلى قبورهم ويبتهلون إليهم أن يقوهم شرور النكبات والكوارث وما هو مخبأ فى علم الغيب ، ويشاهد أن هؤلاء العامة ليسوا على قسط من العلم والمعرفة . ومدارس القرى تحتاج إلى كثير من العناية ، والإسلام هناك ليس أكثر تعمقاً منه فى غرب أفريقيا ، وكثيراً ما تطغى العادات على الشريعة فيما يختص بالإرث وبطهارة البنات ، ويباشر تعليم الإسلام وحمل رسالته الفقهاء على نسق المرابطين ويحملون الأحجبة وسائر علامات البركات ولا تفوتهم فرائض الجمعة وغيرها محافظة على مكانتهم الاجتماعية . وأهم ما تميز به السودان الدعوة المهدية ، ثم انقسم الناس إلى قسمين المهدية والمرغنية والأولى وهى تميل إلى

المجموعة المسماة الأمة ، تتمسك بفكرة السودان كقوة وطنية فحسب والثانية تميل إلى التقارب مع مصر .

٩ — شرق إفريقيا : الإسلام فى هذه المنطقة يشبه مثيله فى السودان ، ويتمثل فى تعلق الأهلين بالمشايخ وأوليــاء الله الصالحين والمعتقدات المحلية والصوفية والزوايا ، كما يدين عدد وفير من المسلمين هناك بما فى ذلك كينيا إلى المذهب الاسماعيلى ، غير أن للاسلام هناك قوة فى جمع الناس حول لوائه وشدة تعلقهم به وفى روح وعقلية جماعية ، غير أن احترام الناس لشعائر الدين وأدائها بدقة لم يمنع الـكراهية الدفينة بين القبائل والأجناس ، وكل جنس أو قبيلة له رؤوسه الدينيون وأوليــاؤه الصالحون وأماكن عباداته ومدارسه ، ويفرض الإسلام وطبائع الشعب هناك نظاماً صارماً على المرأة شأنه فى هذا شأن السودان فيما عدا أهل جابارتى بهرر والـكل هناك يكتفون بزوجة واحدة والطلاق نادر بينهم ، وتقاليد الإسلام الحقة يدافع عنها القضاة العدول والمدارس التى تعلم القرآن الـكريم ، وتحارب مع القضــاة المعتقدات والعادات المحلية ، وأهم هذه المدارس فى هرر وتنتمى إلى أسرات الأولياء والأشراف وهى من أصول عربية وفدت من اليمن ، ويجنح الإسلام نحو الطبائع التى يتصف بها أهل المدن والعمران فى أقصى الشرق من القارة حيث المدائن الزاخرة والمساجد وتباشر العبادة على الطريقة الشافعية والحنفية والمالـكية حسب انتماء الفرد لـكل من هذه المذاهب ، كما تتعدد الطرق الصوفية وعلى رأسها الفقهاء والمشايخ والفقراء إلى الله تعالى وتضم إليها الـكثير من الأنصار ، كما أن احترام أولياء الله يتجلى فى الحج إلى قبورهم وأهم هؤلاء الشيخ الحسين ، كما أن الجالا يزورون قبر أبا مودا . وهذان أهم الزعماء الدينيين هناك ، ويسكن ديراداواه الشيخ عمر الأزهرى من القدرية وله مكانته وسلطانه على عرب الصومال والمنطقة ، وبينما يجمع الإسلام فى حزمة قوية أهل الصومال ليقفوا متضامنين فى وجه الاستعمار

والتبشير والأخطار الخارجية المجاورة نرى اخوانهم من المسلمين فى الحبشة مشغولين بالأخطار الداخلية التى يرزؤن بها من الضغط والاضطهاد المسيحى ، ونذكر أخيراً نشاط الإسلام على يد المهاجرين من باكستان والهند فى كينيا وتانزانيا وجلهم من الاسماعيليين والأحمديين المنتمين لمرزا غلام ، غير أن الإسلام فى هاتين المنطقتين أقلية ولو أنه يعتبر طليعة قـــوة الاتصال الآسيوى بأفريقيا.

ثالثاً : الأمة الإسلامية فى إفريقيا :

الاسلام دين ملىء بالمثل الأخلاقية السامية قدمت من بلاد العرب إلى إفريقيا عن طريق البحر الأحمر والسويس والمحيط الهندى فطبعت القارة بطابع قوى له شخصيته التى يتميز بها ويبرز بواسطته المؤمنون ليكونوا شخصية وقوة وحضارة لا على أن أصحـابها مسلمون فحسب بل على أنهم يكونون حائطاً مرصوص البنيان يصعب اقتحامه ودرعا يحمى الشعوب على مر الزمان وإن غلبت على أمرها فترة من الزمن ، ونراه بروحه وكأنه سلك من أسلاك البرق يربط القاهرة بطرابلس بكانو بالدار البيضاء بتومبوكتو بفاس والرباط وبتونس والجزائر وبدار السلام والخرطوم وهكذا .. ويبلغ عدد المسلمين فى العالم أكثر من ٤٠٠ مليون نسمة بإفريقيا البيضاء والسوداء من شمالها إلى قلبها أكثر من ١٣٠ مليون من هذا المجموع ، وكانت هذه القارة فى شمالهـا تكون يوماً ما امبراطورية واحدة تبدأ من الأطلسى فالبحر الأحمر ثم تتجاوز إلى ما بين النهرين وخراسان فإلى قلب آسيا وتقوم على العقيدة والحضارة العربية والروح الإسلامية بنظامها الاجتماعى وعنايتها بشؤون الدين والدنيا ، ولم يك فتح مصر أول اتصال بين العرب وأهل إفريقيا كما سبق أن بينا فقد هاجر قبل الإسلام جموع من اليمن والحجاز وكانوا يباشرون احتكار التجارة بين إفريقيا وآسيا ،

كما كانوا حلقة إتصال بين إفريقيا الشرقية والحبشة وحضارات الفرس واليونان والرومان ، ثم وقفت فيما بعد فتوحات العرب واتساعهم فى القارة عند الصحراء واصطدمت فى الشمال بأهل البربر والأطلسى والريف وما لبث أن اختلط هؤلاء بالعرب بعد اعتناقهم الإسلام وباشروا امتدادهم إلى قلب القارة عبر الصحراء ينشرون الإسلام والقرآن ولسانه ، كما جاء من الغرب إلى ضفاف النيل حكام وسادة تولوا الخلافة على أساس المذهب الشيعى وهم الفاطميون الذين قدموا بالحسنى وأنشأوا القاهرة وبنوا الأزهر الشريف لتعليم أصول الدين والشريعة ونشر الدعوة وقد أقبل عليه كل من يريد التزود من العلم من كل حدب وصوب وكان خير دعاية للاسلام بما يبث من روح الدين الحنيف وما يسديه إلى طلابه من خبرات وقد ظلوا فى الحكم زهاء قرنين من الزمان .

وأخذت العقيدة تزحف نحو الجنوب وخاصة منذ القرن الثالث عشر وهبطت الحبشة وأعالى النيل ودنقلة كما هبط إلى شاطىء إفريقيا الشرقى التجار يشيدون مخازنهم وقد قدموا من شبه جزيرة العرب وفارس وغيرها واستقروا فى زنزبار ومقاديشو وموزمبيق وتوسعوا بنشاطهم إلى مدغشقر وعاشوا فى سلام وتفاهم مع السودان من أهل القارة وكان همهم التجارة وشئون الاقتصاد لا الغزو والفتح ، وامتدت تجارة العرب بتشجيع الهجرة إلى التشاد والكونغو ومناطق البحيرات ، ونشر المسلمون العرب من تجار ومشايخ وفقهاء الدعوة هناك بين السود ، ثم واصل الدعوة فيما بعد المرابطون وأصحاب الطرق الصوفية ورجال الزوايا ودخلوا قلب القارة من موريتانيا والمغرب وصحراء ليبيا وغيرها من أقطار إفريقيا الشمالية ، ورأينا فى القرن الحادى عشر أسرة حاكمة إسلامية فى مالى ، وظل الإسلام هناك على مدى ثلاثة قرون هو السائد بين الطبقة الحاكمة بينما تعلق غالبية العامة بعبادات الأقدمين ، وقدم إلى هذه البلاد من المغرب ومصر ، وحج إلى بيت الله الحرام كونج موسى وانتشر الإسلام من

مالى إلى النيجر ونيجيريا ، ويدل على ازدهاره ما نراه الآن فى إمارة كانوبما ينتشر فيها وما حولها من العادات والطبائع الإسلامية مع التمسك بأهداب الدين الحنيف ويصل إلى تومبوكتو وما وراءها ، ثم حذا الملك سونحاى مامادوتورى حذو غيره من السادة المسلمين السود وحج إلى مكة المكرمة ووفد إلى القاهرة حيث أطلق عليه خليفة المسلمين فى السودان وكان من أوائل الأمراء السود الذين أنشأوا علاقات سياسية مستمرة مع مصر ثم استمر الاتصال بين المسلمين السود والبيض ، والحج إلى بيت الله الحرام ووفد الكثيرون من أهل إفريقيا المؤمنين إلى الأزهر الشريف يتلقون أصول الإسلام وشريعته .

ويمكن تلخيص وضع الإسلام فى إفريقيا كما يلى : منطقة شمال إفريقيا والبلدان التى يحدها البحر المتوسط ومسلموها من أصول عربية وهم يميلون إلى البياض ، والصحراء وأهمها الكبرى وأهلها من البدو والمغاربة والطوارق ، ومنطقة السودان من خط عرض ١٠ إلى ١٦ درجة من السنغال إلى شاطىء غينيا وإلى البحر الأحمر وإفريقيا الشرقية فإلى إفريقيا البرتغالية وأهم الأراضى الإسلامية فى هذه المنطقة السوداء هى السودان ويختلط فيها العرب بالسود ، وما يتميز به إسلام إفريقيا هو الاسلام للشعوب البيضاء التى تنحدر من أصول عربية وهم حلقة اتصال مع آسيا والإسلام للشعوب السوداء فى قلب القارة واسلامهم يختلط بعادات الأقدمين وبطبائع القبائل والعشائر الزنجية والاعتقاد فى أرواح القدماء وبقايا عبادات الجماد والجن ، ولا يعرف عدد المسلمين فى إفريقيا على وجه الدقة ، وبينما يمكن تحديدهم بنحو ٧٠ مليون نسمة فى شمال القارة فالعدد قد يفوق ٥٠ أو ٦٠ مليوناً فى إفريقيا السوداء ، ونسبة المسلمين فى إفريقيا السوداء كالآتى : كانت حتى سنة ١٩٤٦ فى النيجر نحو ٩٠٪ وفى السنغال نحو ٨٥٪ وفى غينيا نحو ٨٠٪ وفى السودان الفرنسى السابق نحو ٦٠٪ حيث يصطدم بقبائل الموسى الوثنية وفى نيجيريا أكثر من ٤٥٪

وفى ساحل العاج ١٥٪ وفى داهومى والكونغو ٧٪ وفى مدغشقر والقمران ٢٠٪ كما أخذ الرقم فى تصاعد مستمر من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٤٥ ووصل إلى أكثر من ٣٣٪ ويمكن تقدير متوسط هذه النسب بأكثر من ٥٠٪ ، ويضاف إلى هذه النسب نسب أخرى لا يستهان بأمرها فى إفريقيا الاستوائية واتحاد جنوب إفريقيا وشرقها وخاصة الجالية المهاجرة من الهند والباكستان ، وهناك ملايين المسلمين فى إفريقيا الغربيـــة الفرنسية والبريطانية سابقاً وكذا فى المستعمرات البرتغالية وليبريا ، ويقدر عدد المسلمين فى إفريقيا بوجه عام ببيضها وسودها نقلا عن التقويم السنوى للعالم الاســـلامى وبعض الأبحاث والتقديرات كما يلى وذلك مقدراً بالألف من مجموع عدد السكان :

موريتانيا ٦٣٠ والكافة مسلمون ، والسنغال ١ر٧٨٥ من ٢ر٢٩٧ ، ومالى من ١ر٩٠٠ إلى ٢ر٢٠٨ من ٣ر٣٦٣٣ ، غينيا من ١ر٣٢٠ إلى ٢ر٤٥١ من ٣ر٠٨٤ ، جامبيا ١٣٠ من ٢٦٠ ، وسيراليون ٩٣٠ من ٢ر٢٥٣ ، وغينيا البرتغالية ١١٣ من ٥١٧ وليبريا ٣٠٠ من ١ر٥٠٠ وساحل العاج ٥٧٥ من ٢ر٥٧٥ ، وفولتا العليا ٦٢٨ من ٣ر٢٨٠ والنيجر ١ر٩٧٥ من ٢ر٦٩٥ ، وغانا ١٢٠ من ٤ر٠٠٠ ، وتوجو ٥ر٦٨ من ١ر١١٣ ، وداهومى ١١٩ من ١ر٦٨٤ ونيجيريا ١٣ر٠٠٠ من ٣٤ر٠٠٠ ، وكاميرون ٥٠٠ من ٣ر١٨٧ ، وتشاد ١ر١٠٠ من ٢ر٥٦٠ وجمهورية إفريقيا الوسطى ٣٠ من ١ر١٤٠ ، والكونغو ١٥ من ٧٦٣ ، وجابون ٥ من ٤٠٨ ، وكونغو ستانلى فيل ٣٥٠ من ١٣ر٥٤٠ ، ورواندا ٢٨ من ٤ر٥٦٨ ، وغينيا الأسبانية غير معروف العدد من ٢١٢ ، ومصر ٢٠ر٠٠٠ من ٢٣ر٠٠٠ والسودان الشرقى ٧ر٣٠٠ من ١٠ر٥٠٠ ، والحبشة ٣ر٠٠٠ من نحو ١٢ر٠٠٠ اريتريا ٨٠٠ من ١ر١٠٠ ، الصومال الفرنسى ٥ر٦٧ من ٦٨ ، الصومال ٧٠٠ من ٧٠٠ ، وصوماليا ١ر٣٠٠ من ١ر٣٠٠ ، وكينيا ٥٧٠ من ٦ر٢٥٠ ، وأوغاندة ٣٥٦ من ٥ر٦٨٠ ، وتانجانيقا ٢ر١٠٠ من ٨ر٧٦٠ ، وزانزيبار ٢٧٠

من ٣٠٠ ، ونياسالاند ٢٠٠ من ٢ر٧٠٠ ، وروديسيا الشمالية ٥ من ٢ر٣٠٠ ، وروديسيا الجنوبية ٢ من ٢ر٦٤٠ ، وانجولا ٤ من ٤ر٣٥٥ ، وموزامبيق ٦٠٠ من ٦ر١٨٠ ، وبازوتولاند غير معروف العدد من ٦٥١ ، وبتشوانالاند غير معروف العدد من ٣٢٧ ، وسوازيلاند غير معروف العدد من ٢٦٠ ، وإفريقيا الغربية غير معروف العدد من ٥٢٤ واتحاد جنوب إفريقيا ١١٠ من ١٤ر١٦٧ ومدغشقر ٢٠٠ من ٤ر٥٠٠ ، والقمران ١٦٥ من ١٦٩ ، ويضاف إلى العدد المذكور من المسلمين نحو ثلاثين مليون نسمة من المسلمين يسكنون شمال إفريقيا فيما عدا مصر التى سبق ذكرها .

والخلاصة :

مسلمو إفريقيا يكونون قوة متحدة للعوامل الرئيسية التالية : —

١ — إن الإسلام قانون وعادات وفلسفة وأخلاق وعقيدة ودين ودنيا وحضارة له صفة واحدةمهما اختلفت بعض العادات المحلية من جهة إلىأخرى .

٢ — إن نحو ٩٠ ٪ من مسلمى إفريقيا هم سنيون مما يزيد فى تقاربهم ، والأقلية الشيعية ليست على خلاف مع السنيين ، وفيما يختص بالذين ينتمون إلى الصوفية وطرق التقشف فهم شديدو التمسك بالإسلام وبالانضواء تحت لوائه ، وهى أقدم الطرق فى إفريقيا وأسست فى القرن الثانى عشر على يد عبد القادر الجيلانى فى العراق وامتدت إلى إفريقيا بواسطة مريديها وخاصة فى موريتانيا والسنغال ، والقدرية والشاذلية وهى أقل أهمية وأحدث فى إفريقيا ويقال أن السنوسية تتفرع منها وهى تتشعب من ليبيا إلى شتى الأصقاع الغربية والجنوبية وأهلها يجيدون أعمال التجارة مما زعج المستعمرين ، والخلاوتية وهى أهمها حيث تتفرع منها التيجانية التى تأسست فى القرن التاسع عشر على يد الفاتح الحاج عمر السنغالى من نسل المغاربة والسود وقد جمع عدداً كبيرا من

مريديه حوله ثم تفرع من التيجانية الطريقة الهمالية من الفقراء والمتذمرين — كافة هذه الطرق لا تهز من بنيان الأمة الإسلامية كحائط مرصوص قوى الدعائم، والمهدية التى أسسها المهدى فى السودان وقامت على التقشف والبساطة والرجوع إلى القرآن الكريم فى تعاليم الدين وتنظيم المجتمع فحسب ونبذ البذخ والترف والمظاهر ، ولا ننسى أيضاً الإسماعيلية المنتشرة بين الجالية الباكستانية المستوطنة فى إفريقيا وبعض المناطق فى شرق إفريقيا وكينيا .

٣ — إن غالبية المسلمين يتعلقون بلغة الضاد والقرآن الكريم ولهذا الوضع أهميته فى تقاربهم وهم على استعداد للاستزادة من اللغة عن طريق المدارس وهم يبدون استعدادا قوياً لتعلم العلوم الحديثة وللنزول فى ميادين الاقتصاد والبحث والفكر العصرى والابتداع لمكافحة المغتصبين والغزاة .

٤ — إنهم على استعداد دائماً لمقاومة أسباب تأخرهم والأضرار بمصالحهم كالتضامن لمكافحة الاستعمار وعملائه كأهل إسرائيل ، وتجلى هذا الموقف فى مؤتمر كازابلانكا سنة ١٩٦١ وفى سائر المؤتمرات الخاصة بشئوون إفريقيا المتتابعة ومؤتمرات القمة ، وكذا فى إعلان موقف الحياد وعدم الانحياز من صراع الكتلتين الشرقية والغربية ، وفى تعليم أبناء إفريقيا فى مدارس وجامعات القاهرة والخرطوم وغيرها ؛ وفى انتشار الملحقين الدينيين المسلمين مندوبين عن الجمهورية العربية المتحدة فى سفاراتها كأئمة فى شتى العواصم الإفريقية ، وفى نشر الدعوة الإسلامية بترديد آيات القرآن الكريم بشتى الوسائل هناك ، وبمنح المساعدات المادية والمعنوية للبعثات الإفريقية فى الأزهر الشريف وغيره من المدارس الإسلامية وبعقد مؤتمرات علماء الدين فى القاهرة يؤمه الرجال المبرزون فى الإسلام والفقه من شتى البلدان الإفريقية كما حصل ذلك فى يولية سنة ١٩٦١ وفى السنوات التالية وآخرها إجتماع مؤتمر العلماء سنة ١٩٦٦ .

ومما لا شك فيه أن روح الأمة والاتحاد فى الإسلام كان لها اليد الطولى فى نجاح فكرة وحدة الشعوب الإفريقية وتقاربها ، كما كان لها بما جبل عليه الإسلام من سماحة وتواضع وتقارب وتحاب بين الناس ومساعدة الأخ لأخيه فضل كبير فى نجاح الفكرة الاشتراكية كعلاج لأدواء القارة وهى فى طريق نموها ، كما قد يكون لهذه الروح أثر كبير فى صبغ الفكرة الاشتراكية بالطابع الإفريقى تبعاً لحاجة القارة وبعد هذا التفكير عن الاتجاد المادى ونحوه نحوا قومياً مناهضاً للاستعمار .

رابعاً : المسيحيون فى إفريقيا :

يذكر العديد من الإفريقيين المسيحية بالاستعمار وقسوته وسياطه وما صحب ذلك من فاقة ومذلة ، علاوة على خضوع الكنيسة الإفريقية فى كثير من الأحوال (باستثناء الحبشة) إلى سلطان خارج القارة فى عواصم الدول الاستعمارية الغربية ؛ وليست دعوتها بالخالصة ، ويحارب الإفريقيون المسيحية كذلك نظراً لتعقيد طقوسها وللاختلاف العميق فى شتى مذاهبها مما يصعب عليهم فهمه ، ولا ينسون أنها كابوس ثقيل الوطأة وفد مع المستعمر وصحب حرابه ومظالمه وتمييزه العنصرى ، ولم يشفع للمسيحية توزيعها الملح والودع والملبوسات الزاهية والقبعات على الذين يعتنقونها ثم البركات على يد المبشرين لتأييد عسكر الاحتلال ، ويبلغ عدد الكاثوليك السود الذين يتبعون الكنيسة الرومانية فى إفريقيا الفرنسية سابقاً ٤ مليون من مجموع عدد السكان البالغ نحو ٥٠مليون نسمة وإفريقيا الجنوبية نحو ٨٠٤ر٠٠٠ من مجموع عدد السكان ويبلغ نحو ١٤ر٧٠٠ر٠٠٠ وإفريقيا الوسطى نحو ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ من عدد من السكان ويبلغ ٦٧ر٠٠٠ر٠٠٠ وبالكونغو البلجيكية سابقاً وراواندى أوراندى ٤ر٦٦٠ر٠٠٠ من عدد من السكان ويبلغ ١٥ر٥٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ووجدت

البروتستانتية بين العديد من القبائل الإفريقية إقبالا أكثر من الكاثوليكية على يد المبشرين الأمريكيين لأنها أدركت أفضل وسائل التقرب إلى السود وجعل الدين أداة سهلة لمجتمعهم ، وتعددت مدارس البروتستانت والمساعدات المادية والطبية مع إنشاء نواة لإعداد القساوسة الوطنيين بصفة سريعة ، ونشطت حركة البروتستانتية والمستعمرات التى تسودها الكاثوليكية بعد سنة ١٩٣٦ ، وخاصة فى الكونغو البلجيكية والكمرون وإفريقيا الغربية الفرنسية وممتلكات البرتغال ، وتكونت هناك أثناء الحرب العالمية الثانية اتحادات من المبشرين وتعلم على يدهم عدد وفير من الأطفال ، ويبلغ عدد معتنقى المذهب نحو مليون ونصف .

واتسعت حركة المسيحية إلى حد إنشاء كنائس منفصلة عن البابا فى روما وعن الكنيسة البروتستنتية الأصيلة ، وظهرت الكنيسة الحبشية تتزعم الأرثوذكسية لأهل البلاد هناك وتضم نحو ثلثى السكان وهم من المسيحيين الأرثوذكس ، وبدأت هناك حركة التبشير على يد البرتغاليين لقلب الميزان لصالح المسيحية ضد الإسلام والحضارة العربية ابتداء من سنة ١٥٢٠ ، وأنشأت البرتغال سفارة فى الحبشة ، وشعر المسلمون بالخطر وكافحوا المسيحية وسياسة اضطهادها للمسلمين بعد رحيل السفارة ، واستنجد الإمبراطور الذى لجأ إلى مصـوع بالبرتغاليين الذين هرعوا إليه لنجدته والانتقام من المسلمين واسترداد نفوذهم وسلطان المسيحية فى البلاد وانتشر التبشير مرة أخرى سنة ١٥٤١ ، وعاد المسلمون إلى الكر بعد الهزيمة بمساعدة الدولة العلية العثمانية ، ثم أعقب ذلك هجوم مضاد للمسيحيين قام به البرتغاليون وسادت ديانة يسوع هناك إلى اليوم ، وتصل نسبة المسلمين إلى المسيحيين نحو الثلث غير أنه ليس هناك إحصاء دقيق فى هذا الشأن ، ومما يجدر ذكره أن الإمبراطور منليك الثانى اعتنق الإسلام فى القرن التاسع عشر ، وعموماً فلولا تدخل البرتغال منذ سنة ١٥٤١ ومعارضة البعثات

الأجنبية والنبلاء لأصبح الإسلام دين الدولة الرسمى اليوم ، كما حاولت إيطاليا خلال حكمها القصير للحبشة بعد غزوها من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٤٠ الإضعاف من سلطة الكنيسة الحبشية الأرثوذكسية لضم مسيحية الحبشة إلى كنيسة روما ومساعدة الإسلام فى هذا الجزء الجديد من الإمبراطورية الفاشية غير أنها لم تصب غايتها ، وعصب السياسة والإدارة والإقتصاد فى يد المسيحيين هناك ، والقلة من المسلمين يشغلون بعض الوظائف فى الحكومة ، وتبادلت الكنيسة الحبشية علاقات المودة مع كنائس السود فى الولايات المتحدة الأمريكية فضلا عن صلاتها الوثيقة بالكنيسة الأرثوذكسية فى القاهرة .

وانتشرت كنائس السود المستقلة فى أفريقيا بصور وتماثيل للمسيح أسود اللون مما يرضى العقلية والبيئة الأفريقية الزنجية ، وجاهدت هذه الكنائس ضد التمييز العنصرى لكنائس البيض وسياستهم ضد الأفريقيين السود ، واتبعت كنائس السود سياسة بالغة فى التقشف وفى الاكتفاء بالقليل من القوت وفى تطهير الروح للحصول على المغفرة ، ومنها الكنيسة المسيحية الأولى فى جنوب أفريقيا والكنيسة الأفريقية لبافاوفو واتحاد الكنيسة الأفريقية بنيجيريا ، وهناك حركة مسيحية تدعو إلى انتظار مسيح أسود من عذراء سوداء وهى منتشرة فى أفريقيا الغربية والوسطى ومركزها كنيسة السود فى دلتا النيجر ، وهناك دعوة مسيحية روحية لها طابعها الخاص مصدرها ليبيريا ، وزحفت إلى ساحل العاج وساحل الذهب سابقاً وهى تحارب الرموز والتعاويذ والسرقة والزنا ، وتبشر المؤمنين فيها الأتقياء بالجنة وتعد الأشرار وتتوعدهم بالنار المستعرة .

غير أن المسيحيين لم يتلقفوا الدعوة المسيحية بالترحاب والطمأنينة ، فإنهم سرعان ما أدركوا العلاقة بين التبشير والاستعمار ، وكان رد الفعل سعيهم الحثيث لتجميع صفوفهم والاتحاد ضد الاستعمار نتيجة لمبالغة أوروبا فى سياستها الاستعمارية

والعنصرية وحرمانها أهـل البلاد من الـكسب والرزق والإدارة والمناصب المرموقة وفرض تشريع قاس أطلق عليه ما وراء البحار يكاد يحرم الأفريقى من كافة الحقوق المدنية ويلقى إليه بلقمة كالعلقم يتبلغ بها ليقى نفسه الجوع والموت، ونجم عن هذا الوضع هجوم مضاد لعدد كبير من الزعماء الأفريقيين ونقابات العمال والطبقات المستنيرة على الاستعمار الرهيب ، وتأججت نيران الوطنية فى أصقاع شتى بالسنغال وغينيا وغانا والـكونغو ومدغشقر وبلاد الماوماو وبوبنتى وغينيا الأسبانية وأنجولا وموزمبيق وجابون وغيرها ، وبرزت سياسة التجمع فى اتحاد أصحاب العقائد المتعددة فى غابات أفريقيا المترامية الأطراف الذين يدينون بالمسيحية وتزعمهم فى الحركة أندرية منتساوا الذى اشترك مع الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ثم فى حرب الريف ضد الاستعمار ونادى بضرورة شق عصا الطاعة على الحـكومة الاستعمارية غير أنه مات قبل أن يرى نضوج دعوته سنة ١٩٤٠، ولم يقبل أتباعه فـكرة موته وقد تأثروا بما ورثته لهم الوثنية وأطلقوا عليـه المسيح منتساوا ، وعبدوه وظلوا ينتخبونه بانتظام كلما تجرى انتخابات برلمانية .

وتفرعت عن المسيحية هناك أيضاً عادة أطلق عليها الـكمبانجية نسبة إلى صاحبها سيمون كمبانجو الذى نادى بها سنة ١٩٢١ واستمرت فى طابعهـا على أساس الـكاكيه من سنة ١٩٤١ ورائدها أحد جنود جيش الخلاص المسيحى، وظهرت عبادة أخرى رائدها سيمون مباوى اسمها الجوانزا أى منقذو ملك السود . ويخضعون الذين يدينون بها إلى قواعد خلقية دقيقة كالتزاوج بينهم فى دائرتهم فحسب وتحريم الزنا والخمر وقطع الاتصال قطعاً كلياً بالبعثات الأجنبية وبممثلى الحـكومة الاستعمارية .

وتنتشر عبادة اسمها الـكتياوالا فى روديسيا الجنوبية ونياسالاند وقد سادت فيما مضى سنة ١٩١٦ ثلاثة أرباع الـكونغو البلجيكية سابقاً ، وهـذه

العبادة تزعم أن سيمون كمبانجو مسيح جديد بعث إلى الأرض لإنقاذ السود من مظالم البيض الذين قتلوا المسيح ، كما أنها تحارب السحر والشعوذة ، وكذلك انتشرت بسرعة عبادة أطلق عليها نجول ومعناها القوة والسلطة بين أهالى الكونغو والجابون ، وهى ترمى إلى توحيد شتى العبادات الجديدة وتنادى بالأخاء ، وتحارب السحر والسرقة والزنا ، ولها نظامها فى القداس والجنازات وتستعير من الكاثوليكية العديد من طقوسها ، وهى وغيرها من العبادات السوداء الجديدة التى يمكن وصفها بأنها إصلاح دينى على نسق نظيره فى أوروبا الذى ظهر على أيدى مارتن لوثر وكالفن واراسموس فى القرن السادس عشر ، تقف فى منتصف الطريق بين الأيديولوجية المسيحية والفلسفات والأديان القديمة للوثنيات الأفريقية وتحارب السحر والشعوذة وبعض العادات المرذولة والمتوارثة ، وهى كذلك تناهض بشدة سلطان الرجل الأبيض واستبداده وسياسة العنصرية ، وهذه الكنائس المبعثرة فى أفريقيا تعد خطراً على الكاثوليكية والبروتستنتية المستوردتين من الغرب ، وهما يحاربانهـــا عن طريق انتشارها بالدعوة وزيادة عدد كهنتهما وقساوستهما ومبعوثيهما ، ويسعى الفاتيكان والكنائس الأنجليكانية إلى كسب الأنصار فى أفريقيا بتعيين بعض أهالى البلاد فى أعلى مناصب الكنيسة ككرادلة وما إليهم ، ولا يخفى أن البابا ينتخب عن طريق الكرادلة ، وأدرك الأفريقيون أغراض التبشير وما يخفيه من سم زعاف وهو ما لم يباشره العرب الذين اختلطوا بأهل أفريقيا عن طريق التجارة ونشر الإسلام بالحسنى ثم تبادل المنافع وامتزاج الدم بالزيجة والانخراط فى المجتمع الأفريقى وإقامة نظام اجتماعى وحضارة يتفهمها أهل البلاد ويعتنقونها عن عقيدة ، وكما سبق أن بينا لم تقم الدعوة للإسلام فى القارة بفرض الاستعمار على القبائل والعشائر كما فعل الأوروبيون فى تبشيرهم بالمسيحية .

خامساً — الرق والاسترقاق :

يهاجم الأوروبيون الإسلام بالباطل ويدعون أنه نشر الرق فى أفريقيا مع العلم بأن تجارة الرقيق الأسود وشراء السود بالجملة وبأبخس الأسعار لشحنهم كالسائمة فى السفن ، باشرها الأوروبيون بحماس لصالح مزارعهم الواسعة فى العالم الجديد من القارة الأفريقية حتى القرن الماضى ، وظلت اليوم فى صورة الاستعمار وأعمال السخرة المترتبة عليه وفى التمييز العنصرى الذى يطبق رغم اشمئزاز الإنسانية الحديثة ومطالبة الجمعية العمومية للأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية والجمعيات الحكومية وغير الحكومية الدولية بضرورة إنهائها تمشياً مع ميثاق الأمم المتحدة وما جاء فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وما دخل على الإنسان من تطورات تناولت ضرورة المساواة بين الأجناس والألوان والأفراد وضرورة مراعاة حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، ولا تزال بقايا مشكلات السود وجمهورية ليبيريا فى أفريقيا وقانون الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية لسنة ١٩٦٤ تشير إلى أصول التمييز العنصرى ، كما لا تزال التفرقة العنصرية باضطهاداتها وتعذيبها للسود معنوياً ومادياً فى اتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية وموزمبيق وأنجولا تدل على قسوة وجشع الرجل الأبيض وأنه يمارس الرق فى أبشع صوره وهو الاستعمار المباشر وغير المباشر ، فإن استخدام الناس بالجملة فى أعمال السخرة القسرية الحديثة فى المصانع والمناجم والغابات وغيرها ومنحهم أجوراً لا تقيم أودهم هو الاسترقاق فى العصر الحديث . .

وكان الرق حين ظهور الإسلام فى صميم الحضارات القديمة ونظام مجتمعها ثم تسلل إلى السخرة والاستعمار ، ولكن إذا قورن الرق فى الأمبراطوريات القديمة بالرق فى الإسلام الذى عاصرها وجدنا البون شاسعاً ، فلم تك للرقيق حقوق عند اليونان والرومان وبيزانطة ومن قبلهم من الأقدمين وكان يؤخذ

مصفدا فى السلاسل مقاداً بالسياط ويعيش فى اقباء مظلمة كالقبور ويسقى كؤوس المنون ، وكان كالسلعة يستهلك ويبلى وقد كتب عليه الفناء بإرادة سيده دون أن يستطيع الشكوى أو المطالبة بأى إنصاف ، كما لا يكاد يختلف نظر المجتمع الغربى الحديث قبل إلغاء الرق بالمعاهدات بجهود الجمعيات الدولية غير الحكومية وبعض الحكومات ثم بعد الإلغاء إلى المغلوب على أمره فيما وراء البحار فالتمييز العنصرى اليوم أشد فتكا بالشعوب جملة من الرق قديماً الذى كان طغيانه يقتصر على الرقيق فحسب ، فى حين أن العربى كان لا ينظر إلى الرقيق بعين الاحتقار ولا يعامله كأنه السلعة ، ومن أمهات الخلفاء والسلاطين من كن من الإماء ، وكان سلاطين مصر المماليك من الأرقاء الذين استجلبوا من بلاد الشركس على أساس تبنيهم وتعليمهم فى بلاط السلاطين وتدريبهم ليجلسوا فيما بعد فوق أريكة السلطنة ، وكان المسلم يربى الرقيق ويعلمه ويعتبره عضواً فى أسرته ويدربه على صعود سلم الوظائف حتى الوزارة ويزوجه ابنته ويعهد إليه بشئونه وبالدواوين وسياسة الدولة ، ومن الأرقاء من تولى بعد تحرره مناصب القضاء والوزارة والحكم بل والخلافة فالمأمون كانت أمه أمة ، وشاهدنا فى دول الأندلس العربية وفى السلطنة العثمانية مثل هذه الحالة ونذكر بهذه المناسبة أيضاً كافور الأخشيدى فى مصر فى دولة بنى الأخشيد وقداشترى على بك ومراد بك ممن حكموا مصر قبيل الحملة الفرنسية على مصر وحاربوا جيش بونابارت فى معركتى الأهرام وإمبابة ، ولا وجه للمقارنة بين رحمة نظام الرق فى الاسلام وسهولة عتق الرقبة وبين الرقيق فى الغرب وأنصاف الأرقاء قبل ظهور البورجوازية وقيام الثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان وإنهاء الرق دولياً بمعاهدات القرن الماضى من اتفاقات فينا السنة ١٨١٤ـ١٨١٥ ثم مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ـ١٨٨٥ ، وكان الرقيق فى مجتمعات الغرب يفقد حياته لأتفه الأسباب ويسام ألوان العذاب بالسياط والعمل المضنى المتواصل دون أجر ، وقد سبى من إفريقيا ليزرع حقول

السادة ويحمل أمتعتهم ويجر عرباتهم ويعكف على خدمتهم فى العالم الجديد .

وكان الرق فى الإسلام منذ قرون يقوم على حرية مقيدة ، وكان الرقيق يعيش فى كنف الأسرة التى يعمل فيها دون شعوره بظلم يقع عليه ، وكثيراً ما كان يفك أساره نتيجة مايسديه إلى السيد من خدمات ، بينما كان الرق وصمة عار فى جبين المجتمع الغربى ، كان مصحوباً بالسياط والدماء والبؤس ، وكان يعتبر الرقيق ثم نصف الرقيق فى عهد الإقطاع من المنبوذين فى معزل عن المجتمع ، وكان لا يجرؤ أن يرفع نظره إلى سيده ولا يستطيع أن يغادر الحقل أو ينتقل من عمل إلى آخر ، وكان من المتعذر عليه أن يتطلع إلى تحسين حاله أو إلى الزواج وغيره من المعاملات الشخصية والمدنية إلا بتصريح واضح من سيده . ولكن الرقيق فى الإسلام كان منذ فجره يوم كان الرق فى صميم المجتمع الإنسانى أجيراً مدللا ومحبوباً من سيده ومقرباً إليه وكانت صلاته به أوثق من صلات الأجير فى المجتمع الأوروبى برب العمل ، وسلالة الأرقاء فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ساعتنا الراهنة مضطهدون منبوذون من المجتمع الغربى هناك رغم ما تنص عليه القوانين الدستورية وغيرها من حريات ومساواة بين المواطنين الأمريكيين وتحولت مشكلة الرق هناك إلى مشكلة عنصرية تعصبية ، وكراهية الأبيض للاسود معروفة وتنكيله به دون مبرر ، وهو أقلية ومغلوب على أمره ويذاق ألوان الاضطهاد فى كل مناسبة لا كيان له فى المجتمع ويسلبه الأبيض وهو العنصر الغالب عملياً حقوق المواطن ويحرمه بالقوة والإرهاب من مباشرة حقوقه السياسية ويعزله اقتصادياً ويضع العوائق فى وجه تربعه فى المناصب الهامة أو اشتغاله بالتجارة الواسعة والأعمال الرابحة رغم مافى هذا العمل من خرق لقواعد الدستور الأمريكى وللقوانين المدنية الحديثة التى تنهى التفرقة العنصرية .

وإذا كان الرق فى حد ذاته لطخة عار فى جبين الإنسانية غير أنه فى الحضارة العربية التى بزغت شمسها فى عهد كان الرق فيه فى سائر المدنيات المعاصرة لها

فى صميم الحياة السياسية والاجتماعية يختلف عنه فى المدنيات المتاخمة لها فى أنه قام على التعاون والتضافر بين أبناء البيت الواحد فى خدمة هذا البيت وسيده ، وكان كما سبق أن بينا لا ينظر إلى الرقيق باحتقار وقد يتزوج يوماً ما ابنة سيده كما قد تنجب الأمة ذكراً يتولى الخلافة .

وهناك فرق كبير مثلا بين معاملة صلاح الدين الكريمة لأسرى الصليبيين وكان الأسرى فى حكم الرقيق فى العهد القديم ، وذبح الجنرال بونابارت فى حملته على مصر قوات يافا من المسلمين فى غزوته للشام وعددهم أربعة آلاف جندى من الشراكسة والعرب والأتراك تذرعاً بصعوبة إطعامهم بعد أن ألقوا سلاحهم نظير تأمينهم على حياتهم ، ولم يعرف فى حضارة العرب أن انبعث الدولة أو السادة أو الأسرات من ذوات اليسار الجور فى معاملة الأرقاء كما عرف عن المجتمع الغربى .

وما القول فى أهل الغرب الذين رموا الحضارة الإسلامية زوراً بتحبيذها وقسوتها فى الرق وهو ركن فى كيانها الاجتماعى وبأنها نشرت النخاسة فى إفريقيا فى حين أنهم الذين اتخذوا الرق وسيلة لجمع القطعان البشرية بالسياط والمدفع والبندقة من سواحل إفريقيا وهضابها وأدغالها للعمل أرقاء ومسخرين فى حقول الولايات المتحدة الواسعة ومزارع السادة البيض هناك وتعمير وادى المسيسبى وغيره لصالح الملاك المهاجرين من أوروبا وللاشتغال فى السفن التجارية بلا مقابل لرواج التجارة الخارجية ، وكان لا يهمهم أن يخر الأفريقيون صرعى كالذباب نتيجة الأوبئة والأمراض والعمل الشاق بلا أجر وسوء التغذية والتعذيب ما دام سيل البشر المسخر يتدفق على حقولهم ومصانعهم لإثرائهم ثراء عريضاً ، وتقع دماء الشعوب الإفريقية السوداء على رؤوس رجال السياسة فى أوروبا وأمريكا منذ القرن الرابع عشر حينما بدأت على أيديهم تجارة النخاسة

لصالح الرأسمالية الغربية وأصحاب المزارع فى برارى الأمريكتين الواسعة ثم نشطت فيما بعد ابتداء من القرن السابع عشر ، وكان يباع كل خمسة عشر إفريقى نظير حصان وفى القرن السادس عشر نظير عشر دوكات من العملة الفرنسية ، وكان الدوكات من الذهب يساوى سنة ١٨٦٥ مبلغ ٦٥ر١١ فرنكا والدوكات من الفضة ٣٨ر٥ ، وفى القرن السابع عشر نظير ٢٠ أيكو والأيكو الواحد يساوى ثلاثة فرنكات ، وفى القرن الثامن عشر نظير ٣٠ بيستول والبيستول الواحد يساوى عشرة جنيهات والجنيه يساوى ٩٨٪ من الفرنك ، ويوازى هذا ما يأتى :

ثمن الإفريقى الواحد سبعة فرنكات فى القرن السادس عشر وأربعة فرنكات فى القرن السابع عشر و٥ر١٩ فرنك فى القرن الثامن عشر .

ويصف الكتاب والوثائق حالة الأرقاء الأفريقيين الذين يخطفهم تجار النخاسة الأوروبيون فى نقلهم بالسفن إلى مواطن الاسترقاق كما يأتى : كانت المخازن لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أقدام وجزء من القدم ويرتكز السود على حافتها ممتدين وجهاً لوجه على خطين متوازيين وفى صفين من طابقين كل فوق الآخر ، وكان هناك زنوج آخرون فى المساحة الفارغة ممتدين فى وضع رأسى ، وإذا كان الصيد سميناً أضيف إلى سطح السفينة أعداد أخرى مما يزيد حمولة السفينة ، ولا يمكن الوقوف باعتدال فيها ، وكان الذكور يوثقون كل اثنين سويا ويوضعون كالثمار المقطوفة فى أماكنهم المخصصة لهم متراصين فى ضيق شديد كأنهم التين أو العنب ، ولتلافى ما ينجم عن ذلك من انتشار الديدان والطفليليات التى تأكل الجلود كانوا يجبرون على النوم عرايا فوق أرض السفينة بلا مراتب أو حماية إلا أبدانهم وشحمهم وافرازاتهم ، ويترتب على عريهم إصابتهم بجراح ويستمرون فى حك جلودهم حتى إدمائها ونزعها من قمة رؤوسهم

إلى أخمص إقدامهم ويصابون بقروح لا تشفى ، وبفتح المخازن فى الصباح تنتشر أبخرة وروائح ساخنة كريهة تتصاعد من أجسامهم وكأنها الماء المغلى أو السعير المتأجج ويخرج المسئولون الموتى ومن يحتضر من الأرقاء . . ، وكان فى قول أن العدد ينتهى إلى حى واحد من كل خمسة من الموتى مما يدل على قساوة الإنسان وإسرافه فى سبيل مطامعه البشرية فى الأرواح والقوى البشرية، ويروى بعض الكتاب استناداً إلى الوثائق أيضاً أن العمليات العسكرية والتجارية التى كان يباشرها الأوربيون بموافقة حكوماتهم وبالمدفع والبارود فى أفريقيا لترحيل الأرقاء إلى أمريكا كانت تنتهى بتصفية قاسية تتلخص فيما يلى « قد يكون من الصعوبة بمكان أن يحدد بدقة رقم ما فقدته أفريقيا فى تجارة الرق وسبى الإفريقيين نتيجة موت الأهالى من الأسرى فى العمليات العسكرية فى القارة والذين يهلكون فى المعسكرات الملكية والسفن والمعتقلات قبل رحيلهم وبعده والذين يختنقون وينتحرون فى عنابر السفن ويعدمون لكى يكونوا عبرة لغيرهم والذين يغرقون أو يبادون فى هجمات وحملات مباغتة والذين يموتون فى الجزر قبل بيعهم فى المزاد الخ . . . غير أن الوثائق والبيانات وذلك دون التقيد بالتحقيق التاريخى تدل على أن النتيجة هى أن كل عشرة من الأفريقيين المخطوفين أحياء لا يبقى إلا واحد منهم أو إثنان أحياء للعمل فى أمريكا ، وتدل وثيقة على أنه سنة ١٧٩٢ وحدها بلغ مجموع الزنوج الذين تبودلوا نحو ١٠٤٫٠٠٠ رقيق وهم عشر الذين سبوا ، وإذا قدرنا أن الرق استمر خمسة قرون وأنه سبى فى سنة واحدة ما يربو على المليون يمكننا تقدير مدى خسائر أفريقيا فى رجالها وإنتاجها وثروتها » وكانت حركة تجار الرقيق فى دائرة معينة، إفريقيا أوروبا أمريكا عبر ثغر بورد وفى فرنسا تتم كما يأتى : تقايض نفايات من البضائع الأوروبية نظير الأدميين من الإفريقيين ويقايض هؤلاء فى جزائر الأنتيل بالعالم الجديد نظير السكر والبن ثم تباع السلعتان بأسعار مرتفعة من الذهب الرنان ، وتبدأ العملية من جديد فى

شواطىء إفريقيا ، وكانت معاقل الأوروبيين للسبي والتجارة هي عمليات الطليعة في الاستعمار ، وهي تتبع الشركات التجارية البرتغالية والأسبانية والإنكليزية والهولاندية والدنماركية وحتى الفاتيكان كان له بعض المناطق ينشر نفوذه ، وتعددت هذه المخازن وخاصة للبرتغاليين منذ القرن السابع عشر ، وتبع عمليات التجارة وانتزاع الإفريقيين من ديارهم إرسال البعثات الدبلوماسية والاستكشافية إلى بلاط أمراء السود وأراضيهم ومجاهل ودياهم وهضابهم وبراريهم وأدغالهم ، واشتد التنافس بين الأوروبيين في الكونغو وسنجامبي وتعددت معاهدات تبادل المنافع هناك مع أمراء المقاطعات ، واستقرت فرنسا بنفوذها في بقع ثلاث مهمة وهي : سانت لويس وجورى والبريدا وكان يحكمها حاكم عسكرى وقوميسير من قبل فرنسا ، واستقرت إنكلترا في : جامبي وساحل الذهب وسيراليون وجزيرة سانت هيلانة ، ونشطت البرتغال في الشاطىء الغربي لإفريقيا وكذا في شرق إفريقيا السوداء وخاصة جنوب مصب الكونغو وكان أهم مراكز نفوذها لوانجـــو وسانت بول لواندا وسانت فيليب بنج في الشاطىء الغربي ولورنسو ماركيز وسوفولا وكيليمان وموزامبيق في الشاطىء الشرقي ، وتمخر سفن القراصنة البرتغالية البحار إلى أقصى أعاليها وقد أنشأت أقدم قاعدة أوروبية للاستعمار ومخزنا للتجارة في الصين في ما كاو سنة ١٥٥٧ وهذه السفن في طريقها الطويل هذا كانت تلقى مراسيها في الشواطىء الإفريقية ، وكان للهولنديين والدنماركيين بضعة مخازن ومعاقل في شاطىء بينين وغينيا ، ثم وفد سنه ١٦٥١ إلى جنوب إفريقيا زرافات من الهولنديين بقصد الإقامة نهائيا في الكاب ورأس الرجاء الصالح دون اعتزام العودة إلى الوطن الأم ، وأزاحوا الإفريقيين قهراً إلى الشمال وتبعهم الفرنسيون الكالفنيون سنة ١٦٥٩ ، والإنكليز في القرنين السابع والثامن عشر ، ونشأت معارك دامية مريرة لا رحمة فيها بين المستعمرين القساة تجار الأجساد البشرية بما يفرضونه من استرقاق وأهل البلاد

الإفريقيين من البانتو والزولو الذين تقهقروا أمام المحتلين الغاصبين ، واشتدت هزيمة أبناء البلاد الأصليين فى القرن الثامن عشر ، وأصبحت القواعد التجارية الأوروبية على طول سواحل الإفريقى سلسلة طويلة تضيق الخناق على القارة وتفرض على السود النخاسة والاسترقاق ثم الاستعمار التقليدى فالاستعمار الحديث اليوم ، وفى رأينا كما سيتبين فيما بعد أن أساليب الاستعمار الحديثة لا تختلف عن الرق إلا فى الوسيلة ، وهى أفتك أنواع الاتجار بالبشرية إذ هى تفرض خضوعاً ومذلة وسخرة على الشعوب المغلوبة على أمرها بصفة عامة .

سادساً — التميز العنصرى :

التفرقة والتميز العنصرى بين البيض والملونين أو السود أو بين أى جنس آخر جرثومة تفت فى عضد الإنسانية وتنهك كيانها فى كل عصر من العصور وخاصة عصرنا القائم على حقوق الإنسان والمساواة بين البشر فى الكسب والمعاملة وأمام القانون ولا تفرقة بين فرد وآخر بسبب الدين أو اللون أو الجنس كما جاء فى مطلع الدساتير منذ إعلان حقوق الإنسان بالثورة الفرنسية لسنة ١٧٨٩ ثم فى كفاح الشعوب لكسب التصويت العام المباشر والعدالة الاجتماعية وتأسيس النقابات واتحادات العمال منذ ثورات منتصف القرن الماضى ثم فى ميثاق الأمم المتحدة وفى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان أخيراً الذى وافقت عليه الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة ١٩٤٨وفى حقوق الإنسانلميثاق المجلس الأوربى ، ولم تك هذه المشكلات الجسامالتى أقامت هوة من الكراهية بين البشر فى حضارة العرب وطباعهم .

فلم يعرف عن العرب بعكس المستعمرين الأوروبيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من أقطار العالم الجديد والذين استوطنوا جنوب إفريقيا ابتداء من الكاب والذين حكموا الهند وانتشروا على شواطىء

الصين — لم يعرف عنهم احتقارهم وكراهيتهم واضطهادهم لغيرهم من الشعوب بسبب اللون أو الجنس أو الدين ، ولم يستخدموا السياط أو السيوف لإلهاب ظهور المسخرين والأرقاء كما فعل الأوروبيون الذين ذهبوا إلى درجة الفتك والتقتيل بالجملة ، وكان الأوروبيون يستقدمون الإفريقيين فى سلاسل الأسار إلى مزارع أمريكا ويقودونهم عنوة إلى البرارى والحقول والمناجم ، وكانوا يسخرون بعضهم فى مناجم إفريقيا ذاتها التى تستغلها شركات الاحتكار الأوروبية والأمريكيه الواسعة النفوذ والثراء ويجبرونهم على العمل دون أجر ويعرضونهم إلى الأوبئة والأمراض كما حدث فى شق قناة السويس فى منتصف الماضى حيث أجبر العمال وقد استحضروا من الريف المصرى على أعمال السخرة، وكما حدث فى شق قناة بنما وفى تعمير الكاميرون والكونغو وغيرهما ، والناس فى الإسلام سواسية كأسنان المشط ولافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ومشكلة الملونين اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى إفريقيا ليست بالمشكلة الهينة ، وقد بدأ التمسك بالتمييز العنصرى بين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية والتهاون فى حقوقهم والتعصب فى هذه الغاية بعد الانقلاب الصناعى ، فقد جاء الانقلاب الصناعى فى أعقاب مبادىء خلابه للحريات ، ونجم عن انتشار المصانع التى تسير بالفحم والبخار والإكثار من وحدات الإنتاج وهبوط نفقاته تضخم عدد العمال فى المناجم والمصانع وزاد كسب أرباب الأعمال وأصحاب المصانع وحملة أسهم الشركات وتعسفوا بحقوق العمال مما أدى إلى الانفجار وكسبهم حق التصويت المباشر وبلا قيود مالية وتمتعهم بحرية العمل، وبالأجور المجزية وبتأسيس النقابات واتحادات العمال بعد كفاح طويل مرير ، وكان المفروض أن يصحب انتصار هذه المبادىء المساواة بين الألوان والأجناس، ألا أن اتساع الرأسمالية الصناعية وتعطشها إلى الكسب

واشتداد نهمها على حساب الشعوب المستضعفة فيما وراء البحار وظهور الاستعمار الجديد والحصول على المواد الأولية زهيدة القيمة واليد العاملة عن طريق السخرة وفتح الأسواق عنوة لبيع المنتجات محولة ومرتفعة السعر وتوظيف الأموال المكدسة فى خزائن بنوك أوروبا فى القارات الأخرى — كافة هذه العوامل أدت إلى اندلاع نيران التمييز العنصرى بمساوئه وآلامه ولهيبه المدمر ، ولقد استحكمت حلقات هذه الأزمة بنوع خاص بعد الحرب العالمية الثانية فى الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا الجنوبية تبعاً لوفرة عدد الملونين وعزلهم عن المجتمع السياسى الاقتصادى للدولة المكون من البيض فحسب ، وإصرار البيض على تشغيل العمال السود بأجور لا تكاد تسد رمقهم وحرمانهم من المراكز والوظائف والأعمال الرئيسية وإقامة العقبات فى وجه تعليمهم وحصر أبواب الرزق فى نطاق معين بالنسبة لهم وتعارض هذه التصرفات الظالمة مع المبادىء الحرة .

ويمكن شرح الحالة فى إفريقيا وقد سبق أن بينا الرق هناك وفى الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا الجنوبية فيما يلى :

١ — التمييز العنصرى بوجه عام فى إفريقيا كقارة : تاريخ هذه المشكلة فى القارة الإفريقية طويل حافل بالآلام والآثام يختلط بحياة القارة وتطورها وقد جرد المستعمرون القارة من بنيها السود الذين انتزعوهم عنوة من ديارهم وساقوهم كالأنعام إلى حقول العالم الجديد ، وبلغ عدد من وصل أمريكا من الأحياء فى بعض الزعم حتى انتهاء الرق فى أواخر القرن الماضى ومدى قرن من الزمان ما يزيد على ثلاثة ملايين نسمة ، ولا يحسب ضمنهم الذين لاقوا حتفهم نتيجة التعذيب والأمراض ، وبلغ نزف القارة من أبنائها السود فى بعض القول مدى خمسة قرون نحو خمسمائة مليون نسمة ، مما أدى إلى إصابة القارة بفقر فى الأيدى العاملة والإنتاج وإلى انهيار العديد من الإمارات الإفريقية ، ثم

بدأت مأساة السود فى منتصف القرن الماضى تبعاً لسوء حالهم وضحالة كسبهم وشدة فاقتهم مع انتشار المرض والجهل بينهم، واشتداد الإساءة اليهم تثير عطفا بين فريق من الأحرار البيض ،ووضحت آلامهم فى قالب روائى استدر عطف ملايين القراء فى قصة « كوخ العم توم » التى دبجتها الروائية هاربيت بيشر ستوى تظهر فيها كيف يموت الأرقاء من سياط السادة وتعذيبهم مما أثار الاضطراب فى نفوس الآثمين من كبار المزارعين البيض فى جنوب الولايات المتحده الأمريكية ، وانتشر الاضطهاد العنصرى فى القارة المفعمة بالمستعمرات وبشركات الاحتكار والاستغلال تحرسها حراب المحتلين ، ووضح فى شمال افريقيا فى منطقة النفوذ الفرنسى وخاصة فى الجزائر بحرمان الوطنيين من الوظائف الحكومية وأعمال الإدراة فيما عدا الأعمال الثانوية وما تدفعه حكومات الاحتلال من مرتبات ضئيلة ، ومحاربة اللغة العربية والإسلام وقومية العرب واقطاع المحتلين وعملائهم وصنائعهم أخصب الأرض وأكثرها انتاجاً ، وكذلك التفرقة فى المعاملة بقوانين ماوراء البحار بين المستوطنين الأوروبين وأهل البلاد ، ووضح الاضطهاد العنصرى بين السود فى سائر المستعمرات على اختلاف ألوان الحكام فى تشغيل العمال السود فى المناجم والمصانع والمزارع والغابات بما يعادل عشر أجر العامل الأوروبى وبحرمانهم من نور العلم ومن سائل العلاج والعناية الصحية وبانتزاع أخصب الأراضى لإقطاعها الأوروبيين المستوطنين وبمنعهم إما بحكم القانون أو بناء على الأمر الواقع والتصرف العلمى من ارتياد مدن البيض ومساكنهم ومتاجرهم ومقاهيهم وأماكنهم العامة ووسائل المواصلات والجامعات الخاصة بهم ، وبوضع تشريعات خاصة بالسود فحسب تصب جام غضب المستعمر عليهم وتقيدهم فى أصفاد التأخر وتحرمهم الحقوق السياسية وأهم الحقوق المدنية .

٢ — التميز العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية : إن التمييز العنصرى فى الولايات المتحدة الأمريكية يوضح فى صورة بارزة اضطهاد الرجل الأبيض للأسود ، ويبث سمومه فيما وراء هذه البلاد ويطبق بأذرعة الأخطبوط على إفريقيا ، وإدراك المشكلة يتطلب تفهمها فى الجمهورية الكبرى للعالم الجديد ، ولقد تحول الكفاح الإنسانى من فكرة إلغاء الرق إلى فكرة إلغاء الفوارق بين الأجناس والألوان ثم صار ميدانه الهام الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت ولايات الجنوب تزرع القطن والحبوب والتبغ والأرز والكتان فى مساحات واسعة ومن مصلحة أصحاب المزارع أن يعمل السود فيها عبيداً بالسخرة وأن يظل الرق لتظل اليد العاملة متوفرة وزهيدة السعر وفى متناول أوامر السيد ، وكانت ولايات الشمال حيث ألغى الرق صناعية تنتشر فيها مصانع الغزل والنسيج نقلا عن إنكلترا وهى فى حاجة إلى الأيدى العاملة تبعاً لانتشار الآلات وتنشد تحرير السود ليعملوا فى المصانع ، كما أن مزارع الشمال تعتمد على الآلات فى الحصاد وإعداد المحاصيل ولا يهمها أن تظل السخرة فى الزراعة ، وكانت قد انتشرت الصناعات الميكانيكية والبخارية وراجت التجارة الخارجية ، ومصانع أوروبا فى حاجة مستمرة إلى القطن وغيره من المحاصيل الزراعية مما شجع ولايات الجنوب على التمسك بالرق لزيادة إنتاجها فى المحاصيل الزراعية وزيادة مبيعاتها منها للقارة الأوروبية وخاصة انكلترا ، وهكذا اصطدمت مصالح ولايات الشمال بالجنوب واندلعت حرب الانفصال الأمريكية من ١٢ إبريل سنة ١٨٦١ إلى ٩ إبريل سنة ١٨٦٥ ، وانتهت بتسليم قائد قوات الجنوب الجنرال « لى » للشمال المنتصر فى امبروماتوكس من أعمال فرجينيا وعودة الولايات المنشقة إلى الاتحاد بعـــد قتال مرير فقدت فيه الجمهورية الكبرى أكثر من ٦٠٠٫٠٠٠ قتيل .

وكانت حياة الأرقاء قاسية كما قدمنا ، وكانت أسواق النخاسة بعد بدء

العملية من الشوطىء الإفريقية فى أرض العالم الجديد علنية ، وللمشترى أن يجس ويختبر الرقيق المعروض للبيع كأنه من السائمة مما كان يثير النفوس ويؤلمها لا سيما الفتيات السوداوات ، وكان المشترى يفرض على الرقيق وقد عرضت السلعة أن يسير أمامه وأن يرقص ويركض ، وإذا اكتشفت فى بدنه علامة من الضرب مثلا فإن قيمته تهبط حتى إذا لم يترتب على ضربه إصابته بعاهة أو ما فى حكمها ، وكانت قواعد معاملة السود وتحديد حقوقهم حتى فى أحسن الولايات معاملة لهم وهى ولاية جورجيا تهدر إنسانيتهم ، فكان ينص من حيث المبدأ على أن من يفقد الأسود عضواً أو حياته يعاقب كما لو أنه أصاب حراً إلا إذا كان الرقيق قد شق عصا الطاعة ، غير أنه لم يك من حق الأسود أن يشهد ضد الأبيض ، وكان يترتب على ذلك أن السيد لا يقدم للمحاكمة ويحكم عليه لصعوبة الأدلة ، وكثيراً ما كان يكوى السيد الملون بالنار لكى يحدث فى جسده علامة مميزة ، وكثيراً ما كان يباع أفراد الأسرة الواحدة إلى مشترين متعددين مما يشتتهم ويزيد فى آلامهم ، ونشطت تجارة السود فى الولايات المتحدة الأمريكية قبيل حرب الانفصال رغم تحريمها بالإتفاقات والمعاهدات فى انكلترا والجمهورية الكبرى للعالم الجديد منذ مطلع القرن الماضى ، ورغم قرار المحكمة العليا سنة ١٨٠٦ ثم سنة ١٨٠٨ بتأييد حرية السود ، وقرارات الحكومة فى هذا الشأن فى مناسبات عدة ، وبلغ عدد من بيع وأدخل خلسة من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٦٠ هناك ما يزيد فى بعض الزعم على ٧٠٫٠٠٠ من الأرقاء كل عام ، كما كان يدخل الشمال فى نفس هذه الفترة سنوياً من بيض أوروبا نحو ٣٣٥٫٠٠٠ نسمة ، مما يزيد فى قوة الشمال والتمسك بتحرير العبيد ، وصار الشمال مجتمعاً قائماً على الحريات والمنافسة وتكافؤ الفرص والكفاح فى سبيل الثراء ، وبقى الجنوب مجتمعاً قائماً على الطبقات وتفاوت المراكز والرق وركود الحياة الاقتصادية على أساس مد المصانع بحاجاتها من

غرس أيدى الأرقاء فحسب ، وارتفع ثمن الرقيق من ١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار في مطلع القرن الثامن عشر إلى ما بين ١٢٠٠ إلى ١٨٠٠ دولار للزنجى القوى أو الزنجية المتينة البناء ، وذلك تبعاً لانتشار زراعة القطن ولم تحل معاهدات منع الاتجار بالرقيق الاسود وقرارات الحكومات بذلك كالدنمارك سنة ١٨٠٣ وانكلترا سنة ١٨٠٧ وفرنسا سنة ١٨١٥ دون استمرار القيام بهذه العمليات الوحشية بوسائل غير مشروعة .

وبرز شبح الحرب باصطدام الجبهتين المتعارضتين بنجاح لنكولن فى رئاسة الجمهورية الكبرى عن الحزب الجمهورى وهو خصم عنيد للعبودية والاسترقاق ، وقد صارت عباراته مثلا من النهوض بالإنسانية والمساواة بين البشر ، ومما يؤثر عنه قوله فى حملته الانتخابية لمقعد الشيوخ فى الالينواز فى ١٧ يونية سنة ١٨٥٨ « أن بيتنا منقسم على نفسه ولا يمكنه أن يستمر فى العيش على هذا النحو ، وأنى أعتقد أن الحكومة لا يمكنها أن تستمر على ما هى عليه نصف مؤيدة للرق ونصف مؤيدة للحرية ، فعليها أن تختار ناحية أو أخرى، وقوله أيضاً « إن من يرفض الحرية للإنسان ليس بأهل للتمتع بالحرية ، وإنى أعتقد أن كلمة إنسان حسب إعلان الإستقلال تشمل أيضاً الإنسان الأسود » ، وانتهى المطاف بفوز الشمال كما سبق أن ذكرناو بتحرير الرقيق الأسود ، وإنهاء سخرته وربطه بأرض سيده دون خيار له فى العمل ، وبدء حياته كإنسان حر فى الكسب والتنقل حيث يشاء له الكد ، ومباشرة بعض حقوقه المدنية والسياسية بحكم الدستور الاتحادى وما أدخل عليه من تعديل واستيلاء أصحاب الدعوة إلى تحرير العبيد على مقاليد الحكم فى الولايات المتحدة الأمريكية ورد الأمور إلى نصابها .

غير أن الأمور لم تلبث أن تعقدت وقامت صعوبات جسام مصدرها استغلال الإنسان للانسان عند تنفيذ المساواة بين البيض والسود فى أمريكا

وإفريقيا ، واستمر البيض فى الولايات المتحدة الأمريكية يسيئون إلى السود بالتمييز العنصرى ويحولون دون مباشرة حقوقهم السياسية ويحرمونهم من الوظائف الهامة ويمنعونهم من السكنى فى أحياء معينة أو ارتياد بعض المطاعم والفنادق والأندية والانتقال بجوارهم فى الترام والسيارات والعربات وخاصة فى مقاطعات جنوب الولايات المتحدة الأمريكية كالويزيانا حيث يشتدالتعصب للجنس الابيض .

والبيض هناك غالبية ويبلغ مجموع السكان فى إحصاء سنة ١٩٥٦ نحو ١٦٥ر٢٤٨ر٠٠٠ نسمة ، ومجموع الملونين ١٨ر٣٠٠ر٠٠٠ نسمة ، السود من سائر الملونين نحو ٩٦ ٪ وارتفع عدد السكان فى الإحصاءات الأخيرة إلى ما يربو على ١٩٠ مليون نسمة حسب الإحصاءات الأخيرة ونسبة الملونين إلى ٢١ نسمة ، والمسلمين نحو مائة ألف نسمة ، وكان يقطن فى جنوب الجمهورية الكبرى نحو ٩٢ ٪ من السود منذ نحو نصف قرن ، ثم انتشروا بعد ذلك فى طول البلاد وعرضها ، وأصبح اليوم يقطن فى الجنوب منهم نحو ٦٠ ٪ فقط ، ووصل عدد من حرر منهم عقب انتصار الشمال على الجنوب وصدور التعديل الثالث عشر للدستور الاتحادى الأمريكى بمنح السود حرياتهم نحو خمسة ملايين سنة ١٧٧٠ ، غير أن هذه الحريات كانت اسمية وملتوية ولم تطبق إلا بقدر مما حدا إلى صدور قوانين يونية سنة ١٩٦٤ بهدم آخر الحواجز بين طبقتى المجتمع من البيض والسود مع اندماجهما فى الجامعات والمدارس والمحال العامة والمنتديات والفنادق والوظائف وسائر الخدمات العامة والخاصة والسكنى وغيرها،وألا يستمر اضطهاد السود وحرمانهم من مباشرة الحقوق المدنية وإقامة العقبات فى وجه توليهم تمثيل الشعب وسائر المراكز والمناصب الهامة .

وقد كافح السود طويلا ضد الجمعيات السرية التى نشطت بعد انتهاء حرب الانفصال الأمريكية للبطش بلا ذنب بالسود عقب قتل الرئيس لنكولن بيد

بوث أحد المتعصبين للتفرقة العنصرية فى ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥ ،وكان على رأس هذه الجمعيات الإرهابية جمعية كوكلوكس كلان التى كانت تهدد وتنذر وتتوعد السود وتفتك بهم ، واتسعت دائرة نشاطها فكانت تصب جام غضبها وانتقامها بالشنق والحرق ضد السود كما لم ترحم الكاثوليك من الاضطهاد والفتك وكذلك سائر الأقليات بحجة تطهير المجتمع من العناصر الغريبة وسيادة العنصر البروتستانتى الأبيض البوريتانى الذى بنى الجمهورية ، ولجأت أخيراً إلى معاذير واهية بعد اشتداد حركة المساواة بين البيض والملونين وهى صيانة المجتمع الأمريكى من الشيوعية والعناصر الهدامة ، واتخذت وسائل غير مشروعه ضد البشرة السمراء ، فمن توجيه خطابات التهديد ضد الساسة والمسئولين البيض الذين يؤيدون سياسة المساواة بين الناس بلا تمييز عنصرى إلى الفتك بالسود الذين يطالبون بحقوقهم ويحاولون أن يرفعوا هاماتهم محافظة على كرامتهم كبشر وإلى إزهاق الأرواح بالتقتيل وتمزيق من يقع عليه الاختيار إرباً إرباً وحرق الديار وإتلاف الأموال بحجة اتصال الأسود بفتاة بيضاء ، كما كانت العقوبات الوحشية تطبق على الرجال والنساء بلا تمييز من الضرب بالسياط والتشويه وألوان التعذيب إلى القتل والحرق ، وكانت الجمعية لا تتردد فى توقيع العقوبة على البيضاء التى تتصل بأسود ، ووصلت عدد الحوادث فى مقاطعة تكساس سنة ١٩٢٣ نحو ٥٠٠ ، وفى مقاطعة أكلاهوما نحو ٢٣٠٠ ، ثم أخذت الجمعيات تفقد أهميتها بعد صدور قوانين تحديد الهجرة سنة ١٩٢٤ وابتعاد الخطر الأجنبى عن البلاد ، وزاد فى ضعف نشاطها خروج الولايات المتحدة الأمريكية من سياسة العزلة وضرورة تمشيها مع الروح العالمية للمساواة بين الأجناس والألوان لكسب الشعوب والرأى العام لصفها والظهور بمظهر حامية الحقوق والحريات ، كما أن مقاتلة السود جنباً إلى جنب مع البيض فى الميدان الغربى فى الحرب العالمية الأولى ضد إمبراطوريات الوسط ، وما رأوه فى فرنسا من احترام حقوق الإنسان وأنه ليس ثمة مشكلات

عنصرية فى أرض الجمهورية الثالثة ، ثم حربهم المريرة إلى جنب قوات البيض مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية فى شتى الميادين ضد الفاشية والنازية وعنصرية إمبراطوريات المحور وما سمعوه من وعود الديموقراطية بتحقيق المساواة بين الأجناس ، وما جاء فى المواثيق والتصريحات الدولية المتعددة فتح عيونهم وفتق أذهانهم إلى ضرورة الكفاح للقضاء على التفرقة العنصرية فى موطنهم الذى لا يعرفون سواه وهو الولايات المتحدة الأمريكية ووديان المسيسبى وسهوله ، ومجرى النهر الضخم بمياهه الزاخرة التى تسير متدفقة فى وقار وهم يكدحون فى حوضه لإثراء السادة البيض ويختلسون دقائق ينشدون خلالها أناشيدهم المعروفة بلغة الانجلوسكسون وبنغمات إفريقية من بقايا ما ورثوه يعبرون بها عن آلامهم وأحزانهم ، فقد انفصلوا عن القارة الإفريقية منذ أجيال ، ويجهلون لغاتهم الأصلية ولا يعرفون من أى بلد قدموا .

٣ — التمييز العنصرى فى اتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا : اتخذت التفرقة العنصرية وضعاً شائكاً وخاصة فى اتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا الجنوبية ، والسود هناك أهل البلاد وهم الغالبية ، والبيض أقلية يكونون مجتمعاً متعالياً يحتقر السود ويعزلهم فى أماكن محددة ويسىء معاملتهم وينتهك حرمة ديارهم وينهب أموالهم ويحول بينهم وبين نسمات الحرية العزيزة على الإنسان ويحول بينهم وبين حقوقهم السياسية والمدنية كبشر ، ويبلغ عدد البيض فى اتحاد جنوب إفريقيا نحو ثلاثة ملايين نسمة بينما يبلغ عدد السود أكثر من عشرة ملايين ، وتحاول الأقلية أن تتجاهل كيان الأغلبية وحقوقها فى حين أنها فى مسيس الحاجة إليها اقتصادياً واجتماعياً ، وتتعقد المشكلة بوجود أكثر من مليون ملون إلى جانب السود ونصف مليون من الهنود وقد عاش بينهم الزعيم غاندى فترة من شبابه ، ويكون البيض مجموعتين إحداهما من أصل هولاندى وفرنسى وسكانديناف

وينتمون إلى المذهب المسيحى الكالفينى ، وهم شديدو التمسك بالدين فى بساطته ونقائه بعد إصلاحه وجلهم يشتغلون بالزراعة وتبلغ نسبتهم إلى سائر البيض أكثر من ٦٠٪ ويسمون الإفركاندر ، والمجموعة الأخرى من أصل إنكليزى ويقطنون المدن ويسيطرون على الأعمال والصناعات والتعدين والبنوك، والمجموعتان فى مستوى معيشة مرتفع ، ويباشر البيض خوفاً من مطالبة السود بحقوقهم واكتساحهم للأقلية سياسة تمييز عنصرى تام ويعتبرونهم أجانب وأقل منهم مرتبة ويفرضون عليهم السكنى فى مناطق معينة ويمنعونهم من الخروج منها ، كما يمنحونهم أرضاً محددة وأقل مساحة وجودة مما يملكونه من أراض واسعة خصبة ، ليباشروا العيش والرزق والزراعة فيها ، وإذا اتجهوا نحو المدن فعليهم أن يقنعوا بأقل الأجور وأحط الأعمال ومحرم عليهم أن يختلطوا بالبيض ، ولهم أحياؤهم ووسائل نقلهم ومدارسهم الضئيلة العدد المحدودة التعليم ولهم وسائل لهوهم ويخضعون لإذلال شديد بتصريح المرور الذى يجب أن يبرزوه لرجل الأمن فى مرورهم وكلما طلب إليهم ذلك مرفقاً بشهادة استخدام ، وتبلغ نسبة من يعرف القراءة والكتابة منهم نحو الثلث غير أنهم محرومون من التعليم العالى ، وليس عند السود من الأطباء إلا خمسين ومن رجال القانون إلا عشرة من بنى جلدتهم ، غير أنه بدأت تتكون نواة بورجوازية سوداء هى مجموعة المتعلمين ورجال الأعمال ، وهم غير البانتو الذين يسكنون المناطق المنعزلة أو العمال ، وهذه البورجوازية السوداء تسعى نحو التحرر السياسى والاجتماعى وهى تكون أحزاباً قوية كحزب المؤتمر القومى الإفريقى منذ سنة ١٩١٢ الذى يدعو إلى تحقيق مطالب السود السياسية عن غير طريق العنف ، وحزب اتحاد إفريقيا الذى بدأ نشاطه منذ سنة ١٩٥٨ .

وبدأ الكفاح فى سبيل تحرير السود سنة ١٩٦٠ ، وكان احتجاجهم بحرق تصريحات المرور بالجملة كعلامة على تحطيم صنم الاستعمار ، وانقسم البيض فيما

يختص بهذه القضية وإجابة مطالب السود ، واشتد عناد الحكومة العنصرية إلى حد خروجها من الكومنولث سنة ١٩٦١ لعدم موافقة حكومة لندن وبقية دول الكومنولث على سياسة التفرقة العنصرية وخاصة استياء الهند والباكستان ولها جالية هامة فى هذه البلاد ، ورأت الجالية الإنكليزية المتحررة فى الاتحاد الاستجابة إلى مطالب السود تدريجياً بإعطائهم الحق فى حكومة ذاتية أو إدارة محلية أو استقلالا عن البيض ، غير أن الغالبية من البيض وهم يسيطرون على الحكومة يعتبرون إفريقيا وطنهم ولا يفكرون فى تركها وخاصة أنهم هبطوا إليها منذ مطلع الاستكشاف الجغرافى ، وانفصلوا عن الوطن الأم ويؤيدهم العديد من البيض من الطبقات الصغيرة الذين يخشون منافسة السود لهم فى الميدان الإقتصادى ولا تهمهم الأجور بقدر ما تهمهم مباشرة بعض المهن والأعمال الصغيرة .

وتباشر الحكومة سياسة قمع كاملة حيال مطالب السود وتضرب بقسوة على أيدى القائمين بالحركات القومية هناك ، وتطبق سياسة التفرقة وإنكار ذاتية السود بفرض عدم الاختلاط بأى حال من الأحوال بين الجهتين وسيرهما كل بمعزل عن الآخر ، وترى لإنهاء المشكلة اتباع قاعدة تعتقد أنها المثلى فى الإبقاء على سيادة العنصر الأبيض هناك وهى أن الجماعتين يجب أن يتطورا بطريقتين مختلفتين تمام الاختلاف . بلا اختلاط أو امتزاج سياسى وأن يظل السود فى منطقتهم المحددة الفقيرة بأراضيهم وصناعاتهم ومدارسهم وبرلمانهم ، ويحاط بمنطقة البانتو حزام من الصناعات للبيض تشغل اليد العاملة للسود الزائدة عن الحاجة ، ويهدف هذا النظام إلى إنشاء صلات تعاهدية بين المجموعتين ، غير أن هذه الخطة يصعب تحقيقها نظراً لكراهية المجموعتين لتبادل المعونة بينهما على أسس عادلة ، ويبلغ عدد الذين يعملون من السود فى حقولهم نحو مليون والذين يعملون فى المدن أربعة ملايين عامل ، وتحاول الحكومة لمنع

اضطرام نار الثورة هناك أن تطبق الخطوات الأولى للبرامج ، غير أنها تصر على ألا يمثل السود فى المجالس النيابية للبيض وفى مجالس المدن وغيرها ، وألا يتولوا أى عمـــل سياسى أو إدارى هام وأن يظلوا يرزحون تحت ثقل التمييز العنصرى الذى يبرز فى صورة مزرية فى المدن والأحياء والمحال العامة والمقاهى ووسائل النقل وغيرها . وتتلقى حكومة الاتحاد الصفعات من الأمم المتحدة والشعوب الآسيوية الإفريقية ومنظمة الوحدة الإفريقية بقراراتها الحاسمة التى تدعو إلى ضرورة الاسراع فى إنهاء الاضطهاد العنصرى وتوقع عليها المقاطعة الدبلوماسية والاقتصادية ويضيق عليها الخناق وهى فى شبه حصار وفى موقف عدائى من الإنسانية الحرة ، وستضطر راضخة إلى التسليم بحقوق أهل البلاد وغالبية السكان وخاصة أن رجحان عدد السود على البيض فى المدن الكبرى يزداد يوما بعد يوم فنسبة البيض اليوم إلى السود لا تزيد على ٢٩ ٪ حسب تعداد سنة ١٩٥١ بينما أن الأرض المتروكة للسود وهى ضعيفة الخصوبة لا تزيد على ١٢٪ من مجموع مساحة الاتحاد ، وتبعا لاشتداد الضغط عليها واكتظاظها بالسكان يشتغل من السود ما يزيد على ٣½ مليون فى أراضى البيض علاوة على عمال المناجم السود مما يزج بهم فى جحيم الحياة الاقتصادية التى لا تعطى هؤلاء إلا الكفاف وهم أصحاب البـــلاد بينما دولة البيض دولة دخلاء مغتصبين .

ومن أمثلة التعصب الأعمى والظلم الصارخ فى اتحاد جنوب إفريقيا أن مدينة جوهانسبورج تعتبر أرضاً مخصصة للبيض فحسب وعلى هذا لا يكتب على المحال العامة للبيض فقط إذ لا ضرورة لهذا ويحرم على السود ارتياد المطاعم ودور السينما والمقاهى على اختلافها ولا يسمح للسود الذين يعملون فى المدينة إلا بالمرور أو الجلوس على أفاريز الشوارع ، وتنتشر المقاعد العامة فى أركان الشوارع غير أنه مكتوب عليها أنها للبيض فقط ، وإذا جرؤ الأسود على الجلوس فوق مقعد

منها تعرض لعقوبة صارمة تنصب على جزائين من الثلاثة الآتية : السجن ثلاث سنوات والغرامة وقدرها ثلاثمائة جنيه وعشر جلدات ، ويشاهد ضمن المناظر العادية فى شوارع جوهانسبورج وغيرها انقضاض البوليس للتفتيش فجأة على جماعات السود فى أوقات خروجهم من المصانع أو التفافهم حول لعبة من الألعاب كالنرد وغيره ، ومطالبتهم بإبراز بطاقاتهم المسماة هناك بجوازات المرور ، ويجرى هذا التفتيش فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل وكأن جماعات السود من المجرمين ورجال العصابات ، ويطالبون بالمبادرة بإبراز تلك البطاقات بمجرد طلب البوليس ذلك على وتيرة المهربين أو الهاربين من العدالة فى عبورهم الحدود وإذا تصادف ونسى الأسود هذا الجواز فالبوليس يبادر بالقبض عليه وتوقيع الجزاء عليه وكذلك إذا وجده فى مكان ما لا يؤدى فيه عملا ولا يتقاضى فيه أجراء، ويقع الجواز فى تسعين صفحة تمثل الحياة التعسة لحامله وليس بطاقة شخصية أو عائلية له ، بل هو صحيفة سوابق على غرار صحيفة المجرمين، وتذكر فيه القبيلة التى ينتمى إليها صاحب الجواز والجهة التى قدم منها والمعزل والمكان المسموح له بالعيش فيه واسم رب العمل الذى يشتغل لحسابه وأجره وما يدفعـــه من ضرائب وما سدده منها وأجر مسكنه وما ارتكبه من مخالفات وما إليها ومدى نشاطه السياسى ، وأن تعصب الحكومة البيضاء الأعمى تؤدى بها إلى وصم كل أسود بجرم مافى هذا الجواز ، ويتعين على كل أسود فى الاتحاد حمل هذا الجواز ذكرا كان أو أنثى إذا جاوز سنه ستة عشر عاما كما يتعين عليه إبرازه بمجرد طلب أى بوليس إطلاعه عليه ، ومما يبرز المبالغة فى التحقير إلى حد اشمئزاز الإنسانية فى عصرنا الحالى من هذا التصرف ما هو مكتوب على أبواب مكاتب البريد من ملاحظات خاصة بمرور البيض من أبواب معينة والأسود من أخرى وحجز صناديق للأول وأخرى للثانى ، ويتبع مثل هذا فى ركوب سيارات النقل وسيارات الأجرة « التاكسى » ، والسكك الحديدية

وولوج المحطات الخ . . . ، ويترتب على هذا العزل ازدحام مركبات وقطارات السود لإحضارهم إلى أماكن أعمالهم وعودتهم إلى مساكنهم خارج المـدن الكبرى ويمضى العامل الأسود ست ساعات يوميا للذهاب والإياب إلى عمله وإلى منزله ليقطع نحو عشرين ميلا فى هذه المرحلة ، ولا يسمح بالأجير أن يقيم عند الأبيض أو بالقرب من عمله بل على مسافة بعيدة منه خارج المدينة ، كما لا يسمح له فى المـكان المخصص له أن يأوى أسرته بل عليه أن يبقيها فى مكان العزل بعيداً ، ويمكن للأبيض أن يسمح لخادم أسود واحـد أن يقيم بجوار مسكنه أما بقية الخدم فعليهم أن يقيموا بعيداً فى المـكان المخصص للسود ، ولا شك فى أن هذه المضايقات ووسائل التعصب الأعمى تضر ضرراً بالغا بانتاج اليد العاملة وباقتصاد البلاد فضلا عن إهدارها للحريات .

وتتبع روديسيا الجنوبية سياسة مماثلة لسياسة اتحاد جنوب إفريقيا،والجالية البيضاء هناك أقلية ضئيلة وهى الحاكمة والقابضة على ناصية السياسة والاقتصاد ، وحاولت شعوب الـكومنولث أن تثنى البيض عن عزمهم فى المضى فى ضلالهم وغيهم على غير جدوى ، وقد عاق هذا الوضع إعلان إنجلترا انتهاء مركز البـلاد كمستعمرة واستقلالها ، وتعهدت المملـكة المتحدة لمؤتمر الـكومنولث الذى عقد فى لندن فى صيف سنة ١٩٦٤ بضرورة تسليم مقاليد الأمور لأرباب البـلاد وهم الغالبية السود ، وعدد سكان روديسيا الجنوبية نحو أربعة ملايين نسمة بينما عدد البيض نحو ربع مليون فقط والغالبية الساحقة من السكان الإفريقيين فيما عدا ٧٠٠ر٧ أسيويين و٥٠٠ر١١ من السمر غير الإفريقيين ، ويسيطر البيض على المجلس النيابى ، ويتولون الوزارة وإدارات الحـكومة ، وسبق أن زحف البيض إلى هذه المستعمرة التى تقع فى شمال اتحاد جنوب إفريقيا ووصلوا إلى العاصمة فيما بعد ، وهى ساليسبورى من مستعمرة الـكاب منذ سنة ١٨٩٠ عبر بوشوانالاند ليرفعوا العلم البريطانى على المنطقة ، وتـكونت هناك حكومة بحكم

الأمر الواقع تدير شؤون البلاد وتضع قوانينها فى إطار الاستعمار البريطانى ، وزحف عليها المهاجرون من البيض زرافات واستوطنوا المستعمرة الغنيـــة بمزارعها ومناجمها ، واحتفظت بريطانيا كصاحبة الـكلمة النهائية هناك بحقها فى التدخل فى التشريع الذى قد يمس الحقوق الأساسية الإفريقية ، وذلك محافظة على الهدوء فى المستعمرة حتى لا تثور ثائرة السود الذين يلاقون أشـد ألوان الاضطهاد العنصرى ، وقامت حركة من السود اشتدت سنة١٩٥٧ للمطالبة بإنهاء احتكار البيض للسلطة هناك ، وطاردت حكومة البيض الحركة ولـكنها لم تزد نارها إلا اشتعالا واشتدت مع الأيام .

وذراً للرماد فى العيون تظاهرت حكومة المستعمرة بأنها تتبع وسائل حرة مع السود عملا بنصح حكومة لندن صاحبة السيادة على البلاد فزادت عدد مقاعدهم فى المجلس النيابى على أساس زيادة عدد المقاعد بصفة عامة ولـكنها حالت دون الاستماع إلى أصواتهم فى الحـكم والإدارة ببقائهم أقلية ضئيلة ، وأثير الأمر فى الأمم المتحدة وفى منظمة الوحدة الإفريقية سنة ١٩٦٣ وما بعدها ، واستمرت حكومة الأقلية البيض تزيد الضغط على السود بدعوى المحافظة على الأمن فى المستعمرة علاوة على حرمانهم من أخصب الأراضى ومن الأعمال الهامة والجازية وقصرت عيشهم فى نطاق حديدى ضيق يعزلهم عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحقة ، ولا شك أن هذا الوضع يؤدى بهم إلى الانفجار مما يهدد الأمن الدولى إذ يشعل النيران فى إفريقيا السوداء والعربية ويثير الرأى العـام العالمى والأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية ، وينعم البيض فى المستعمرة بمساحة تبلغ ١٨٥٫٠٠٠ كيلو متراً مربعاً من الأراضى الخصبة ولا يحكم الإفريقيون السود أصحاب البلاد وهم الأغلبية الساحقة إلا على نحو ١١٥٫٠٠٠ كيلو متراً من الأراضى الرديئة وتحرم حكومة البيض على السود ارتياد المحال العامة ووسائل النقل وأحياء السكنى الجيدة المخصصة للبيض وتحدد لهم مناطق فى المدينة وخارجها

ويرد السود على سوء المعاملة بالإضراب فى مناجم الفحم والنحاس وبعدم التعاون والمظاهرات والاحتجاجات فى شتى صورها .

وتمادت حكومة الأقلية حتى يظل البيض قابضين على ناصية الحياة السياسية والاقتصادية ويسخروا موارد البلاد والأيدى العاملة من الملونين الذين يعيشون على الكفاف لصالحهم ولثرائهم العريض فأصرت سنة ١٩٦٥ على إعلان استقلال البلاد من طرف واحد ، وتعهدت بريطانيا لأعضاء الكومنولث بحل المشكلة على أساس تسليم مقاليد الأمور إلى أهل روديسيا الإفريقيين واشتراكهم فى الحكم بما يتناسب مع عدد السكان وألا يستجاب إلى طلب الاستقلال إلا بشرط تعديل الدستور على أساس هذا التعهد ، ولكن لم تعر حكومة البيض اعتباراً لمطالب الكومنولث ولتعهد الدولة صاحبة السيادة ، وأعلنت استقلال البلاد فى نوفمبر سنة ١٩٦٥ ، وبهذا اعتبرت الحكومة الروديسية حكومة عصيان وغير شرعية إذ يتعين تعديل الدستور وإشراك الغالبية فى الحكم بما يتناسب وعدد السكان وألا تنتهى رابطتها مع المملكة المتحدة كمستعمرة إلا باتفاق الدولة صاحبة السيادة وبناء الأسس الجديدة برضا الطرفين الحقيقيين ، ولا شك أن عمل ربع مليون نسمة يستندون إلى قوة الحراب دون قبول مايقارب من أربعة ملايين هم أصحاب البلاد الأصليين ، أمر يهدد السلام والأمن العالمى ولا يتفق والمواثيق الدولية وحقوق الإنسان ، وكان يتعين على حكومة الأقلية البيضاء إذا أرادت أن تعمل فى نطاق المشروع اتباع ما يأتى : —

(ا) الاتفاق مع إنكلترا صاحبة السيادة على البلاد على تنقيح وضع المستعمرة وتعديل نظام الحكومة وإقامة حكم يتفق مع رغبات الأغلبية والتطور العالمى .

(ب) التفاهم مع الوطن الأم فى إصدار دستور يمنح حق التصويت للمواطنين

جميعاً بلاتمييز ، وهذا ما يطالب به الزعماء الإفريقيين باسم أصحاب البلاد .

(جـ) تنفيذ الدستور المشار إليه فوراً وتعديل الحكومة القائمة من البيض العنصريين المستبدين وتسليم مقاليد الأمور إلى أصحاب البلاد الشرعيين قبل إعلان الاستقلال .

(د) إنهاء التمييز العنصرى وقوانين إهدار حقوق الملونين وفتح أبواب العمل والكسب للجميع بلا تمييز ومساعدتهم فى رفع المستوى المعنوى والمادى للشعب .

(هـ) تصفية بقايا الاضطراب والقلق فى البلاد بسبب مشكلة الملونين وإقامة حكومة عادلة حازمة حتى تستقر الأمور .

وثار سخط العالم المتمدين على أعمال حكومة إيان سميث فى دولة روديسيا الجنوبية الجديدة غير المشروعة ، ولم تفد رسالة الملكة إليه شيئاً وكذا نصح رئيس الحكومة البريطانية واجتماعات الساسة المتكررة وسفرهم إلى روديسيا ليقنعوا سميث بالعدول عن عمله هذا ، مما اضطر حكومة العمال إلى الالتجاء إلى البرلمان للحصول على تأييد تام بقانون وافق عليه مجلسا العموم واللوردات فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٥ بالإجماع بمنح الحكومة السلطات الكاملة لفرض العقوبات الاقتصادية على الحكومة غير الشرعية التى شقت عصا الطاعة على الوطن الأم وسارت فى طريق إجرامى يتنافى مع حقوق الإنسان ، غير أن حكومة الملكة استبعدت حتى لا تتورط فى النفقات وإسالة الدماء القيام بأعمال حربية عنيفة أو إرسال حملات عسكرية تأديبية لوضع الأمور فى نصابها مما لم يرق لبعض أعضاء الكومنولث ، غير أن اختلاف وجهات النظر لم يؤد إلى تصدع هذا النظام التعاهدى الدولى بذاتيته الخاصة .

وتمادت حكومة سميث فى غيها ودعت الموظفين إلى عدم التزام طاعة حكومة لندن وأوامر الحاكم العام البريطانى السير همفرى جيبز ، وسادت البلاد فترة سكون مؤقت ثم قامت مظاهرات عنيفة مصحوبة بتحطيم وسائل النقل مع شلل الصناعة والتجارة وخاصة فى سلسبورى وبولاوايو قام بها الإفريقيون رداً على إجراء سميث، ونشط جهاز مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية، وقامت مشاورات بين دول هذه المنظمة ، وتمت اجتماعات استثنائية انتهت بإعلان استنكار موقف حكومة إيان سميث غير الشرعية حيال دولة روديسيا الجنوبية وطالبت إنكلترا بالتدخل الإيجابى لإنقاذ الموقف مع التشدد فى موقف لندن حيال حكومة العصيان ، وبدأت حرب باردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية فالأولى تتهم الثانية بتآمرها مع حكومة سالسبورى فى إعلان الاستقلال وتشجيعها له وذكرت أن حلف الأطلنطى وواشنطون يباركانه وهاجمت حكومة واشنطون اتهامات حكومة موسكو وفندتها ، وتبلور الموقف على أساس أن حكومة سالسبورى غير شرعية وقد شقت عصا الطاعة لا للسير إلى الأمام وتحقيق تقرير المصير بل للنكوص على الأعقاب والعودة بالمجتمع إلى قرون الظلم والظلام مما أدى إلى إيصاد الأسرة الدولية الأبواب فى وجهها فيما عدا البرتغال واتحاد جنوب إفريقيا وهما فى نفس مستوى تعصبها .

ولا يمكن الزعم بأن الخلاف خلاف داخلى بين الإمبراطورية وإحدى أتباعها ، فالخلاف خطير ترتكبه مستعمرة بريطانية يهدد الأمن الدولى لاتصاله بمستقبل الجنس البشرى وبسياسة الدول الإفريقية السوداء والعربية ، والعنصرية ضمن المسائل التى تدرسها وتعمل على تصفيتها على أساس المساواة بين الأجناس والألوان لجان الأمم المتحدة ، وقد أعلن الميثاق العالمى لحقوق الإنسان لسنة ١٩٤٨ ضرورة مساواة البشر بلا تمييز بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة الخ..

وسبق أن اتخذت قرارات ضد الدول الرجعية التى تؤيد العنصرية كالبرتغال واتحاد جنوب أفريقيا فى الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية ، واهتمام الأمم المتحدة بقضية روديسيا الجنوبية ليس بالبدعة فهو يتفق مع اتجاهات القانون الدولى وسير العلاقات الدولية السليمة للحيلولة دون استفحال النزاع، وله سوابق فى هذا الصدد كقبول الأمم المتحدة طرح نزاع الجزائر عليها رغم احتجاج مندوب فرنسا بأن المشكلة داخلية لاتخص الأمم المتحدة .

ومن أولى الدول الإفريقية الصميمة التى تتأثر بالمشكلة زامبيا لمتاخمتها لروديسيا الجنوبية ولمرور تجارتها عبر الأخيرة وخاصة النحاس وتخشى تعطل ما تحصل عليه من تيار اصناعاتها وتعدينها من سد الكاريبا ، ولا يخفى أن زامبيا تعتبر ثالث دولة مصدرة للنحاس فى العالم ويقدر ما تنتجه سنويا نحو ٦٥٠٫٠٠٠ طن والحيلولة دون مروره لأى سبب يؤدى إلى انهيار اقتصاديات زامبيا وإلى ارتفاع سعر النحاس إلى حد غير محتمل فى العالم ، وهو يمر عبر روديسيا ليخترق ٢٤٠٠ كيلو مترا فى منطقة فود ولا حتى يصل إلى ميناء بيرا ولورانسو ماركيز بموزمبيق البرتغالية واقترحت شركتا الأنجلو أمريكية وروان الاحتكارية نقل المعدن بالطائرات الضخمة الأمريكية المسماة طائرات هرقل والطائرة لاتستطيع أن تنقل أكثر من ٢٥ طنا فى الرحلة الواحدة مما يتطلب مالا يقل عن ٢٥٠٠ طائرة لعمليات التصدير مما يستحيل تحقيقه .

وتعددت اجتماعات المنظمات الدولية والساسة فى سبيل إثناء سميث عن استمراره فى تصرفاته دون جدوى، وكان آخر اجتماع بينه وبين رئيس وزراء المملكة المتحدة فى منتصف نوفمبر سنة ١٩٦٦ فى جبل طارق فى البحر المتوسط على الطراد « تايجر » لإنقاذ الموقف وإنهاء تذمر أعضاء الكومنولث الإفريقيين من المملكة المتحدة تبعا لسياستها اللينة إزاء روديسيا ، غير أن عواصف الجو

التى كانت تحيط بالطراد صحبتها عواصف الاجتماعات بين ولسون وسميث بمشاركة وزير الكومنولث وحاكم روديسيا البريطانى الذى لم تعد روديسية تعترف بسيادته وتصرفاته ، وانتهى الاجتماع فى سرية كاملة ولكن أعلن الرئيس البريطانى أن ثمة وثيقة اتفق ولسن وسميث مبدئيا على الالتزام بها أساسها المبادىء الستة التى سبق لبريطانيا اعلانها لحل مشكلة روديسيا وهى : تقدم حثيث نحو حكم الأغلبية وضمانات بعدم تعديل دستور المستقبل وتقدم سريع للافريقيين وإنهاء التمييز العنصرى ودليل قاطع على قبول شعب روديسية بأكمله الحل الإنسانى وعدم طغيان الأقلية على الأغلبية .

ووافقت الحكومة البريطانية على هذا الحل ولكن ردت الحكومة الروديسية غير الشرعية فى اليوم التالى لموعد الرد برفضها لمقترحات بريطانيا التى تقدم بها ولسن، وأطلع رئيس الحكومة مجلس العموم على هذه النتيجة السيئة ، وسرعان ما طلبت بريطانيا عقد مجلس الأمن لتوقيع العقوبات الإلزامية على روديسيا الجنوبية ، وانتقل النشاط من محور سالسبورى لندن إلى ميدان السياسة الدولية والبحار لمنع وصول الواردات وتلقى الصادرات من روديسيا الجنوبية لشل تجارتها وإرغام الحكومة غير الشرعية على توخى النظام الدولى والقانون والعودة إلى السياسة الطبيعية فى العلاقات الداخلية بين أبناء الشعب والعلاقات الخارجية بين أبناء الجنس البشرى ، وحالما أحست الوفود الإفريقية فى أروقة مجلس الأمن بالعمل البريطانى أصرت على أن يكون النفط فى طليعة المواد المشمولة بالعقوبات نظراً لأثره البالغ على روديسيا وسرعة تسليمها للحق ، ولم تتعرض بريطانيا لموقف اتحاد جنوب إفريقيا فى تنفيذ العقوبات والتشدد فيها حيالها وضرورة إدراج النفط ضمن المواد المحظور تصديرها لروديسيا نظرا لأن المملكة المتحدة وثيقة الصلة تجاريا بالاتحاد وهو الدولة الرابعة من الدول التى تتعامل مع بريطانيا

مما قد يؤدى إلى خسارة هذه بفقد انها أسواق جنوب إفريقيا، وهذا ماصرح به الرئيس البريطانى فى مجلس العموم فهو لايرغب فى أن تتحول العقوبات إلى مجابهة اقتصادية وعسكرية قد يتسع نطاقها ويتفاقم خطرها وهو يبرىء ذمته أمام أعضاء الكومنولث الإفريقيين الذين هددوا فى سبتمبر سنة ١٩٦٦ بالإنسحاب من مؤتمر الكومنولث احتجاجا على تستر بريطانيا على الحكومة العنصرية غير الشرعية.

واجتمع مجلس الأمن بناء على طلب بريطانيا بدعوته فى ١٦ ديسمبر لاتخاذ القرارات اللازمة لتوقيع العقوبات الاقتصادية على روديسيا وقد صوت المجلس باتخاذ العقوبات بأحد عشر صوتا ضد أربعة أصوات بالامتناع عن التصويت وبصوت غير موجود ، وتتناول هذه العقوبات الحد من التصدير والاستيراد وخاصة ما يتناول نشاطها الاقتصادى ونجحت بريطانيا فى استبعاد تطبيق العقوبات العسكرية وتوقيع الحصار البحرى على موانىء جنوب إفريقيا وموزمبيق، وهدفت إلى زيادة ضغطها الاقتصادى على حكومة العصيان، ووافقت بعد تردد تبعا لإلحاح حكومات الكومنولث الإفريقيين على إدراج البترول ضمن سلع الحظر ، غير أن بريطانيا اشترطت تحفظا فيما يختص بالبترول وهو أن يكون حظره عاما كمبدأ ولاتستخدم القوة فى حالة عدم اتباع قرار مجلس الأمن بصدده، كما أن بريطانيا إظهارا منها فى أنها لاترغب فى إحباط نشاط الدول الإفريقية ضد عصيان روديسيا أعلنت قبل صدور قرار مجلس الأمن حيال مقترحاتها فى توقيع العقوبات الاقتصادية على حكومة أيان سميث غير الشرعية أنها ستقترح أيضاً تحريم تصدير الطائرات والسيارات والأسلحة إلى روديسيا وكذلك قطع الغيار اللازمة لها ، ولاشك أن هذا التحريم يصيب اقتصاديات روديسيا فى الصميم إذا نفذ بأمانة ، غير أن القول شىء والفعل شىء آخر فالبرتغال واتحاد جنوب إفريقيا لن يتقيدا بالحظر ، ومهما قيل فى صعوبة تطبيق العقوبات

الاقتصادية ولهذا التمول سوابق بتجاربه المريرة فى فرض عصبة الأمم العقوبات الاقتصادية على إيطاليا الفاشية فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ بمناسبة مضيها فى غيها فى الاعتداء على الحبشة وغزوها وفشل تطبيق هذه العقوبات فلا شك أن الرأى العام العالمى والغالبية العظمى من الدول كبيرها وصغيرها لاتقر سياسة الاضطهاد العنصرى ووضع حكومة أيان سميث غير الشرعى .

الباب الخامس

الاستعمار فى إفريقيا

قديمه وجديده

ظهرت فكرة الاستعمار منذ العصور الساحقة فى التاريخ ، وإذا أخذناها بمعناها الضيق المحدود يصبح غرضها الاتجاه نحو البناء والإنتاج باستقرار الإنسان واتجاهه نحو الزراعة وكفه عن أن يهيم على وجهه فى سبيل العشب والمراعى والعيش المتجول حتى لا يفنى النوع فى عالم قاس تحاربه فيه عناصر الطبيعة وضواريها وشحها وجليدها وطوفانها وهجمات الأعداء والقناصة ، ولكن المتعارف عليه اليوم أنها تدل على سم زعاف تسقى به الشعوب المستضعفة بتسلط أقوام على آخرين غلبوا على أمرهم . والاستعمار فى اللغة العربية معناه طلب التعمير ولكنه عند الأوروبيين مشتق من كلمة لاتينية ترمى إلى الحركة ومصدرها كلمة « كويل » Kwel ومعناها يتحرك أو يسير circuler أو يهتم بشىء ما ويزرع ويسكن ، وكلمة كولير اللاتينية تتفرع منها كلمة « انكولا » incola أى الساكن و « اجريكولا » agricola أى الزارع وتخرج منها كلمة كولونيا colonia أى المزرعة وتشمل المسكن والزراعة ، والحركة وعملية الزراعة والاستقرار والازدهار فى ظل الزراعة أدت إلى انحراف العبارة والفكرة بفعل المتسلطين إلى استغلال الأقوياء للمستضعفين وطغيان رأس المال الصناعى للغرب على إفريقيا بأهلها وما فى جوف الأرض وتربتها وعلى سطحها ، وزعم الأوربيون أنهم وقد أقاموا فى القارة عنوة بقوة الحديد والنار ومستشاريهم

وحكامهم ومصارفهم وشركات احتكارهم وجالياتهم وصنائعهم أنهم يؤدون رسالة الرجل الأبيض وينشرون المدنية والدين والتجارة ويباشرون الأبحاث العلمية بحكم واجب ملقى على عاتقهم ، وفى الواقع هم يعملون لصالح القوى الاستعمارية المتغطرسة الطاغية للغرب ويسخرون الإفريقى على أسس حديثة كما سخر أجدادهم الذين خطفوهم من شواطىء إفريقيا فى عهد الاستكشافات الجغرافية لمزارع أمريكا وبراريها ولموانىء وبلاط ملوك أوروبا ، واشتد الكفاح منذ العصور القديمة حول استغلال المزارع الزاهرة والأراضى الخصبة، واستعمر المنتصر الأرض التى اغتصبها ، وانحسرت موجات المهزوم عنها إلى أصقاع أقل جودة، وتواصل قوات الأطماع الكفاح الاستعمارى وتتصارع القبائل والعشائر والأقوام والحكومات والدول وتندلع نيران الحروب وأشدها سعيراً الحرب العالمية الثانية ، وهذا ما نشاهده فى الإمبريالية اليوم والرأسمالية الصناعية واحتكاراتها وأساليب استغلالها وتسخيرها الأيدى العاملة واغتصابها المواد الأوليـــة فيما وراء البحار بأسعار فى الحضيض لبيعها بأعلى الأسعار وتحصيل الكسب العريض عن طريق فتح الأسواق عنوة ونشر أذرعة الأخطبوط الاستعمارى الاقتصادى فى طول القارات وعرضها .

وما ندرسه فى الاستعمار هو صورته الحديثة ، وهى على نوعين رئيسيين متعاقبين وهما الاستعمار الاقتصادى التقليدى الذى بدأ فى منتصف القرن الماضى فى أعقاب الثورة الصناعية وأفل نجمه بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم الاستعمار الجديد الذى يحاول الحفاظ على السلطان الاقتصادى للامبراطوريات الاستعمارية المتداعية ، وفيما يلى البيان .

أولا — الاستعمار الاقتصادى القديم أو التقليدى :

مما لاشك فيه أن الاستعمار الاقتصادى التقليدى يعتبر وصمة فى جبين

الإنسانية الحديثة التى شيدت على أساس القانون الطبيعى وحريات الفرد بمولده وسيادة الشعب والسيادة القومية المستمدة من المساواة السياسية والقانونية بين الناس لفلاسفة القرن الثامن عشر وما جاءت به الثورة الفرنسية من مبادىء سامية وحريات عريضة للبشرية، ويبرز فى أطماع الغرب فى ثروات بلدان ما وراء البحار وحاصلاتها وسواعد أبنائها المفتولة ونهم المصانع الآلية التى كانت تسير بقوى البخار ثم بالكهرباء ونشاط الإنتاج والتعدين وحشود العمال بالملايين فى المصانع وحول المناجم مما زاد فى اتساع العواصم الأوروبية وفى ثروات رجال الأعمال وفى انتفاخ جعبات المصارف والشركات — كافة هذه العوامل قضت على الاعتبارات الإنسانية التى تقضى بالمساواة بين الأجناس والألوان والبشر عامة ، وحصرت انتصارات سيـــــادة الشعب وحقوق الإنسان فى أوروبا ، وزحفت قوات الغرب لا لنشر المبادىء الحرة فيما وراء البحار بل لفرض سلطانها وتسخير موارد البلدان المغزوة وثرواتها وإنتاجها وقوى أبنائها لصالح الإمبراطوريات الصناعية ، وصار هم الاستعمار الذى جاء مع الانقلاب الصناعى ليس مجرد السعى فى الحصول على قواعد ومناطق للتجارة وتخزين الحاصلات وتبادلها بين الشرق والغرب أو مجرد الفتح وفرض الجزية كما كانت الحال فى الإمبراطوريات القديمة ، بل إرساء مراسى الشركات والمصارف والمشروعات الصناعية والزراعية وفتح الأسواق لتصريف منتجات المصانع الغربية بأعلى الأسعار والحصول على المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعات التحويلية وغيرها بأبخس الأسعار ، والخلاصة الإثراء على حساب عرق الشعوب المستضعفة ودمائها .

ويمكن تلخيص العوامل التى أدت إلى هذا التوسع الاستعمارى التقليدى الحديث ووضحت صورته فى إفريقيا وغيرها فيما يلى :

١ — تكدس المنتجات والسلع : أدى نشاط المصانع وتضاعف وحدات الإنتاج مما لم يسبق له مثيل وجعلها فى متناول الطبقة المتوسطة والعمال إلى البحث عن أسواق للفائض عن الحاجة خارج أوروبا بالمؤامرات السياسية والدسائس والنفوذ والقوة والسلاح عند الاقتضاء مع ضمان سيطرة الغرب على هذه الأسواق باستمرار، والبحث عن مستعمرات لتصريف المصنوعات والحصول على الحاصلات والمواد الاولية وتوظيف أموال الغرب فيها .

٢ — مولد الرأسمالية الحديثة بشدة نهمها وبحثها عن موارد كى توظف فيها : ترتب على أطراد تزايد الرخاء فى الغرب ونشاط المشروعات أن تزايدت أموال الادخار واتسع نشاط الصناعات والتجارة الخارجية ، وتعددت المخترعات والمبتدعات والآلات المصنوعة من الصلب التى تسير بالبخار ثم بالكهرباء ، وتضخمت الشركات والاحتكارات واتخذ بعضها وضعاً دولياً ، وتعذر توظيف الوفير من هذه الأموال الفائضة فى أوروبا ، مما دفع بالحكومات الغربية وأحزابها اليمينية التى توجهها الطبقات الثرية وأصحاب البنوك والمشروعات إلى السير نحو الشرق المفعم بالثروات البكر وإلى توظيف أموالها هناك وقد ضمنت لها أرباحاً تبلغ فى بعض الأحيان ٥٠٠ ٪، وامتد سلطان الإمبراطوريات الصناعية تنفيذاً لسياسة إنشاء فروع البنوك الغربية وشركاتها هناك أو تأسيس مشروعات جديدة لاستغلال الأراضى والمناجم وزراعة القطن والبن والشاى والكاكاو وقطع أشجار الغابات واستخراج سائل المطاط والفحم والبترول والزيوت .

٣ — اطراد تزايد عدد السكان : أخذ عدد سكان أوروبا رغم ضيق رقعتها يتصاعد باستمرار نتيجة رخاء القارة الصاخبة وانتشار وسائل الرفاهة والصحة ورجحان كفة السلام على الحرب العامة ما بين انهيار إمبراطورية نابليون الأول وعقد مؤتمر فينا لسنة ١٨١٤ — ١٨١٥ إلى الحرب العالمية الأولى

وعقد مؤتمر فرسايل سنة ١٩١٩ فيما عدا بعض الحروب الموضعية التى لم تتحول إلى حروب عامة مدمرة وتقضم ظهور الشعوب ، وكسب الناس فى القارة طوال القرن ، عيشهم فى هدوء فى حماية القوانين التى صدرت فى ظل مبادىء حقوق الإنسان ، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفى القارة بحاجات السكان مما دفع بالبعض إلى الهجرة إلى العالم الجديد واستراليا ونيوزيلاندة وجنوب إفريقيا وسواحلها سعياً وراء الرزق والثروة والمغامرة ، ومما حدا بالحكومات الغربية إلى دق أسافين فى الشرق والتسابق للحصول على مناطق نفوذ ومستعمرات لضمان الأعمال للأوروبيين ولمد المصانع الغربية بالمواد الأولية وأهل أوروبا بالحاصلات الزراعية الضرورية لغذائهم .

واتبعت وسائل تمهيدية وأساسية للتسلط على إفريقيا وغيرها من أقطار ما وراء البحار أهمها ما يلى : —

١ — خطط حكومية لفرض السيطرة إلى حد شن الحرب الاستعمارية : عمدت الإمبراطوريات الصناعية الكبرى المتعطشة إلى الاتساع الاستعمارى إلى وسائل ملتوية للتأثير على الحكام والأمراء الوطنيين فيما وراء البحار للتغلغل فى بلادهم وحكوماتهم وإدارتهم وإغراء خصومهم ومنافسيهم بالمال والوعود واتباع سياسة فرق تسد ، وقد اتبع هذه الوسائل الاستعمار فى الصين والهند ، وألبس الاستعمار الباطل ثوب الحق وشن حرباً شعواء متذرعاً بأوهى الأعذار والأباطيل عرفت باسم الحرب الاستعمارية لأنها غير متكافئة فى القوة والسلاح ، ولم يتطور سلاح آسيا وإفريقيا رغم عراقة مدنية أهل القارتين وتاريخهم المجيد ، والحرب الاستعمارية هذه حرب غادرة مفروض فيها أن تدور الدائرة على الأبرياء من سكان الوطن الأصليين إذ أن حرابهم وسيوفهم وبنادقهم العتيقة لا تصد اعتداء القنابل المدمرة بالجملة والمدافع الرشاشة التى تحصد الأرواح .

ومن أمثلة الحرب الاستعمارية حرب الأفيون التى شنتها إنكلترا فى منتصف القرن الماضى على الصين لإجبارها على استمرار شراء ما تنتجه من الأفيون ، وكانت الصين قد استفاقت من كبوتها وعقدت العزم على منع استيراده دون جدوى ، وكذلك حروب فرنسا ضد الجزائر ثم ضمها نهائياً إليها ، ثم ضد مراكش وفرضها الحماية عليها وإرسال دول الغرب الحملات الاستعمارية للاستيلاء على البلد تلو الآخر فى إفريقيا واحتلال إنكلترا لمصر سنة ١٨٨٢ عنوة بعد قصفها الاسكندرية غدراً بمدافعها واقتحامها عنوة قناة السويس بحجة حماية عرش الخديوى، وكانت فى الحقيقة ترمى إلى مطامعها الخاصة فى هذه البلاد وحيلولتها دون تحقيق الحياة الدستورية للشعب ، وكان الشعب المصرى يطالب بحزم بفرض الرقابة على أعمال الحكومة وعلى الميزانية بواسطة البرلمان وأن تقوم وزارة مسئولة وأن تتساوى الفرص فى الترقى فى الجيش بلا تمييز وأن ينتهى نفوذ الموظفين الأجانب فى إدارات الدولة لتصبح البلاد لبنيها .

ويزعم الغرب أن الغرض من الحرب الاستعمارية هو نشر المبادىء الإنسانية بين الشعوب ، مع العلم بأنها حرب تراق فيها دماء شعوب بريئة على مذابح المطامع الاستعمارية ، ويقول فيها أناتول فرانس الاشتراكى الإنسانى الفرنسى والناقد اللاذع « إن أساس كل حرب استعمارية هو أن الأوروبى فى مركز أقوى من خصمه الذى يلتحم به وبغير ذلك لا تصبح الحرب استعمارية بحال من الأحوال » ، وإذا عجزت جيوش الغرب عن إتمام عدوانها وعادت أدراجها سرعان ما تسلم الدول الغربية بالأمر الواقع وترضخ للقوة ، وإن فشل إيطاليا فى حملتها ضد الحبشة فى القرن الماضى وقد هزم جيشها على يد الامبراطور منليك سنة ١٨٩٦ أدى إلى تسليمها بقوة الحبشة واعترافها باستقلالها واحترامها لكيان هذه الدولة صاحبة السيادة التامة ، كما أن هزيمة أساطيل روسيا القيصرية فى معركة بورت آرثر البحرية وجيوشها البرية فى معركة موكدن سنة ١٩٠٤ ترتب عليها إصابة

أوروبا الاستعمارية بذهول من قوة إمبراطورية الشمس المشرقة وتبددت أحلامها في السيطرة على اليابان وتسابقت دولها في خطب ودها ومحالفتها .

وقد انتشرت عبارات في عصر حمى الاستعمار الحديث كقول نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين « الإمبراطورية هي التجارة » وكقول جوزيف شامبرلين زعيم المحافظين في انكلترا في نهاية القرن الماضي « إن الرخاء لا يتوفر للشعب إلا بالعمل الذي لا سبيل إليه إلا بفتح الاسواق الجديدة ونشاط الأسواق القديمة الآن » وكقول جول فيرى بمجلس النواب الفرنسي سنة ١٨٨٥ دفاعاً عن السياسة الاستعمارية للحكومة « نحن نبحث عن موارد لتصريف منتجاتنا وصادراتنا وهي ضرورة قصوى لنا إذ أن أسواق أوروبا توصد أبوابها اليوم في وجه أوروبا وإنتاجها » .

٢ — جهود معاونة للخطط السالف شرحها : هـذه الجهود من صنع المستكشفين والمبشرين والصنائع والجواسيس والعملاء والمرابين والمغامرين ، وهي تتفاعل في سبيل توطيد أقـدام الإمبراطوريات الصناعية الـكبرى في الجهات التي تزمع الاستيلاء عليها وضمها إلى سلطانها السياسي والإقتصادي ، ولا ننسى الموظفين الأجانب ووكلاء الشركات والاحتكارات والخبراء ، وبعضهم كلفنجستون وستانلي جمع بين الـكشف عن مجاهل القارة التي طمست معالمها وانقطعت أخبار ممالـكها التي سبق أن ازدهرت في غانا ومالي وتومبوكتو والنيجر والتمهيد للرجل الأبيض ليحل هناك بجحافله للاستيلاء على كنوز هذه البلاد ، ويضاف إلى ذلك تدخل المرابين لإقراض الحاكم المستبد مع إحاطته بحبائله وشباكه ، وكلما تمادى الحاكم في الاقتراض بالربا أشتد إعساره وكتب صك الاستعباد على بلاده بتدخل الحـكومات الاستعمارية في شؤونه وفرضها الوصاية على شعبه وحكومته واحتلالها بلاده بدعوى حماية أموال الدائنين

ومصالحهم ، كما حصل لمصر نتيجة استدانة الخديوى إسماعيل ملايين الجنيهات لقضاء نزواته ، وناءت بها قدرة البلاد الإقتصادية وجهود فلاحيها الذين كانوا يعيشون منذ قرون فى كفاف لإثراء السادة وأتباعهم ، وأنتهى الأمر بفرض أوروبا وصايتها المالية على مصر وإنشاء صندوق الدين ثم باصطدامها مع الشعب والنكسة التى أدت إلى احتلال انكلترا مصر زهاء ثلاثة أرباع القرن ، وكذلك نذكر أعمال المبشرين لنشر المسيحية وكانوا يتوغلون باسم الإنسانية فى أحراش القارة الشديدة الحـــرارة والرطوبة المفعمة بالأمراض والسموم والضوارى لـكسب القبائل والعشائر للنفوذ الأوروبى وسلطان الرجل الأبيض والتمهيد للاحتلال والاستعمار .

ونزلت قوى الاستعمار فى إفريقيا تزحف على القارة وتهدم استقلال شعوبها ، واشتد التنافس بين الإمبراطوريات الاستعمارية التى هرعت مهرولة لإحتلال مناطق النفوذ ، وتعدد الاحتكاك بينها ، وكادت تنشب حروب مدمرة بين القوى المتنافسة على التسلط ، واتفقت على تنظيم توزيع الأسلاب وتسوية مشكلة الـكونجو وكان التنازع على حوض الأقليم شديداً بعقدمؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، ورسم المؤتمر الأساس الذى يقوم عليه الاستعمار فى إفريقيا ، وأجتمع فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٤ مؤتمر من مندوبى أربع عشرة دولة ذوات المصالح حسب زعمها فى إفريقيا أو ذوات المستعمرات فى العالم فى عاصمة الإمبراطورية القيصرية وهـذه البلاد هى ألمانيا والنمسا والمجر وبلجيكا والدنمارك وأسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا وهولاندة وإيطاليا والبرتغال وروسيا والسويد والدولة العثمانية ، وقرر المؤتمر حرية الملاحة فى النيجر والـكونغو وحرية التجارة فى حوض الـكونغو ، واتفق كذلك على تحـديد تخومه ، وامتد التنظيم عبر إفريقيا الوسطى من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهندى ، وأعطيت الـكونجو لملك البلجيك باسم الـكونجو الحرة ،

وأخـذ المؤتمر بوجهة النظر الألمانية التى بمقتضاها يصبح للدولة الأوروبية إذا استقرت على شاطئ إفريقيا الحق فى التوغل فى الداخل فيما وراء القطر الذى تحتله، ويمكنها أن تمد حدود ممتلـكاتها إلى أن تلتقى بمنطقة مجاورة يشملها نفوذ استعمارى آخر بشرط أن تخطر الدول الأخرى الموقعة على اتفاق برلين بالمعاهدات التى تبرمها مع المسئولين فى المنطقة، كذلك قرر المؤتمر أن الوضع فى إفريقيا يجعل القوة هى التى تفرض إرادتها على الحق والقانون وتتصدرهما. ومما يثير السخرية أن بعض الدول المؤتمرة التى لم تحصل على مستعمرات فى إفريقيا فى ذالك الوقت لنزولها متأخرة إلى ميدان السباق الاستعمارى تتقرب اليوم إلى الشعوب السوداء التى استقلت حديثاً بحجة أن أيديها طاهرة من آثام الاستعمار بينما سبق أن وافقت عليه علنا فى اتفاق سنة ١٨٨٥.

ووقعت أحداث خطيرة فى إفريقيا فى أواخر اجتماعات برلين منها مذابح الخرطوم التى راح ضحيتها عسكر من المصريين والإنكليز وعلى رأسهم جوردون، وقيام المهدى بثورة عارمة فى السودان وتأسيسه دولة مستقلة مما أدى إلى الإطاحة بحكومة جلادستون فى لندن ومجيء حكومة سالسبورى ذات الطابع الاستعمارى، ووافقت فرنسا فى ٥ فبراير على الحدود التى اقترحها ملك بلجيكا ليوبولد الثانى فى إفريقيا لرسم تخوم الـكونجو، وتضم إليها كاتانجا وتقرر حقه فى الشاطىء الأيمن للنهر والأودينجى، وأسس كارل بيترز فى ٢١ فبراير الشركة الألمانية لإفريقيـــا الوسطى، ووضعت نظامها التأسـيسى الحـكومة القيصرية كما رسمت احتلال ألمانيا الفعلى للشواطىء التى تمـكنهـا من مستعمراتها الأربع.

غير أنه كان من شأن هذا المؤتمر أن اشتد السباق فى إفريقيا للحصول على المزيد من الممتلـكات، وتوغلت إنكلترا فى الجنوب لتدعم سلطانها على مجموعة

ممتلكاتها فى إفريقيا الجنوبيه إلى خط الاستواء ، وتعددت شركاتها لاستغلال المناجم والمزارع ونجح سيسل رودز فى إقامة صروح الإمبراطورية حتى تانجانيقا وواصلت البرتغال بناء امبراطوريتها الاستعمارية فى شرق أفريقيا وغربها ، واشتد تنافس انكلترا وفرنسا على ضفاف النيل وفى السودان ، وسارعت الأولى للسيطرة على قناة السويس وهى شريان مواصلاتها إلى الشرق الأقصى بشراء قسط دسم من أسهم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية من الخديوى اسماعيل الذى أخذت الضائقة المالية بتلابيبه ، وسبق أن نجحت الجهود الفرنسية فى حفر القناة وافتتاحها للملاحة سنة ١٨٦٩، وترتب على شراء انكلترا لاسهم الخديوى وقدرها ١٧٦٫٠٠٠ سهم بمبلغ نحو أربعة مليون جنيه استرلينى فى خريف سنة ١٨٧٥ أن أصبحت مسيطرة على مجلس إدارة الشركة، وزاد فى نفودها فى وادى النيل انفرادها باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ بعد انسحاب الأسطول الفرنسى المرافق للأسطول الانكليزى من الإسكندرية لرفض البرلمان الفرنسى فتح الاعتماد المالى للحملة فقد اعتبر النزاع بين رجال الثورة والخديوى أمراً يخص مصر وحدها ولا يتطلب تدخلا اجنبيا ، وتبع ذلك بذل انكلترا جهوداً لحماية كسبها الاستعمارى بموافقة الدولة العلية ضمنا على الاحتلال ، ثم احتلال عسكر الانكليز قبرص وكانت خاضعة للسيادة العثمانية نظير جهود انكلترا وسياسيها الأول درزرائيلى لالغاء الحماية المقنعة التى فرضتها روسيا على تركيا باجبارها بعد الهزيمة وقد وصلت جحافل الروس إلى مشارف الاستانة ، على توقيع معاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨ ، ولم تيأس فرنسا رغم هزائمها الدبلوماسية من مواصلة حملاتها على انكلترا فى الميدان الدولى على أساس أن احتلالها وادى النيل غير مشروع فصاحب السيادة الفعلية على هذه البلاد هو الخليفة والسلطان ونجحت فى عقد مؤتمر واسع النطاق فى القسطنطينية لتنظيم حرية الملاحة فى قناة السويس سنة ١٨٨٨ ، واستمر توتر العلاقات بين الإمبراطوريتين إلى أن وقع

صدامهما فى فاشورة على الحدود الغربية للسودان .

ويرجع هذا الصدام إلى أن الجمهورية الفرنسية أوفدت فى حمأة سباقها الاستعمارى بعثة على رأسها الكابتن مارشان وقامت من برازافيل على شاطىء الاطلنطى للتوغل فى قلب أفريقيا والاتجاه بسرعة إلى السودان تطبيقا لنظرية احتلال ماوراء الشاطىء التى أقرها مؤتمر برلين ، وكانت الجيوش المصرية قد جلت عن السودان بسبب ضغط الاحتلال البريطانى والضائقة المالية وثورة المهدى ، ثم استعد الجيش المصرى وكر لاسترداد السودان وازال دولة المهدى وسارت فرقة إلى غرب السودان بقيادة كتشنر حتى فاشودة حيث وصلت إليها الحملة الفرنسية فى ١٠ يوليو سنة ١٨٩٨ مكونة من مائتى سنغالى بلغوا المكان المذكور بعد مسيرة سنتين وقطعوا أكثر من ٤٥٠٠ كيلو متر إلى بحر الغزال ثم وصلت جيوش مصر المدينة المذكورة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وانذر كتشنر البعثة الفرنسية بضرورة وقوفها عند هذا الحد إذ أن الجيش المصرى استرد السودان وهى ضمن املاك السلطان صاحب السيادة عليها ، وأخذت انكلترا على عاتقها الدفاع عن حدود املاك الخديوى والسلطان التى تشتمل على النيل واعاليه كما جاءت فى المعاهدات التى ابرمتها انكلترا مع المانيا وإيطاليا سنتى ١٨٩٠ ، ١٨٩١ بخصوص تنظيم الاستعمار فى أفريقيا ولم يثر ابرامها أى اعتراض ، وانتهى الأمر بعد اكفهرار الجو وانذاره بالعاصفة الهوجاء إلى انسحاب فرنسا وفتور العلاقات بين الطرفين حتى سنة ١٩٠٤ حيث اتفقا على توزيع مناطق النفوذ بينهما فى حوض البحر المتوسط ، لفرنسا مراكش ولانكلترا وادى النيل وكل يحتفظ بالوضع مع مسئولية المحافظة على الأمن والقيام بأعمال ايجابية نتيجة الاحتلال ، واحتفظ هذا الاتفاق الودى بوظيفة مدير الآثار فى مصر لعالم فرنسى وأن تظل المدارس الفرنسية تتمتع بحرياتها فى العمل وأن تعامل كل من الدولتين الدولة الأخرى معاملة المثل .

وتبددت أحلام فرنسا فى قطعها طريق الكاب الاسكندرية بخط برازافيل الحبشة ، وكانت المانيا وهى حليف السلطان العثمانى تواجه هذا التنافس بمشروع خط حديد هامبورج بغداد مرورا بالاستانة العلية لتهديد الإمبراطورية البريطانية فى مستعمراتها فى آسيا واسراعها فى حشد الجيوش عبر أوروبا إلى الشرق الأوسط والخليج العربى (الفارسى سابقا) والاتجاه نحو الهند والبحر الأحمر .

ولما كانت ألمانيا قد نزلت إلى ميدان الاستعمار متأخرة عن منافساتها فإنها طمعت فى بلاد المغرب الإفريقى ، وكانت فرنسا قد سبقتها اليه وبدأت تسيطر عليها بضمها الجزائر إليها وإصدارها القوانين الأساسية لسنة ١٨٤٨ باعتبارها فرنسية ، ولم تحرر الجزائر من سلاسل هذه القوانين إلا باستقلالها سنة ١٩٦٢ ، وفرضت فرنسا حمايتها على تونس بمعاهدة باردو فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ ، وتوغلت فى الأراضى المراكشية متذرعة باستنجاد السلطان بها لإخماد الفتن ، وهى ترمى من وراء عملها هذا إعلان حمايتها على السلطنة وعمدت ألمانيا إلى مناواة فرنسا فى غنيمتها هذه وسعت إلى نصيب فيها ، والموقف مؤات لها فقد سبق أن هزمت بروسيا الإمبراطورية الفرنسية الثانية وترتب على الهزيمة الإطاحة بعرش نابليون الثالث وأعلن بسمارك الوحدة الألمانية التى قامت على الحديد والدم وتأسيس الإمبراطورية الألمانية المتحدة بزعامة ملك بروسيا وامبراطور ألمانيا فى فرسايل فى ١٨ مايو سنة ١٨٧١ ، وكانت فرنسا تخشى أن تتكرر مأساة الحرب السبعينية وأن تتهدد حدودها الشرقية بزحف ألمانى جديد ، وتمادت ألمانيا فى سياسة الكفاح الاستعمارى وخاصة ضد انكلترا وهى البيضاء خصم قوى عنيد ، وشجعت على ذلك ثورة الترنسفال وكفاح المستعمرات لجنوب أفريقيا ضد الوطن الأم ، غير أن ألمانيا لم تجرؤ أن تشن حربا بسبب أطماعها الاستعمارية وذلك لعدم استعداد أسطولها بعد للنزال ، وكان قد بدأ السباق بين ألمانيا وانكلترا على بناء القطع البحرية الضاربة ، وتنافسا

كذلك فى برامج التسليح على اختلافها ، ولم يصلا إلى تفاهم فى هـــذا الشأن يضع حداً للسباق الخطير ، ونظرت ألمانيا إلى مراكش ككسب استعمارى جديد لها وكموضع مساومة مع الدول العظمى لتنال نصيبها الاستعمارى فى أفريقيا واعتبرتها الفاكهة الناضجة التى أوشكت فرنسا أن تقطفها ، كما تعقدت الأمور بمطالبة إيطاليا بنصيب فى المستعمرات وبنظرها بنهم إلى تونس التى فرضت فرنسا حمايتها عليها ، مما دفع بانكلترا إلى انهاء التوتر السياسى بين الجمهورية الفرنسية وبينها ونسيان حادثة فاشودة وعقد الاتفاق الودى السابق الاشارة اليه حفظا للتوازان السياسى بينهما فى حوض البحر المتوسط على أساس توزيع الاسلاب بلا اعتبار لمصالح الشعوب وأمانيها وانهاء صراعهما على ضفاف النيل، ونظرت ألمانيا شذرا إلى تسوية النزاع بين الابراطوريتين الاستعماريتين فكانت تأمل فى استمرار القطيعة، وعجبت من أن فرنسا غفرت لانكلترا حرق جان دارك ومعركة واترلو ولا تغفر لألمانيا معركة سيدان التى ترتب عليها هزيمة الإمبراطورية الفرنسية الثانية ،وكانت تتوق إلى التفاهم مع فرنسا على إضعاف مركز انكلترا فى إفريقيا والاشتراك مع الجمهورية الثالثة فى غنيمة مراكش والأطلس .

وترتب على استياء المانيا من الأتفاق الودى أن افتعلت أزمة طنجة سنة ١٩٠٥ بزيارة القيصر للميناء ومعاملته خليفة سلطان مراكش معاملة العاهل المستقل ، وأدى هذا إلى تدخل الدبلوماسية بلباقتها ، وعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ الذى وضع سياسة ثابتة فى مراكش منع بمقتضاها تجارة الأسلحة غير المشروعة مع إنشاء بنك الدولة وفتح أبواب التجارة مع الخارج واعطاء الاحتلال الفرنسى صفته المشروعة ، وأرضى المؤتمر المانيا بمنحها بعض المساحات الواسعة فى أفريقيا الشرقية والوسطى ، ثم تكرر تذمر المانيا بمناسبة تجريد حملة

فرنسية اتجهت إلى مدينة فاس وأخرى للضرب على أيدى العصاة فى مراكش، وارسلت المانيا مدرعة حربية إلى أجادير لحماية مصالحها ورعاياها فى هذا القطر المنكود الطالع فى أول يوليه سنة ١٩١١ ، وبعد توتر شديد عقد مؤتمر لأنهاء الأزمة التى كادت تهدد باشعال نيران الحرب والإطاحة بالبقية الباقية من كيان العالم الإسلامى المستقل فى القارة الأفريقية ، وسارعت الدول العظمى للخروج من مأزق النزاع الطويل الأجل الذى كان يهدد بأزمة اقتصادية طاحنة ولكسر شوكة الدولة الاستعمارية الأولى وهى انكلترا بتحبيذ إطلاق يد فرنسا فى مراكش ، وعقد اتفاق بين المانيا وفرنسا سلمت فيه المانيا لفرنسا بحمايتها المصالح الأوروبية فى مراكش واحتلالها القطر وفتح الموانىء للتجارة فى حرية ومعاملة كافة الدول على قدم المساواة ، واعطيت المانيا أراضى واسعة كانت ضمن الأملاك الفرنسية فى الكونجو ، وسمح لرؤوس الأموال الأجنبية باستثمارها هناك كما اتفق على تنظيم مسائل النقد والعملة والإدارة ، وانتهى الحال باعلان فرنسا الحماية عليها فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ ، وحلت فرنسا مكان الدولة المحمية فى إبرام المعاهدات والتمثيل الخارجى كما فعلت فى تونس ، وفرضت سلطانها على نظمها ونسقتها لتتفق مع مصالح الإستعمار عن طريق مستشاريها لدى السلطان .

ونجحت المانيا فى افتعال الأزمات واسماع الدول صوتها للحصول على املاك فى شمال أفريقيا حينما اتضح لها أن المنطقة تحوى فى جوفها المعادن والأملاح كمواد الحديد والصلب والفوسفات والمانجانيز والأسمنت ، ولكنها فشلت فى الحصول على نصيب فى مراكش ، ولم تنجح فى قيادتها دفة المفاوضات فى مؤتمر برلين بقدر نجاحها فى إثارة الغبار فى الميدان الدولى ، واتجهت وقد سئمت هذا الوضع إلى الشرق الأوروبى فى سياسة مشهورة بدأت بالوحدة الألمانية فالاتساع تحقيقا للمجال الحيوى لا بالاعداد لهجرة العدد المطرد الزيادة من المان إلى جبال

الأطلس بل بالسير نحو شرق أوروبا **Drang nach Osten** ومد خط حديدى من همبورج إلى الأستانة عاصمة الخلافة ومقر السلطان حليف الإمبراطور فبغداد والبصرة لتهديد الهند أثمن جوهرة فى التاج البريطانى والمشاركة فى بترول العراق وكان قد بدأ فى تفجر ينابيعه وشحنه إلى مصانع ألمانيا الكبرى وفرض الحصار على إفريقيا والمغرب الفرنسى ، وهذه هى السياسة نفسها التى أنتهجتها النازية لإنشاء ألمانيا الكبرى وضم الشعوب ذات الأصول الجرمانية كأهل السوديت إليها وبناء أوروبا الجديدة بزعامة ألمانيا فى ظل الصليب المعقوف .

وتباينت سياسات الإمبراطوريات الإستعمارية لبسط النفوذ الأوروبى على إفريقيا فى الوسائل والغايات ، واختلفت طرقها فى معاملاتها وصلاتها بالشعوب المستعمرة المحكومة ، ثم اختلفت أيضاً أساليب تصفيه الاستعمار ومحاولات العودة من النافذة بعد الاضطرار إلى الخروج من الباب الكبير . وفيما يلى وصف وتحليل للاستعمار الاقتصادى التقليدى فى إفريقيا :

١ — الاستعمار البريطانى : طريقة هذا الاستعمار بوجه عام الحكم عن طريق الرءوس والزعماء الوطنيين أى الحكم غير المباشر؛ وتأصلت هذه الفكرة فى الإمبراطورية منذ ضياع الولايات المتحدة الأمريكية منها بثورة الانفصال عن التاج سنة ١٧٧٦ لرفض المحكومين فى العالم الجديد الخضوع للسلطان الضرائبى الانكليزى واعلانهم العصيان تجاه دفع المكوس الباهظة على الشاى وغيره ، وظلت كندا على وفائها للعرش ، غير أنها أخذت تطالب بتشريعات أكثر سماحة ، ثم قامت هناك ثورة هوجاء سنة ١٨٣٧ أخضعتها انكلترا بمنتهى الشدة ، وأوفدت حكومة المملكة سنة ١٨٣٩ اللورد دورهام الذى كتب تقريرا صار فيما بعد دستور الاستعمار الإنكليزى ينصح فيه باقامة حكم

ذاتى على أساس إرخاء العنان لـكندا بحـكومة شبه مستقلة مسئولة أمام برلمان محلى للتشريع للبلاد على أن تبقى السياسة الخارجية من سلطة حـكومة لندن ، وأخذت لندن بالسياسة الجديدة فى العديد من مستعمراتها تدريجيا ، وبدأت بالمستعمرات التى تسكنها شعوب انجلو سكسونية أو بيضاء ، وأطلق على هذا النظام اسم « الدومنيون » Dominion

وممن يجدر ذكره أن المارشال ليوتى الفرنسى نصح باتباع هذه الطريقة لصالح فرنسا حينما كان حاكما على مراكش فيما بين الحربين العالميتين لأصلاح أداة الحـكم هناك وتهدئة ثائرة الحـكام الوطنيين والشباب على أساس « ربط مصالح الطبقة الحاكمة من الوطنيين بالمصالح الفرنسية والأوربية » ، وبعبارة أخرى الزج بالطبقة الممتازة القيادية من الوطنيين فى طريق وحيد جبرى بلا عودة يجعلها حليفة الاستعمار وأداته كما يحضها على الاهتمام بالمصالح الأوربية ،غير أن السياسة الفرنسية لم تأخذ بنصائح ليوتى .

وعلاوة على سياسة بريطانيا القائمة على الإستعمار غير المباشر فقد كانت تتبع أيضاً سياسة تصل بين الحاكم والمحـكوم مع إبقاء الأخير فى مستوى أقل بـكثير من المستعمرين بقانون التفرقة بين الملونين Colon Bar act ، وقد وضحت قسوته فى اتحاد جنوب أفريقيا ، ويمنع القانون زواج البيض بالملونين كما يعزل مجتمع الفريقين عزلا تاما ، وكان يؤخذ بهذا القـانون فى المستعمرات وسائر البلدان التى تسيطر عليها السياسة الغربية التى يكون الملونون فيها أغلبية عظمى كالهند واتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا أو أقلية كبيرة كأستراليا ونيوزيلانده والولايات المتحدة الأمريـكية ، ولـكن لم يجر تفـكير فى صدور مثل هذا التشريع فى الجزائر البريطانية ذاتها حيث لا يكون الملونون إلا أقلية ضئيلة ، غير أن هذا لم يمنع من مراعاة التمييز العنصرى بحكم الواقع ، وقيل أن نظام التمييز

هذا من صناعة أهل الشمال فلا مبالغة فيه فى ديار أمريـكا اللاتينية حيث سادها الأسبان والبرتغال كما أن الفرنسيين يمتزجون بالزيجة دون كبير جرم بالملونين ، أما تشريع السيطرة والحـكم فيتبع فيه التفرقة التامة بين الحاكمين واتباعهم والمحـكومين ويطلق عليهم « رعية » .

ووصفت المذكرة السياسية للوردلو جارد سنة ١٩١٨ الحـكم غير المباشر فى إفريقيا بمناسبة شرحه الانتداب البريطانى فى إفريقيا الاستوائية سنة ١٩٢٢، وأخذاً بهذا المبدأ أعطت بريطانيا فى نيجيريا للامراء من أهل البلاد سلطات مستقلة بحدود على الأهلين مع محاكمهم ومجالسهم المحلية ونظمهم وعاداتهم فى مدن عديدة كـكانو وابادان، ولم تصبغ بالنظم الاوروبية مع إنشاء مجالس محلية ذات طابع غربى ، إلا فى المدن والموانىء الساحلية حيث تـكثر هناك الجالية الاوروبية وتنشط التجارة الخارجية ، ورأينا فى ساحل الذهب سلطاناً كبيراً للزعماء الوطنين وخاصة بعد تثبيت العرش لشعب اشانتى سنة ١٩٢٥ ، واعترفت بريطانيا فى المستعمرة بسلطان ثلاثة وستين حاكماً وطنياً ، كذلك روعى نظام الحـكم غير المباشر فى سيراليون وجامبى توطئة لاقامة استقلال محلى ، ولـكن لم يمنع هذا التمييز العنصرى فى حالة وجود جالية أوروبية هامة وإن تك أقلية كما فى جنوب إفريقياوروديسيا الجنوبية ، ورغم ضرورة تشجيع هجرة البيض إلى المستعمرة السابقة لرفع نسبة البيض إلى السود فإن البيض فى اتحاد جنوب إفريقيا يحملون الهجرة إلى بلادهم مستحيلة نظراً لخوفهم من انتشار البطالة نتيجة تـكاثر عدد البيض وزيادة العرض على الطلب ولمعارضة كبار الملاك للهجرة خشية دخول عناصر غريبة على الطبقة الغنية المستأثرة بالأملاك ، وتسير الأمور هناك على أساس قبض البيض على مقاليد البلاد الاقتصادية والإدارية منذ بدء الاستعمار وحرمان السود من الحريات والـكسب الجازى وترك أراض محدودة لهم كانت نسبتها إلى أراضى الاتحاد سنة ١٩١٣ نحو ١٢٪ ، ولا يمكن للأسود

أن يحصل على أراض خارج المساحات المحددة لبنى جلدته مع تحديد الأعمال التى يباشرها السود والملونون ، ويلاحظ أن نتاجها قليل وجهدها شاق ، ويقبضون معظم أجورهم عينا لا نقدا ويحرمون من التجول بحرية فى المدن وارتياد أماكن البيض مما يزيد فى تعاسة وفقر أهل الوطن المعتدى عليه ويرفع نسبة الوفيات بينهم وخاصة الذين يشتغلون فى المناجم والمدن ، ويسكنون أكواخاً من الصفيح بجوار المصانع التى يكدحون فيها نظير مالا يسد رمقهم ؛ وبلغت نسبة الوفيات من السود إلى البيض نحو ٥ إلى ١ ، ورأينا أمام الحاجة الاقتصادية رغم صرامة قانون العمل للملونين الصادر سنة ١٩٢٦ الذى يقصر الأعمال الفنية الدقيقة والتخصص على البيض ويترك للسود الأعمال الآلية والبدنية المنهكة ، أن الصناعات تقبل صاغرة السود المتخصصين ، وترتفع نسبتهم تدريجياً كما تلجأ إلى الخارج فى تطلب المتخصصين ، ومنذ ما بعد الحرب العالمية الثانية ارتفعت نسبة اليد العاملة السوداء إلى البيضاء إلى ٨٠٪ وهذا قدر لا يستهان به فى الاقتصاد القومى فى حين أن الجالية البيضاء وهى نحو خمس مجموع السكان حصتها أكثر من ٧٤٪ من الدخل القومى ، ويكسب العامل الأبيض ١٥ جنيهاً أسترلينياً شهرياً على الأقل بينما لا يكسب الأسود الذى يباشر نفس العمل أكثر من خمسة جنيهات ويبلغ أجر العامل الأبيض فى المناجم عشرة أمثال أجر الأسود ، وكانت سياسة العنصرية فى روديسيا ونياسالاند وتانجانيقا وكينيا لا تختلف عن سياسة التعصب فى اتحاد جنوب إفريقيا للدكتور مالان وتلاميذه ، ولا يقبل هناك مهاجرون من البيض إلا إذا أحضروا فى جعباتهم رؤوس أموال ضخمة حتى لا تنشأ طبقة عاملة فقيرة بيضاء قد تتحالف مع الغالبية من السود ، رغم أنه ليست هناك قوانين عنصرية رسمية فى بعض المستعمرات الإفريقية السابقة إلا أن التطبيق العنصرى كان يتبع بلا هوادة ، وقد فرضت وزارة المستعمرات البريطانية فى حذر رغم أنف البيض يوماً ما فى روديسيا الشمالية سابقاً أربعة ممثلين للسود بين

أثنى عشر ممثلاً للبيض فى المجلس التشريعى ، وكانت انكلترا تحاول بعد الحرب العالمية الثانية وقبل أستقلال أواسط إفريقيا حيث تستوطن جاليات أوروبية غنية وقوية سياسياً وتنسج على منوال العنصرية أن تبقى على نفوذها فى مراعاة المصالح الأوروبية مع عــدم إغفال حاجات وعواطف أهل البلاد الأصليين والملونين ، ولم يستثن من ذلك إلا شعب كينياوالماوماو بزعامة كينياتا ، وبغيتها إنشاء قواعد عسكرية بعد أن فقدت العديد من قواعــدها فى حوض البحر المتوسط وزال احتلالها عن وادى النيل ، ويمــكن فى الهضبة الوسطى الافريقية وخاصة تانجانيقا وكينيا وأوغنده وروديسيا إذا أقيمت فيها قواعد عسكريةقوية مباشرة أعمال هجوم ودفاع وغزو على نطاق واسع يمتد إلى آسيا الصغرى والمحيط الهندى والشرق الأقصى ، وهــذا ما يحدو بوزارة المستعمرات إلى تخفيف حدة الصراع بين السود والملونين والبيض ، واختلف الوضع فى كينيا عنه فى غيرها فكانت الجالية الأوربيه وفيرة العدد والتجارة فى يد البريطانين والهنود ، وكان الصراع على أشده بين الأجناس المختلفة ، وتأصلت جــذور المستعمرين البيض فى أعالىالهضبة يعملون على نمو الاستعمار الاوربى معالتعصب للعنصرية والتشدد فى تطبيق قوانينها ، وكانوا يطالبون بطرد العربوالاسيويين وخاصة الهنود والباكستانيين ومراكزهم مرموقة وأموالهم وفيرة والتجارة فى قبضتهم ، وكان الوطنيون يقاسون من ضآلة ما يملــكون من مال ، والاراضى التى يمــكن أن يفلحوها محدودة مما يضطر أكثر من نصفهم إلى العمل وهم ما بين الخامسة عشر والخامسة والاربعين بأجور الــكفاف لدفع الضريبة لصالح المرافق الحــكومية المختلفة ومزارع البيض ، ويتطلب وفاء الضريبة أن يعمل الاسود ما بين ثلاثة وخمسة أشهر سنوياً .

وكان أهل البلاد الأصليين من السود يطالبون برد الأرض التى اغتصبت منهمإليهموكان اغتصابهابحجة أنها ليست ملــكا لأحد أو بعبارة أخرى هى ملك

عام ولكن الحقيقة هي لأصحاب البلاد، مما لا يحدو بالمستعمرين إلى استيطانها واحتكارها، وكانت للرعى والصيد وكثافة السكان فيها من ١٠٧ إلى ٢٠٠ في الكيلو متر المربع، وتحول الكفاح الوطني في سبيل الأرض إلى حركة سياسية باسم اتحاد إفريقيا لكينيا سنة ١٩٤٦ عقب عودة جومو كنياتا من أوربا، ثم نظمت حركة ماو ماو في آخر سنة ١٩٤٨ لنفس الغرض ولتحرير الوطن من العنصرية والاستعمار ولطرد البيض الطغاة وصنائعهم من البلاد، وردت إنكلترا على هذه الحركة الباسلة بسلاح الطيران والمدافع الرشاشة وبحرب إبادة شاملة، وبلغ عدد الذين قبض عليهم حتى سنة ١٩٥٤ نحو ١٦٢٫٠٠٠ وحوكم منهم نحو ٦٩٫٠٠٠ وكان المسجونون في ذلك التاريخ نحو ٢٣٠٫٠٠٠، واتسع نطاق هذه الحركة الشعبية التي كان لها فعلها الساحر في يقظة أواسط إفريقيا وتحررها، ولم يعلن انتهاء حالة الطوارىء التي بدأت سنة ١٩٥٣ إلا في يناير سنة ١٩٦٠، وسارت هذه الأقطار في سبيل التحرر كغيرها مثل إفريقيا الشرقية البريطانية وزنزبار على أساس المجالس المحلية الوطنية والتشريعية الاستشارية في بادىء الأمر، ثم تحولت إلى مجالس ذات سلطات محدودة مع زيادة عدد الموظفين الوطنيين، فإلى الاجتماع حول موائد مستديرة لتنظيم عمليات التصويت والانتخاب وتبادل وجهات النظر للوطنيين والأوروبيين المستعمرين للانتهاء إلى تصفية الاستعمار التقليدي، ورأينا في تانجانيقا وكينيا قبيل الاستقلال ابتداء من سنة ١٩٦٠ أن نظام المجلس التشريعي يقوم على أساس غالبية إفريقية وسبقتها إلى ذلك بوجاندا، وانتهى الاستعمار الإنكليزي ظاهراً باستقلال إفريقيا وبانضمامها على قدم المساواة إلى الكومنولث مع الدولة المستعمرة سابقاً وهي بريطانيا للتشاور في مصالحها ومشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية دون ضغط أو اضطهاد أو فرض اتفاق على غير رغبة الأهلين، غير أن الوضع لا يزال يهدد بعودة الاستعمار دون احتلال في صورة جديدة.

٢ ـ الاستعمار الفرنسي والبلجيكي والبرتغالي والأسباني : يتصف هذا الاستعمار بأنه استعمار مباشر ويمارس الحكم في ظله بواسطة البيض فحسب ، وهو يتفق في قسوته وسيطرته وغيره من الاستعمار البغيض وإن اختلفت وسائله في الشدة والبطش ، ويقوم على نظام حكم هو من صناعة المتسلط ومباشرة السلطة والإدارة بدون وسيط ، ولا يهتم بطبقات معينة تساعده في الحكم بقدر اهتمامه بفرض سيطرته وإرهابه ، ويباشر تمييزاً عنصرياً لا على أساس لون البشرة بصفة رئيسية فقد يتم امتزاج في الدم بين الأبيض والأسود بل على أساس اختلاف حضارة المحكوم عن حضارة المتسلط والمتحكم بما في ذلك دينه ، ويفرض عليه قوانين تغله في سلاسل التأخر بلا أمل في النهوض إلا عن طريق تحطيم قيود الاستعباد ، ثم يدعوه إلى ترك حضارته والاندماج في حضارة المستعمر لينال قسطاً من الحرية ويباشر عملا جازياً ، وليس للمغلوب على أمره أمل في التعليم والعناية الصحية والحصول على وظيفة أو وسيلة كسب تقيه المسغبة ما ظل في بيئته وبين عشيرته ويباشر عبادته التي شب عليها وينطق بلغته الأصلية لا لغة المستعمر .

وكانت فرنسا تسير في هذا السبيل الوعر غير آبهة بالنتائج مما أفقدها هيبتها وحكمها في إفريقيا الشمالية وخاصة الجزائر منذ هبوطها إلى أرضها وإصدارها القوانين الأساسية باعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية سنة ١٨٤٨ وحرمان الأهلين من حقوقهم الإنسانية وحرياتهم ماظلو جزءاً من القوم العربي، ولم يك يطمع العربي في العمل والتجوال دون اضطهاد ومضايقات أو في تلقن لغته وعلوم ومعارف حضارته في الجزائر وتونس ومراكش، كما كانت تباشر حكمها على أساس يكاد يكون عسكرياً في ممتلكاتها في غرب وأواسط إفريقيا وفي مدغشقر وتحاول أن تعصر آخر قطرة في ثرواتها لصالح شركاتها واحتكاراتها مع العلم بأنها لم تك على قدر غنى المستعمرات الانكليزية إلى حد

أن الموظفين العسكريين والمدنيين فى إفريقيا الغربية الفرنسية كانوا يستنزفون ٩٢٪ من الميزانية وفى مدغشقر ٧٥٪ .

واضطرت فرنسا إزاء تغير وجه العالم بعد الحرب العالميـة الثانية وقوة الرأى العام العالمى وزيادة وعى شعوب إفريقيا وما جاء به ميثاق الأمم المتحدة من المبادىء التى تنادى بضرورة إنهـاء الاستعمار والمساواة بين الأجناس والألوان وإزاء كفاح أهل المستعمرات الفرنسية وهزيمة فرنسا النكراء فى الهند الصينية سنة ١٩٥٤ إلى تغيير سياسها ، وصدرت قوانين أساسية لإعادة رسم السياسة الاستعمارية ، ومما يلاحظ على الاستعمار الفرنسى محاولاته تنظيم الاستعمار لا على أساس مصلحة الأهاين والتطور والتفوق بين الحاكم والمحكوم بل على أساس الجمود القانونى وفرض إرادة المتسلط بواسطة القانون مما يؤدى إلى التدابير والتقاطع وفشل التشريع وسياسة المستعمر .

ولقد انشأ الدستور الفرنسى الصادر سنة ١٩٤٦ ما يسمى بالاتحاد الفرنسى تشبها بالكومنولث البريطانى ، غير أن الاتحـــاد الفرنسى لم يقم على أساس التعاون بين الشعوب على وتيرة الإمبراطورية البريطانية وفى سبيل التحرر بعد ذلك .. بل على أساس تقسيم الإمبراطورية الفرنسية إلى الوطن الأم ومقاطعات ما وراء البحار والبلدان المشتركة فى الاتحاد مع إرخاء العنان لأقطار وشعوب الامبراطورية ومع الابقاء على نظام أحوالهم الشخصية دون حاجة إلى التنازل عن حق المواطنين وتمثيلهم فى البرلمان الفرنسى بحدود ، وانشأ المجالس المحلية التى تجمع بين الأوروبيين المستوطنين وأهل البلاد لبحث الميزانية والمشروعات العامة ومسائل التعليم ، غير أن الشعوب الإفريقية المحكومة لم يرقها بحق هذا القدر من فتات المـــائدة وقد قدمت للمستعمرين فى الحربين العالميتين الأولى والثانية مئات الآلاف من المقاتلين اشتركوا فى الجبهة الغربية وغيرها ورأواعن

قرب مراعاة المبادىء الإنسانية السياسية الغربية فى أوروبا وحدها ولمسوا مواطن ضعف الحضارة الغربية ومظالمها فى ديارهم ، وهكذا سارت الشعوب الإفريقية قدما فى ثورات عارمة تطالب بانحسار الاحتلال عن ديارهم، وكانت أهم ثوراتها حرب التحرير فى الجزائر التى انتهت بانتصار الجزائر العربية على الاستعمار الفرنسى سنة ١٩٦٢ وإعلان استقلال الجزائر وانسحاب القوات الفرنسية من المقاطعات الجزائرية التى اعتبرت فرنسية بحكم القوة الغاشمة لتعود إلى الوطن العربى الأصيل ، وحاولت فرنسا الإبقاء على إمبراطوريتها بتغيير نظام الاتحاد إلى نظام الجماعة الفرنسية بطائفة متتالية من التشريعات ، ونشأ نظام الجماعة سنة ١٩٥٨ على أساس استقلال ذاتى واسع النطاق ومجالس نيابيه ومحلية ذات اختصاصات مستقلة عن إدارة الحكومة المركزية فى باريس ، غير أن النظام الجديد عاش سنة واحد ثم اجتاحته موجة فوز الأحزاب السياسية التى تطالب بالاستقلال التام وإصرارها على تحقيقه فى المستعمرات السابقة فى الانتخابات ، وسلمت فرنسا بعد انقلاب ديجول بالأمر الواقع وخرج بالتتابع جل أعضاء الجماعة من الكومنولث الفرنسى،هذا النظام الجامد المسطور على أساس التقنين اللاتينى .

وكان الاستعمار البلجيكى يمارس حكم مستعمرته الدسمةوهى الكونجوعلى أساس الحكم المباشر لصالح الرأسمالية الاستعمارية الصناعية البلجيكية وغيرها المتحالفة معها وخاصة لاستثمار موارد كاتنجا الغنية بالنحاس والماس واليورانيوم والفحم والقصدير والكوبالت وغير ذلك من المعادن ، وكانت الكونجو حتى سنة ١٩٠٨ تعتبر ملكا خاصاً لملك البلجيك ثم اعتبرت ملكا للدولة ، وحكمت على أساس أنها ثروه تدر على هذه المملكة الغربية الصغيرة الشديدة النهم فى الاستعمار أموالا عريضة ، ولا اعتبار للاهلين لديها ولا عناية بتعليمهم وصحتهم وعلاجهم ورفع مستواهم المعنوى والمادى والخروج بهم من الفاقة إلى حياة

كريمة وعمل جاز مع تدريبهم على شتى الأعمال الفنية وخاصة فى المناجم والمصانع، وكذلك وصم هذا الاستعمار بتسلط احتكارات قوية وهيئات مالية على الأداة الحاكمة مثال ذلك بنك إمبان والشركات المعدنية للكونجو واتحاد مناجم أعالى كاتانجا وشركة الغابات والتعدين ، وبديهى أن هذا الاستعمار كان لا يعير أى اعتبار لمصالح الأهلين ومستقبلهم ، بل يعدهم ضمن الحاصلات التى يبتزها عنوة من الأرض ولا يقيم وزناً للمبادىء الإنسانية فى الأخذ بناصر الوطنيين على اختلافهم وهم اليد العاملة التى تعمل على إثرائهم . . مما يؤدى إلى تمييز عنصرى بغيض على أساس فرق المستوى . ولا يحاول إعداد هؤلاء لمباشرة الأعمال الفنية والإدارة ويعطيهم أجورا لا تسد رمقهم ، ومثل هذا الاستعمار يكتب عليه الانهيار فجأة دون أن يتمكن من التعاون بعد استقلال المحكومين مع النظام الجديد القائم على سيادة الشعب .

ولقد قامت حركة وطنية متأججة الحماس فى الكونجو ، وحاولت حكومة بروكسل القيام بإصلاحات عن غير طيب نية وبقدر ضئيل لتخدير الروح القومية التى تطالب بانحسار موجة الاستعمار بصفة عاجلة ، وظنت بمنحها الوطن الذى برهن على أنه بلغ مستوى معينا من المدنية بطاقة باسم « بطاقة الاستحقاق » كى يباشر بعض حقوقه المدنية كإنسان حر سنة ١٩٤٨ لتدل على أنها تمحو التفرقة العنصرية ، ولم يزد الذين استطاعوا الحصول على هذه البطاقة فى العام عن ١٥٠ شخصاً ، وانتهى المطاف كرد فعل للكبت والعنف إلى نشاط الجمعيات السرية ضد البيض وإلى نشاط النقابات المهنية للمطالبة بحقوق العامل الإفريقى ومساواته بالعمال البيض ، وبدأت تنهار حواجز العزلة وسياسة الخضوع للحاكم واندلعت الاضطرابات فى يناير ١٩٥٩ فى ليوبولدفيل وقتل العديد من الإفريقيين وتعذر على الحكومة البلجيكية القبض على زمام الأمور ووعدت فى جدية بإقامة حكم ديموقراطى فى الكونجو فى أسرع وقت

ممكن ، وعقدت مائدة مستديرة فى فبراير سنة ١٩٦٠ مع الزعماء الإفريقيين ، ثم أعلن استقلال الكونجو فى أول يوليه سنة ١٩٦٠ ، وسرعان ما قامت حكومة مركزية وطارد الشعب البيض والضباط البلجيكيين وأخذ يجبرهم بحق على مغادرة البلاد التى استنزفوا دماءها وثرواتها ، غير أنه قد صاحبت الحركة الوطنية تصارع القبائل تبعاً لدسائس الاستعمار وعمت الفوضى ، وحاول الاستعمار البقاء دفاعاً عن أمواله التى اغتصبها من الشعب ووظفها فى كاتانجا وسواها مما أدى إلى تدخل الأمم المتحدة ، ولم تنجح قواتها التى أوفدتها لحفظ النظام النجاح المرجو منها ، وتستقر الأمور فى الكونجو ثم تعود إلى الاضطراب غير أن العامل الغالب اليوم هو انتهاء الثورة وكذلك حركة انفصال كاتانجا التى أيدها جنود من المرتزقة وباركها الغرب حلما بالماضى الذى أفل نجمه ، ولكن الاستعمار لا يزال يأمل فى أن يعود إلى هذه البـــلاد الغنية بمعادنها وغاباتها من النافذة سرا على أساس الاستعمار الجديد Nèo Colonialisme الذى سنشرحه فيما يلى ، ويقف العرب وعلى رأسهم شعب الجمهورية العربية المتحدة وشعب الجزائر وشعب السودان فى صف حركات التحرير فى الكونجو وغيره من الدول الإفريقية ولطرد صنائع الاستعمار وعملائه من الحكم هناك ولمساعدة أهل البلاد على تسلم مقاليدها السياسية دون منازع وعلى استغلال موارد ثرواتها دون شركاء يريدون أن يستأثروا بنصيب الأسد منها .

والاستعماران البرتغالى والأسبانى وخاصة الأول يشبهان الاستعمار البلجيكى فى تسلطهما المباشر مع المبالغة فى ذلك ، غير أن الاستعمار البرتغالى يتبع وسائل اليأس اليوم فى سياسة السخرة حيال المحكومين ويخيم على ممتلكات البرتغال سبات عميق ، وتعتبر مستعمرات البرتغال بحكم القانون الاستعمارى للحكومة المركزية فى لشبونة مقاطعات تتبع الدولة مباشرة ، وهو يفرق فى المعاملة بين البرتغاليين والمحكومين الملونين الذين يحرمون من التعليم وكافة وسائل المدنية

الحديثة والعناية الصحية والأعمال الجازية حتى يظلوا فى مستوى منخفض ولا يستطيعون رفع رؤوسهم ، ونسبة من لا يعرف القراءة والكتابة من أهل البلاد أكبر نسبة فى أفريقيا ، ومعظمهم يؤدون أعمال السخرة مقابل إطعامهم، والحكومة المتسلطة تتصرف فى أنجولا وموزمبيق وغيرهما وكأن الأهلين متاع ملحق بالأرض ولا كيان لهم ، ويبلغ عدد الذين يقومون بالسخرة فى موزمبيق نحو نصف مليون نسمة ، ويحتم القانون أن يباشر الرجل السخرة اجباريا ستة شهور من العام ، وهكذا يصل الإفريقى فى هذه المستعمرات المنكودة الطالع إلى أحط درجات الانسانية والبون شاسع بينه وبين الأوروبى أو الإنسان الحر ، ويدرك الإفريقى تماما أنه لن ينال حقه إلا بالقوة والعنف مما يحدوبه إلى القيام بحركة مقاومة مستمرةوإلى تنظيم جبهة سرية للثورة ، وتتبع الإدارة الاستعمارية سياسة البطاقات لبعض الأهلين ممن تنتقيهم فتمنحهم بطاقات مدنية باعتبارهم على قدر من المدنية بحكم من المحكمة المحلية ، وذلك كى يمكن معاملتهم معاملة قريبة من البرتغاليين المستوطنين ، وعددهم ضئيل ويشترط أن يثبتوا أنهم يتكلمون البرتغالية ويعرفون القراءة والكتابة وانهم كاثوليك ولهم بعض الممتلكات ، وعليهم أيضاً أن يبدوا استعدادا للعيش على الطريقة الغربية لا الافريقية .

ولا تزال لاسبانيا فلول مستعمرات بقيت من مجد الإمبراطورية القديم الشامخ وقد كانت لا تغيب الشمس عنها فاضحت اليوم فى غروبها ، وتحكم حكما مباشرا ويدير المستعمرات حكام بوسائل عسكرية ، وهذه الممتلكات صحارى وفياف ويتطلب التسلط عليها فى نظر الأسبان السهر المستمر على حدودها والحجر على تنقلات الأهلين وقوافلهم عبر رمالها واخضاعهم بالقوة إذا تطلب الأمر لشدة مراس المحكومين وشممهم وهم من أصول عربية أصيلة .

ثانيا — الاستعمار الجديد :

طوى الاستعمار الاقتصادى التقليدى اليوم أو كاد كطى السجل للكتاب ليصبح ماضيا فى تاريخ الإنسانية بآلامها ومآسيها ، وانحسرت موجاته العاتيات فيما عدا بعض مناطق محدودة عن القارة وجلت معظم الجيوش المحتلة ، ولكن لاتزال القوى الاستعمارية الغربية تطمع فى استمرار استغلال القارة بوسائل جديدة ، كما ترغب بشدة فى اتخاذها قاعدة استراتيجية لحروبها ومرتعا خصيبا لاستيطان البيض فيها ولدسائس السياسة وهى بفضل موارد أفريقيا فى الرجال والمواد الأولية والحاصلات والقوى الكهربية والبترول والنحاس ومعادن الألومنيوم والكوبالت واليورانيوم والفوسفات والمانجانيز والزيوت والأخشاب وغيرها تحلم بقبضها على زمامها فى استمرار سيطرتها على الأسواق العالمية والسياسة الدولية .

وانبلج صبح استقلال القارة وتضامنها بحكم التطورات العالمية وكفاح شعوبها واشتداد وعيهم فى ظل اتخاذ الرأى العام العالمى مكانا مرموقا فى السياسة الدولية ولم يبق من الاستعمار الافلول الحكم البرتغالى والأسبانى ، ولكن لاتزال القارة معرضة لخطر الاستعمار فى صوره الجديدة ، مع ملاحظة أنها لاتزال فى نعومة أظفارها مما يجعلها فى خطر دائم من مكائد ودسائس وضربات الغرب ، ولقد خرج الاستعمار من القارة ولكنه لم يسلم بالهزيمة وأن كان قد اعترف بنهاية الاستعمار فى صور احتلال وحكم للشعوب بالقوة ورغم أنوفها ، وهو يباشر استمرار تمليك المناجم والمزارع والشركات والمؤسسات التجارية للغرب ويأمل فى تحقيق شتى المشروعات الاقتصادية مسقبلا ويستمر فى استثمار رؤوس أمواله فى القارة ، لذلك هو فى سبيل استمرار نفوذه فى صور جديدة ، ويتعرض العرب لهذا الخطر شأنهم شأن الإفريقيين مما يملى عليهم

ضرورة تقاربهم وتعاونهم مع سـائر الشعوب الإفريقية لإحباط خطط الاستعمار الجديد .

وكذلك للشعوب الإفريقية حكوماتها الوطنية واعلامها وقواها العسكرية وبعثاتها الدبلوماسية غير أن الكفاح فى سبيل تدعيم الاستقلال طويل وشاق، ولاتزال الروابط الاقتصادية والمالية قوية بين الغرب والدول الإفريقية المحررة حديثا ولايزال الاقتصاد الاستعمارى فاغرا فاه هناك كالأله « مولوخ » يبتلع ثروات الأهلين وعرقهم وقواهم فضلا عن عمله على تأصل النفوذ السياسى العسكرى والفكرى للغرب فى القارة ، وإذا كان الاستعمار التقليدى قد منى بالهزيمة هناك فهو يحاول أن يتخذ قالبا آخر وليد تطور الحياة السياسية للعالم الرأسمالى وشدة تمسك الإمبراطوريات السابقة بمناطق نفوذها التى سبق أن جلت عنها قسرا ، وإن مؤتمر باندونج وقراراته لسنة ١٩٥٥، ثم مؤتمر الشعوب الإفريقية الذى عقد فى مارس سنة ١٩٦١ فى القارة عرضا لما أحرزته الشعوب المغلوبة على أمرها فى آسيا ثم فى أفريقيا من انتصارات وتقدم فى معركة الاستعمار ترتب عليها تحقيق استقلال الشعوب الآسيوية ثم الشعوب الإفريقية، وانتهيا بنتيجة هامة وهى ابراز خطر الاستعمار الجديد Nèo Colonialisme الذى يهدد القارتين الكبيرتين وهو استعمار غير مباشر ، ويتطلب الأمر ضرورة استمرار الكفاح لتحطيم سلاسل التسلط والاستغلال على أساس تضامن الشعوب الشقيقة والصديقة لهذه الغاية .

ولقد سلمت الإمبراطوريات الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية اضطرارا بحقوق الشعوب التى حكمتها فى الماضى قسرا كما سبق أن بينا نتيجة العوامل الآتية :

١ — ضغط الحركات الوطنية واشتداد الوعى القومى لدى الشعوب

المستعمرة نتيجة الـكبت والتفرقة العنصرية والاستغلال ، وقد تحولت إلى ثورات سياسية بقيادة زعامات ناجحة فى آسيا وأفريقيا الاسيا بعد الحرب العالمية الثانية ، وعلى رأس الزعماء الوطنيين الصادق الاخلاص الشديدى المراس الرئيس جمال عبد الناصر رائد العروبة والتضامن الأفريقى والاشتراكية العربية ، هذه الاشتراكية التى ستظل منار التحرير فى القارة الناهضة ، كما لا ننسى سائر الوجوه والزعامات الأفريقية وكفاحها فى سبيل تصفية الاستعمار وتحقيق الاشتراكية الأفريقية ، وما لاقوه من عنت وسجن واضطهاد فى سبيل غاياتهم النبيلة .

٢ ـــ تطور القانون الدولى واتجاهه نحو ضرورة احترام حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها وتحقيق ماصدر فى مناسبات عدة بانهاء الاحتلال وتصفية القواعد التى تتخذها لصالحها ومطامعها الامبراطوريات الاستعمارية فى آسيا وأفريقيا وتأييد ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الانسان لسنة ١٩٤٨ فى المساواة بين الأفراد والأجناس والشعوب وتأكيد الحقوق الأساسية للانسان وكرامة الفرد وقدره وضرورة عيش الناس فى سلام حتى لا يتهدد الأمن الدولى ولا تتكرر مأساة الحرب العالمية التى جلبت على الانسانية آلاما يعجز عنها الوصف ، والعمل على رفع مستوى الحياة المعنوية والمـادية فى جو فسيح من الحريات ، وترقية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية لـكافة الشعوب .

٣ ـــ قوة الرأى العام ، فقد أنتهى العهد الذى كانت الحـكومات ابانه تتصرف بمعزل عن الشعوب، وتـكتفى بمناورات المجالس النيابية وقد لا تلجأ إليها لتضم أراض جديدة، وتمادى فى بطشها وتغالى فى سياستها الاستعمارية باسم رواج التجارة الخارجية ونشر الويتها ويقصد بـكلمة تجارة فتح الاسواق لمصنوعات الغرب فيما وراء البحار عنوة إذا تطلب الامر ذلك والحصول على المواد الاولية بابخس الأسعار من المستعمرات ، وكانت الإمبراطوريات الاستعمارية تظلم الشعوب

الحكومة وترسل الحملات لتأييد الاحتلال والتوسع فى الاستعمار ، ولكن أصبح يحسب اليوم للرأى العام ألف حساب فى الميدانين القومى والدولى ، ورأينا الأحزاب الاشتراكية فى عقر ديار الإمبراطوريات الاستعمارية تهاجم تصرفات حكوماتها التى لا تتفق مع العدالة وحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها وميثاق الأمم المتحدة ، واتضحت أهمية الرأى العام فى أزمة السويس سنة ١٩٥٦ فقد هاجم فى صميم ديار الدولتين الاستعماريتين انكلترا وفرنسا الأعتداء على أرض مصر وطالب بوجوب الكف عنه وانسحاب قوى العدوان وكذلك فى حرب الجزائر الفرنسية الاستعمارية ضد قوات التحرير العربية ، وشحذ كبار كتاب وعلماء وأساتذة الجامعات والأدباء إقلامهم لتأييد استقلال الجزائر وطالبوا الحكومة الفرنسية بوجوب إنهاء الحرب وضرورة الجلاء عن البلاد وتسليمها لبنيها العرب ، وكسبت القضية جل الرأى العام لمصلحتها وطرحت على الأمم المتحدة التى اتخذت وضعاً لصالح مكافحى الجزائر وانتهى الأمر باستقلالها رغم أنف الاستعمار فى اتفاق افيان سنة ١٩٦٢ .

٤ — التطور الحتمى للتاريخ والأحداث : وهـذا التطور يمليه سير عجلة الزمن إلى الأمام وتعذر القهقرى ، ويضاف إلى ذلك ما خلفته الحربان العالميتان من مشاكل وأزمات اقتصادية واجتماعية ، وأصبحت نفقات الاحتلال باهظة تثقل كاهل الدول المتسلطة فضلاً عن اضطراب ميزانياتها وعملاتها وارتباك اقتصادياتها ، وما أحدثته فى نفس الشعوب المستعمرة مرارة عدم تحقيق مطالبها التى وعدت بها فوراً بعد الحرب ولم تحققها ، مما أدى إلى اندلاع الثورات التى ظهرت بوادرها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ويضاف إلى ذلك كشف النقاب عن أوروبا فى الحربين العالميتين وظهورها على حقيقتها من الضعف ، وهكذا صممت الشعوب الإفريقية ازاء سوء نوايا الدول المتسلطة على فك أسارها وقد رأت قوى الامبراطوريات تترنح فى ميادين المارن والسوم والموز وسهول روسيا

ومختلف الجبهات الغربية والشرقية ، وتأكدت من خطل فكرة سيادة الرجل الأبيض وتفوقه فى الحضارة على سائر الشعوب وادعائه بالباطل رسالته السامية فى سبيل التسلط عليها واستنزاف أموالها ، وذلك علاوة على النمو الفكرى والوطنى والسياسى للعديد من رجال القارة الشابة وقيام صفوة واعية فى ديارها بما فى ذلك ديار العرب واستعدادها لتقبل الافكار الإنسانية الجديدة والمضى قدماً فى تنميتها وهضم مقومات الحضارة الغربية وتفهمها ، ولإدراك أسرار هذه الحضارة أهمية كبرى فى مقاومة الاستعمار إذ لا يفل الحديد إلا الحديد .

٥ — اطراد تزايد عدد السكان : لم يعد مجال للأوروبى المغامر والمستعمر فى العيش والكسب العريض على حساب الأهلين على ضفاف النيل وفى شمال إفريقيا كما كان الوضع فى القرن الماضى ، إذ تكتظ المدن بسكانها ويشتد التزاحم على الرزق وينمو عدد سكان الريف باستمرار ، ولا يصحب نمو السكان القدر اللازم من توفير العيش للافواه الجديدة فإن سباق الزمن لا هوادة فيه وتهاون ، وبذا يشعر الوطنى أن رزقه محدود وينتزع كسبه فريق من المتسلطين وصنائعهم وهم قلة ناعمة البال فى رغد من العيش وربح وفير مستمر ، بينما أن أهل البلاد ينحدرون إلى هاوية التأخر والفاقة ويشتد صراعهم على لقمة العيش ، وأصبحت مشاركة الاجنبى للوطنى فى كسبه تزيد فى غليان الافكار وتهدد بانفجار المرجل ولم تجد إضافة أراض وموارد رزق وصناعات جديدة إلى البلاد النامية فإنها لا تسد الحاجة ولا تساعد فى رفع مستوى المعيشة فإن تزايد السكان يذهب إلى حد هندسى بينما تزايد الرقعة المنزرعة وتفتح أبواب الكسب لا ينموان إلا بطريقة حسابية ، وآن الأوان فى هذه الحالة لان يرحل الغاصب عن البلاد رضا أو قسراً وخير له أن يرحل طواعية ليفسح مجال الكسب لاهل البلاد والتعاون معهم مستقبلاً ، من أن تنتزع موارد ثرائه التى حصل عليها بالحيل والاغتصاب انتزاعاً ، وحتى يمكنه أن يتبادل المنافع مع الشعوب المحررة حديثاً على قدم

المساواة بدلاً من التنافر والشقاق وخسرانه كل شيء .

ولقد بدأت الدول الاستعمارية على اختلافها فى اتساع الموارد ووفرة السكان والقوى العسكرية تتقهقر فى ميدان الاستعمار وفى التسليم بالحقوق السياسية للشعوب الإفريقية وذلك كما سبق أن شرحنا نتيجة ما منيت به من ضعف فى الحرب التى استنزفت قواها الاقتصادية وغيرها وبدء انهيار الرأسمالية الاستعمارية وما أصيبت به المدنية الغربية من وهن ، ولم تعد تستعمل كلمة إمبراطورية أو مستعمرة رسمياً ، فاستخدمت إنكلترا لإغراء الشعوب التى كانت تحكمها الكومنولث ، وفرنسا الاتحاد فالجماعة الفرنسية واستعملت البرتغال تبعاً لسياسة عناد الضعيف وقسوته كلمة أراض ومقاطعات ما وراء البحار واتخذت أسبانيا نفس السبيل ، وهو اتجاه أوحى به تطور التاريخ والطعنات النجلاء التى أثخنت بها الشعوب المحتلة المحرومة من حرياتها وحقوقها السياسية فى ثوراتها المتتابعة الرأسمالية الاستعمارية .

غير أن الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة فى يأسها من البقاء على حالها من التسلط وضرورة جلاء قواتها عن البلاد الإفريقية التى سبق أن حكمتها تقوم بمحاولات جديدة فى سبيل الإبقاء على سلطانها دون اللجوء إلى أساليب الاحتلال التقليدية إذ لم تعد طاقتها تتحمل الأعباء العسكرية الثقيلة ، بينما أن حاجاتها لسد نهم بنوكها ومشروعاتها وتجارتها الخارجية ملحة بعد إغلاق أبواب أوروبا الشرقية والصين والاتحاد السوفييتى فى وجهها ، ويزيد عدد سكان أهل البلدان التى فقد الغرب فيها الأسواق والنفوذ على ألف مليون نسمة وهو نحو ثلث البشرية ، ومحاولات الامبراطوريات الاستعمارية السابقة استعماراً جديداً غير مباشر وليد الظروف ، ولم تعد تستطيع اتباع الوسائل البالية كالاحتلال وإرسال الحملات ومطاردة القوات الوطنية ونصب المشانق لإرهاب الوطنيين

والفتك بهم عند اللزوم باسم نشر السلام واستتباب الأمن فى المستعمرة أو المحمية كما سبق أن فعل فى حرب الريف التى شنتها فرنسا وأسبانيا ضد القوات المقاتلة الباسلة لقبائل الريف الثائرة بقيادة الأمير عبدالكريم سنة ١٩٢١، واستمرار تنكيل الاحتلال الفرنسى بزعماء مراكش المحمية بشنقهم علناً باسم نشر السلام فى ربوع المحمية، وتمادى الانكليز فى إبادة القبائل الثائرة للماو ماو، وكما تمادى المستعمرون فى عمليات الإبادة فى بلاد الجزائر وكذلك فى المحميات فى شبه جزيرة العرب، ولم يعد الاستعمار يستطيع استخدام المبشرين والمستشارين والجواسيس والصنائع والمنتفعين والمحتالين والمماثلين لسياسته من رجال الاقطاع وزعماء القبائل وللموظفين ضعاف النفوس، ولم يعد الاستعمار يرتكز كما كان فى الماضى على المحافظين والمتعاونين مع الاحتلال فى سبيل تحقيق التطور البطىء فحسب، بل صار كذلك يرتكز على من يدعون أنهم أصحاب المصالح الحقيقية من الملاك وذلك فى سبيل توطيد الاستعمار مع الضرب على أيدى الذين يطالبون بالجلاء وتحرير الوطن بلا رحمة.

وكانت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ واتفاق الجلاء لسنة ١٩٥٤ وتدعيمه بالصبغة الوطنية الحقة بتأميم قناة السويس وتصفية قاعدة الاحتلال نهائياً سنة ١٩٥٦ نبراساً لثورة إفريقيا، وبالتالى إعلان استقلال شتى شعوب إفريقيا من ليبيا سنة ١٩٥٢ إلى تونس والمغرب والسودان سنة ١٩٥٦ فغانا سنه ١٩٥٧ فغينيا سنة ١٩٥٨ فالكاميرون سنة ١٩٦٠، وهطل غيث الاستقلال والحرية بالتتابع فى نفس السنة على توجو ومالاجاش والكونجو والصومال وداهومى والنيجر وفولتا العليا وساحل العاج وتشاد وإفريقيا الوسطى وجابون والسنغال ومالى ونيجيريا وموريتانيا، واستمر إعلان الاستقلال وانسحاب الاستعمار سنة ١٩٦١ من سيراليون وتانجانيقا وبورندى ورواندا، ثم الجزائر وأوغنده وزنزبار وجامبيا وزامبيا ابتداء من سنة ١٩٦٢ وهكذا . .

وتغيرت خطط الدول الاستعمارية إلى سياسة الاستعمار غير المباشر دون ما حاجة إلى الاحتلال العسكرى السافر المتغلغل فى الإقليم المستعمر ، وتبرأت من رجال الإقطاع ومن يدعون أنهم أصحاب المصالح الحقيقية ، واتجهت إلى الطبقات المثقفة الواعية لتنشىء جيلا منها تدربه للوقوف فى صفها بتعليمه فى جامعاتها ومصانعها ومدارسها مع كسبه أيضاً بواسطة مكاتب الإعلام وإلى بعض رجال المال والصناعة والأعمال ، بل وكذلك إلى ميدان العمل والفنيين، وتحاول أن تغريهم بالصفقات والمعونات لصالح اقتصادها فيما تزعمه .

ونرى استقلالا للبلدان المحررة حديثاً والتى تسعى نحو النمو ورفع مستوى معيشة أفرادها بحكومات وطنية ، وزراؤها من خيرة الرجال المثقفين ومتفتقى الذهن فى البلاد ، غير أنه مشوب بقواعد عسكريه، ونرى مزايا اقتصادية تحصل عليها الدول الاستعمارية السابقة من بعض الحكومات الجديدة القليلة الخبرة ، ونرى فى ديارها العديد من الخبراء والفنيين وأعضاء البعثات الاقتصادية وهم يوجهون بطريق مستتر سياسة البلاد ، مثال ذلك كوبا قبل ثورة كاسترو والفلبين وبعض بلدان الشرق الأوسط وخاصة قبل مسيرة شعوبها على أثر ثورة يولية سنة ١٩٥٢ فى طريق ثورتنا الناجحة وعدد كبير من البلدان الإفريقية وفى طليعتها الكونجو ، كما يستمر تصدير الأموال والخبراء لاستغلال مناجم وأراضى وغابات ومساقط مياه القارة .

وهكذ يستمر الغرب فى وضع يده على أدسم أصقاع العالم ويضمن أسواقاً تعوض ما سبق أن فقده فى أوروبا الشرقية وآسيا ، كما يحصل نتيجة تغلغله الاقتصادى على امتيازات مالية وجمركية شتى ويستأثر بالتصدير والاستيراد ويحول فى مواقف عدة دون التأميم الذى يقضى على سياسته الاستعمارية الاقتصادية ، ويعزز هذا السلطان بقواعد عسكرية مع إشاعة الاضطراب

والفوضى فى الحياة السياسية لهذه البلدان الحديثة التجارب بمناوراته ، وبذا يتحول تدخله الخفى إلى تدخل سافر بين حين وآخر على وتيرة أحداث الكونجو وأصبع بلجيكا فى إنشاء حكومة انفصالية عن الدولة الحديثة النشأة برئاسة تشومبى فى كاتانجا ظلت نحو ستة شهور ، وتكبدت الحكومات المركزية تضحيات كبيرة لإعادة الأمور إلى نصابها وإنهاء هذا النظام غير المشروع الذى اختطه فى الخفاء الاستعمار البلجيكى لصالح شركاته الاحتكارية .

ويعترف بعض قادة الغرب بانتهاء الاستعمار التقليدى ، غير أن هذا لا يمنع من القيام بمحاولات جديدة لولوج هذه الديار الغنية بمواردها لاستمرار بقاء الغرب فى مستوى الترف الذى يتمرغ فى ديباجه ، وقال «دى جول» فى خطاب له فى بليدا بالجزائر فى القوات الفرنسية والمستوطنين فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٦٠ أثناء استعار اوار حرب التحرير ضد فرنسا المستعمرة « ... إن هذه الثورة التى يقوم بها أهل الجزائر اليوم أعطتهم إعتداداً بالنفس لم يك لديهم قبل ، ولا يمكن إيقاف هذا التيار ، وقد أصبح عالم اليوم بعيداً عن عالم أمس الذى عرفته حينما كنت شابا ، ترون كافة التيارات المتشابكة للتحرير التى تكتسح العالم اليوم من أدناه إلى أقصاه ، وقد اكتسحت أملا كنا فى إفريقيا السوداء واكتسحت كافة الأراضى التى تتكون فيها الامبراطوريات يوما ما وستكون لهذا التغيير آثاره البالغة » ، وقال الوزير البريطانى ما كميلان فى خطاب له بمدينة الكاب فى اتحاد جنوب إفريقيا فى ٣ فبراير سنة ١٩٦٠ « إن مما كان له أثر شديد فى نفسى حينما كنت قد تركت لندن من شهر ، هو قوة الوعى القومى الإفريقى وإن رياح تغيير الوضع القائم تهب على كافة أنحاء القارة ، وسواء سرنا على هذا الدرب أم لم نسر فإن نمو الوعى القومى حقيقة سياسية يجب علينا أن نقبلها كأمر لا مفر منه ، ويجب أن نقيم اعتبارا لها فى رسم سياستنا القومية » ، وإن ديجول وما كميلان وغيرهما من ساسة الامبراطوريات الاستعمارية السابقة لا يسرهم تغيير

وجه العالم لصالح الشعوب المهضومة الحقوق ، غير أن الحريات الاشتراكية وحقوق السواد المكافح فى أمريكا وإفريقيا وآسيا تتحقق يوما بعد يوم .

وتتبع الامبريالية سياسة التحالف التى سبق أن رسمتها الطبقة القيادية ، فى بريطانيافى القرن الماضى،وهى من أقدم الطبقات ذات الخبرة فى السياسةوالقيادة، وقد صادفت أعاصير لاحصر لها على مر القرون وشاهدت الاستعمار فى ذروته وهى اليوم تبكيه فى سقوطه من عليائه ، وهذه السياسة تتلخص فى عبارة مشهورة قيلت بمناسبة فشل هـذه الطبقة فى تحطيم النقابات حينما تاسست فى إنكلترا وكانت فى نعومة اظفارها ، وهى « إذا تعذر إنهزامالنقابات وضربها الضربة القاضية فلتلك الخطة المثلى هىالتحالف معها » ومادامت الامبراطوريات الاستعمارية لا تستطيع تحطيم الحركات الوطنية فى إفريقيا فلتعمل السياسة بإيعاز من الاحتكارات وبيوت المال والأعمال على التأثير فى هذه الحركات وجذبها لصفها حتى تكسبها للكتلة الغربية وتجعلها تدور فى فلكالامبريالية ، والخطة هى اتباع طريق الاستعمار الجـديد غير المباشر والتسلط المستتر بالوسائل الآتية : —

١ — التظاهر بالتحالف مع الحركة الوطنية والاتفاق يكونأساساً مع طبقة معينة تؤيد الحركة الوطنية لا مع سواد الشعب الذى يحس بالخطر ولا تسلس قيادته للاستعمار وذلك على حساب العمال والتقـدم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وللتحالف صوره المتعددة وأهمها تغذية الأداة الإدارية وعلى رأسها القوة الحاكمة بالخبراء والفنيين الذين يصبحعملهم رسم سياسة جديدة للاستعمار تتمشى مع التطورات والحركات القومية للتحرير وفى الوقت ذاته تؤيد المصالح الاقتصادية والسياسية للامبريالية ، مثال ذلك تعيين حاكم بريطانى وقد يكون هو الحاكم السابق فى أول خطوات إعلان استقـلال المستعمرة كما حصل فى سيراليون ، وأشار نكروما إلى هذا الخطر فى كتابه عن تاريخ حياته ، وبين

إلى أى حد يعرقل هـذا التحالف القرارات التى تتخذها الحـكومة الوطنية لصالح الشعب ، ونصح بضرورة إخراج رجال الإدارة القدامى من الحـكومة بمجرد تولى الحـكومة الجديدة الحـكم ، وذهب إلى قوله « إن تجاربى الشخصية علمتنى أن الحـكومة الثورية إذا لم تتبع هذه الوسيلة فإنها تتعرض إلى الانهيار » وتعد الحـكومات الاستعماريه العدة لخبرائها الذين سيعملون فى مستعمراتها السابقة التى تحررت بتمرينهم فى معاهد متخصصة لإعداد الموظفين الفنيين والإداريين لبلدان ما وراء البحار، وبلغت ميزانية هذه الهيئة فى بريطانيا سنة ١٩٦١ نحو ٣٠ مليون جنيه لإعداد وتدريب ألف موظف فنى ، كما أن فرنسا تقيم سياسة تعاونها مع مستعمراتها السابقة التى تحررت على أساس تمرينهم فى معاهد الإدارة ودراسات ما وراء البحار ودخولهم المسابقات لتقـلد اللائقين منهم الوظائف الفنية التى تدخل فى صميم اختصاصاتهم .

٢ — إقامة بعض القواعد العسكرية لتحيط بالأقطار المحررة حديثاً بأطرافها التى تبعد عن صميم المدن والعمران حتى تظهر بمظهر أنها لاتجرح شعور الأهلين وتمس مظاهر الاستقلال ، ولا يقسم الوضع بالاحتلال الذى ولى وذلك بالاتفاق مع الحـكومات المستقلة على أساس شروط وتفاهم القوى مع الضعيف ، ونذكر القواعد العسكرية فى ليبيا وبنزرت سابقاً وعدن وقبرص وبعض مناطق المغرب والجزر الإفريقية ، ويضاف إلى ذلك نشاط البعثات العسكرية لدول الاستعمار وقد أفل نجمها اليوم، ومهمتها تدريب الجيوش وأسلحة الطيران بواسطة الخبراء الفنيين وتنظيم الـكليات العسكرية والبحرية والجوية وفق أسس استعمارية ، ولصالح السياسة البريطانية متلاوحى المال والأعمال فى السيتى فى لندن ، ودفعت نيجيريا وسيراليون ثمن استقلالها فى بادىء الأمر بعقد اتفاقات عسكرية مع بريطانيا ، غير أن يقظة شعب نيجيريا واحتجاجاته ومعارضته الحازمة ترتب عليها العدول عن الاتفاق مع المحافظة على المصالح العسكرية لبريطانيا هناك ،

ويلاحظ أن الاستعمار البريطانى وغيره يعمل مرتكزا إلى بعثاته العسكرية على احتكار توريد الأسلحة وتموين الجيش والبوليس فى البلاد التى سبق أن حكمها فضلا عن نفوذه فى الجيش بضباطه من الخبراء وبذا يضمن بسط رقابته المحكمة عليها ويصبح الاستقلال بالاسم لا بالفعل ، ويمكن للدولة الاستعمارية عن طريق القواعد العسكرية والخبراء الحربيين وضباطها فى الجيش والبوليس والمدارس العسكرية ومن دربته من أهـــل البلاد والمنتفعين أن تعد العدة لانقلابات عسكرية وثورات لصالحها ، ومما يزيد فى خطورة الموقف البعثات العسكرية والفنية لإسرائيل فى بعض دول إفريقيا السوداء وخاصة فى غرب القارة وقلبها واشتراكها فى تدريب الجيش وتنظيم المدارس العسكرية وبناء المطارات والموانىء ودور الحكومة والثكنات .

٣— اتباع وسائل دعاية قوية لتأييد وجهة نظر الامبراطوريات الاستعمارية السابقة وللدفاع عن مصالحها السياسية والاقتصادية وقواعدها العسكرية ، وضمن هذه الوسائل شراء كبريات المؤسسات الصحفية فى لندن للصحف الإفريقية اليومية وللمجلات الأسبوعية لإمكان توجيهها وفق صالح بريطانيا ، والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها شراء جماعة الديلى ميرور سندى وديلى جرافيك فى غانة وديلى تايمز وسندى تايمز فى نيجيريا وديلى ميل فى فرى تاون وحيازة مؤسسة تومسون لديلى اكسبرس وسندى اكسبس ومجلة سيرفس الأسبوعية بنيجيريا ، كما انشئت علاقات مع الشركات المساهمة الكبيرة لصحف شرق إفريقيا فى كينيا وتنزانيا وأوغنده ، ولا تغفل كبريات هذه الشركات سيطرتها على الإذاعة وشركات نشر الأنباء ، ويضاف إلى نشاط السيطرة على الصحافة الاهتمام بمكاتب ومراكز الأعلام ومعارضها ومكتباتها العامة والمعاهد الدراسية لهذا الغرض ، ويهتم المجلس البريطانى بالدعاية للغة الإنكليزية وللجامعات لندن ، وله عدة فروع فى العواصم الافريقية وانشأت وزارة الخارجية

البريطانية مراكز للاعلام فى داكار وليوبولدفيل وإبيجان وبرازافيل ، وبلغت نفقات إدارة التعاون الفنى مع الدول الافريقية لسنة ١٩٦٢ لخدمة الأعلام فيما وراء البحار ٢٢ مليون جنيه استرلينى ، وتتبع فرنسا وسائل مماثلة لهذه الدول ، وتنتشر فى عواصم البلدان التى سبق أن حكمتها واستعمرتها مدارسها ومكاتبها الثقافية ، وتنسج على نفس المنوال الولايات المتحدة الأمريكية ووجهتها الحلول محل الدول الحاكمة سابقاً ، ومكاتب الأعلام والمكتبات والمدارس ظاهرها خدمة الشعوب وحقيقة الأمر الاهتمام بها لتسخيرها لأغراض الاستعمار وغرس الأفكار التى تتفق مع صالح الاستعمار والاحتكارات والشركات الكبرى ، وتنعت الدول الغربية الشعوب التى تحررت حديثاً بالشعوب النامية ، غير أنها تنمو ظاهراً مع إصابتها «بالاينميا» تبعاً لسياسة الاستعمار القائمة على النهم والطمع الأشعبى لتسمن مشروعاته وصناعاته على حساب هذه الشعوب ولتنتفخ جعبات مصارف الغرب .

٤ — اتباع أساليب ملتوية للوصول إلى أغراض اقتصادية معينة لصالح الاستعمار الجديد وذلك بالإبقاء على نظام توظيف أموال الاستعمار فى المشروعات الإفريقية وتثمير موارد الثروة وإنشاء شتى الصناعات وإصلاح الأراضى لمواجهة حاجات الآهلين — وهم فى طريق النهوض بمستواهم المعنوى والمادى مع اضطراد تزايد عددهم — فى الغذاء وسائر سلع الاستهلاك الضرورية دون إعدادهم لمجابهة الصعوبات التى تجابه الدول المستقلة حديثاً وتدريبهم على مقاومة المنافسات الاقتصادية الاستعمارية للدول التى تريد أن تشترك معها فى الغنيمة ، وهناك سباق بين الاستعمار الأمريكى والفرنسى والانكليزى والألمانى واليابانى بل والاسرائيلى لكسب الامتيازات وإنشاء المشروعات وبناء المصانع وتشييد الموانىء ودور الحكومة والقناطر والسدود وشق وتعبيد الطرق وإصلاح الأراضى البور ونقل الحاصلات فى مختلف بلدان القارة التى تحررت حديثاً .

وتبذل رؤوس الأموال الأجنبية التى تضمن الكسب العريض الجهد لتعويق أعمال التأميم ولفتح الأسواق للمصنوعات الغربية مع الحصول على المنتجات الإفريقية والاستئثار بها عن طريق الاحتكار بأبخس الأسعار .

وفى مقدمة الهيئات التى تسعى إلى الحصول على منتجات إفريقيا الزراعية وحاصلاتها المعدنية وأخشابها وزيوتها وجلودها وغيرها بلدان السوق الأوروبية المشتركة عن طريق هذه السوق والدول الإفريقية الحديثة الاستقلال والمتعاونة مع السوق ، ويعمل الاستعمار الجديد لتحقيق هذه الغايات عن طريق الابقاء على الطبقة الثرية الرجعية التى حلت محل طبقة الاقطاعيين ولها مصلحة فى التحالف مع الاستعمار والوقوف فى وجه الاشتراكية الإفريقية وتحرر العمال من الاستغلال وإلا يسخر الإنسان للإنسان ليغتصب جهده، وتباشر انكلترا نشاطها فى الحقل الاقتصادى للتعدين والنقل البحرى وأعمال البنوك والتأمين والتجارة واستغلال المزارع الواسعة مما حدا بغانا نتيجة مبالغة المؤسسات الانكليزية فى استغلال الجماهير إلى اتخاذ إجراءات حازمه لشراء خمس شركات من السبع الخاصة بمناجم الذهب هناك وكانت تمتلكها الشركات الانكليزية وشراء الأسهم البريطانية للطيران المدنى والمواصلات السلكية واللاسلكية ، ويسعى الاستعمار البريطانى الجديد لحماية مصالحه فى غانا ونيجيريا وسيراليون حيث لا توجد جالية بريطانية كبيرة العدد إلى اجتذاب الطبقة البورجوازية الميسورة الحال إلى صفه والتعاون معه مع الأبقاء على فلول أصدقائه القدامى من الإقطاعيين إذا أقتضى الحال ذلك ، وبذا يمكنه أن يناوىء الحكومات الوطنية ويضمن رسوخ أقدام الرأسمالية المستغلة لصالح النفوذ الأجنبى ، ومهد الاستعمار البريطانى للبورجوازية المكتبية bureaucratie التى يعدها لصفه لتؤيد الرأسمالية المستغلة فى كنف النظام الاستعمارى الجديد ولتصبح بعيدة فى روحها وتقاليدها عن سواد الشعب

فى وضع جدول مرتبات ومكافآت وأجور عالية للوزراء وكبار الموظفين وأعضاء المجالس التشريعية وتابعيهم فى الأقطار التى كان يحكمها وتبلغ من ثلاثة آلاف جنيه للوزير إلى ألف جنيه لعضو المجلس التشريعى سنوياً ، وقد تكون هذه الأجور أقل قليلا من مثلها فى الغرب إلا أنها مرتفعة إذا قورنت بأجور العمال فى إفريقيا .

ولقد سارت الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة كفرنسا وبلجيكا فى نفس هذه السياسة الاستعمارية حتى تعرقل النهوض الاقتصادى للجماعات فى القارة الحديثة النشأة سياسياً التى قد لا يلمس المسئولون فيها لأول وهلة أساليب الخداع الاستعمارى ودسه ووقيعته بين القبائل والعشائر والزعماء والحكومات ، وكثيراً ما تشجر خلافات بين فرنسا والجزائر بشأن استغلال النفط الجزائرى ، كما تسهر ليبيا والمغرب على مصالحها تجاه شركات الاحتكار المنتشرة عندها لاستغلال موارد تربتها ، واشتد الخلاف بين الكونجو واحتكارات التعدين البلجيكية بكاتانجا وقد اتخذت مقرها الرئيسى فى بروكسل حتى يسهل عليها تلقى أوامر المستعمر وتنفيذها والاحتفاظ بالاحتياطى فى العاصمة البلجيكية وكذا بصافى ما تدره الاحتكارات أولا بأول ، وهذا ما لم ترتضى باستمراره حكومة الكونجو الوطنية الحريصة على الدفاع عن موارد البلاد واستخدامها فى أعمال الإصلاح والنهوض بالشعب معنوياً ومادياً لا فى إثراء مترفى أهل البلجيك وغيرهم ، ولما لم تستطع حكومة الكونجو التفاهم مع رجال الاحتكار المستعمرين فإنها قررت فى أول يناير سنة ١٩٦٧ إنشاء الشركة العامة للمناجم لتحل محل اتحاد الشركات الدولى المسمى « شركة اتحاد مناجم كاتانجا » وتصفية هذه الشركة لتحل الأولى محلها ، كما طالبت الحكومة شركة اتحاد مناجم كاتانجا القديمة برد مبلغ ٤٠٠٠ مليون فرنك بلجيكى قبيل منتصف يناير سنة ١٩٦٧ وهذا المبلغ يعادل قيمة صادرات النحاس والكوبالت وغيرها من معادن الكونجو

التى تتجر بها شركة اتحاد مناجم كاتانجا أو الاحتكار ، وهكذا تصرفت حكومة الكونجو كينشاسا تصرفا حاسماً للموضوع ليكون عبرة لسائر الاحتكارات وذلك إزاء إصرار الاتحاد على رفض نقل مقر الشركة إلى الوطن الذى تباشر فيه نشاطها كما تقضى بذلك التشريعات المتمدينة وروح العدالة ، كما تعهدت الحكومة بضمان العمل والوظائف لكافة موظفى الشركة السابقة فى حالة تصفيتها واستمرارهم رغم ذلك فى أداء مهامهم ، وتقدر ممتلكات الشركة فى كاتانجا بنحو ٨٠٠ مليون دولار ، وتشترك فى رأس المال أموال بلجيكية وبريطانية وفرنسية وهى أكبر الشركات المنتجة للنحاس فى العالم ، وردت على هذا العمل العادل من حكومة الكونجو دفاعاً عن صالح الشعب حكومة بروكسل ببيان أعلنت فيه اعتراضها على تصفية الشركة البلجيكية ، وتنصلت من الالتزام بهذا الإجراء وبما ينتج عنه وأنها ستتخذ اللازم لحماية المصالح البلجيكية ، وهكذا شبت حرب النحاس تنذر بقطيعة اقتصادية تامة بين البلدين ، وأمهلت حكومة الكونجو شركة اتحاد المناجم حتى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٦٧ لدفع مبلغ ١٥٠ مليون دولار قيمة النحاس الكاتانجى الذى تمتلكه الشركة خارج البلاد ، وفى حالة عدم الوفاء فى الموعد المحدد فالحكومة الكونجولية ستستولى على جميع ممتلكات الشركة الأم الكبرى المعروفة باسم الشركة العامة La Générale وهى الشركة البلجيكية العامة ذات المصالح المالية الضخمة والتى تسيطر على نحو ٧٠٪ من اقتصاديات الكونجو ، والتى تشارك فى ملكية كل قطاع من قطاعات الشركة البلجيكية فى الكونجو ، بما فى ذلك الجزء البلجيكى من أسهم شركة اتحاد المناجم ، وهذا يؤدى إلى اتساع الخلاف بين الطرفين ويتناول كافة المصالح البلجيكية فى الكونجو ويهدد بانفصام كافة الروابط الاقتصادية بين الكونجو وبلجيكا ، وبدأت شركة اتحاد المناجم تتخذ وسائل انتقامية لترد على تصفية ممتلكاتها الضخمة التى قد تزيد على ٨٠٠ مليون دولار منها التهديد

باتخاذ إجراءات قانونية ضد من يشترى نحاس الكونجو باعتبار أن النحاس الذى تطرحه الكونجو للبيع فى الأسواق العالمية يعتبر مملوكا للشركة ولا يجوز التصرف دون موافقتها، وقد تستطيع الشركة فرض المقاطعة على نحاس الكونجو تبعاً لأن الشركة تسيطر بأحكام على سوق النحاس الدولية، كما أن نحو ١٥٠٠ فنى بلجيكى يسيرون الشركة وفى حالة وقف نشاطهم قد يصعب قبل وقت طويل إحلال غيرهم محلهم مما يشل التعدين فى البلاد، وفى الوقت نفسه يتهدد اقتصاد الكونجو بالانهيار إذ أن هذه البلاد التى استقلت حديثاً وفى حاجة إلى مبالغ كبيرة للتصنيع والتخطيط تعتمد على ما تحصله من نقـــد مقابل النحاس فهو المحصول الأساسى لهذه الدولة الناشئة، ويعادل ٧٠٪ من الدخل الأجنبى للنقد ونحو ٥٠٪ من مورد الإيراد فى الميزانية كما أن نصف صادرات الكونجو من مستخرجات شركة اتحاد المناجم هذه، وإن ماضى الشركة يرتبط بمظالم وآلام الماضى المرير فى الكونجو وبندقة الاستعمار ونيرانه وسياطه.

كما وجهت الاتهامات إلى شركة الاتحاد بأنها تآمرت فى انفصال كاتانجا وفى إعادة تشومبى إلى الحكم وهو من دعاة الانفصال لصالح الغرب، وقد نشأت هناك جمهورية بزعامته دامت ستة شهور وانتهت فى منتصف يناير سنة ١٩٦٣ بعد حرب أهلية سفكت فيها الدماء بغزارة، وعقدت الحكومة العزم على تأميم الشركة مع إشراك رؤوس أموال أجنبية أمريكية وسواها ولكنها ليست بلجيكية فى الاستثمار وأن يكون مركز الشركة الرئيسى فى الكونجو، وحكومة الكونجو الوطنية الموحدة التى سبق أن أدخلت فى أحضانها كاتانجا التى شقت عصا الطاعة لجأت إلى هــذا الإجراء الجرىء وهى تعلم ما يجره من سنوات عجاف مؤقتاً ولكنها تفضل الحرية على الاستعباد.

وأخيراً فإن زعماء الشعوب الإفريقية الذين يسيرون قدماً فى سبيل لحاق

شعوبهم بركب الحضارة العالمية يدركون تماماً خطر هـــذا الاستعمار الجديد ووسائله التي يعمل على تحقيقها بلا جيوش واحتلال وحملات تأديبية ، ولـــكن ديدنه تدبير المؤامرات والثورات والانقلابات والتغيير المستمر للوزارات كلما لمس فيها القوة والوطنية فى البلدان التى تحررت حديثاً حتى تسير فى ركابه ، ويقابلون خطط هذا الاستعمار بسياسة حازمة لإحباطها كنشر التعليم فى نطاق واسع وخاصة الفنى وتحسين وسائل الصحة وكالمبادرة بالتأميم لصالح الشعب وكوضع الخطط لسنوات محددة تستمر بنجاح ، هذه الخطط فى ميادين التصنيع وبناء المشروعات الإنتاجية لاستثمار ثروات البلاد وإصلاح الأراضى البور وغير ذلك من أعمال التنمية الاقتصادية الـكفيلة برفع المستوى المعنوى والمـادى للجماعات وبناء اشتراكية تتفق وطبيعة البلاد وحاجة الأهلين لا تقوم على المذاهب والمثل بقدر قيامها على التجارب والتطبيق ، وهـكذا أميط اللثام عن أخطار الاستعمار الجديد وأخذ نجمه بدوره فى الأفول ليلحق بالاستعمار التقليدى الذى ذوى وقضى .

الباب السادس

الاشتراكية والمشكلات الافريقية

إفريقيا الوثابة اليوم متعطشة إلى التغيير الجذرى فى حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قدر ثورتها العارمة لتنال مكانها اللائق تحت شمس الحرية وتلحق بركب الحضارة العالمى بعد تحررها من الاستعمار ، وأمامها مشكلات جسام يتعين عليها علاجها علاجا ناجعاً لتضمن للأجيال المستقبلة القوت الوفير والعمل الجازى والرفاهية وبحبوحة العيش علماً بأن عددها فى تزايد مطرد وتجابه حاجتها إلى استثمار أراضيها ومواردها حتى تحقق الرزق لأهلها ، وهذا مايحدو بالدفع السياسى للقارة نحو الاشتراكية كدواء لتضخم عدد السكان مع صعوبة توفير الغذاء للأفواه الجديدة تبعاً لضيق رقعة الأرض واشتداد الجفاف فى مناطق معينة ، وانتشار الغابات والمستنقعات والهضاب المجدبة والبرارى الضحلة ، والاشتراكية الإفريقية اشتراكية تطبيقية أى أن مباشرتها فى تنفيذ أغراضها وأهدافها عملى، وتجريبية تقوم على التجارب الحكومية لتنمية موارد الإنتاج الزراعى والصناعى وتوزيع المنتجات والحاجات على أكبر عدد من الأهلين مع استخدام أقصى ما يمكن استخدامه من الأيدى العاملة فى الحقل والمصنع ، فلا بطالة ولا كسل ولا إهمال ولا ارتزاق لطبقة معينة من مورد يدر ريعاً معيناً لتعيش فى نعماء وحبور دون عمل دون غيرها ، وتنعت بالطبقة الثرية المتعطلة عن العمل .

والمسئوليات الملقاة على عاتق زعماء القارة وقادتها ورجال السياسة والوطنية

على مختلف ألوانهم السياسية والحزبية ، جسيمة تبعاً لتعدد وتعقد مشكلاتها نتيجة وجوب تصفية الاستعمار بصفة نهائية ووضع حلول حاسمة لجمود الماضى ومساوىء العادات والتقاليد العتيقة ، وضرورة رسم الخطوط العريضة الصحيحة للاشتراكية التطبيقية فى القارة ، وفيما يلى بيان بالطاقات الإفريقية وبموقف الأهلين فى حركة الانبعاث وبضرورة تمشى طاقاتها مع ما يرجى لها من رخاء وتقدم وبالاشتراكية التطبيقية فى مختلف بلدان القارة .

أولا — الطاقات الإفريقية :

إن لموارد إفريقيا أهمية قصوى لعالم اليوم فضلا عن ضرورة إعدادها لتغذية شعوبها وتوفير حاجاتهم ووسائل رفاهتهم نظراً لما تحويه من أراض صالحة للزراعة وبرار ، ولما فى جوفها من مواد أولية ومعادن ونظراً للأموال الغزيرة الموظفة فيها منذ بدء عهد الاستعمار ، ففى تربتها ٩٦ ٪ من الماس العالمى و ٦٩ ٪ من الكوبالت و ٦٣ ٪ من الذهب و ٤٨٪ من الانتيمون و ٣٤٪ من الكروميت و ٢٧٪ من المنجانيز و ٣٢ ٪ من الفوسفات و ٢٤ ٪ من النحاس فضلا عن غنى تربتها باليورانيوم والنيكل وتدفق البترول بغزارة من الآبار التى اكتشفت حديثاً فى الجزائر وليبيا والمخزون منه فى قول البعض يعادل المخزون فى شبه الجزيرة العربية ، وفحم القارة المخزون يبلغ نحو ٤٫٥٠٠ مليون طن وحديدها نحو ٥٧٫٢٢١ مليون طن ، وغاباتها تعادل ٢٧ ٪ من غابات العالم ، وهى غابات كثة وأخشابها وفيرة وجيدة النوع ، ومحاصيل القارة من البن والكاكاو والحبوب والزيوت والموز غزيرة ، والشركات الاستعمارية منتشرة فى القارة ، نذكر منها اتحاد المناجم فى كاتانجا ، وامتيازات تانجانيقا ، والانجلو أميركان ، والشركة البريطانية لجنوب إفريقيا ، وشل ، وكروب ، وتيسين ، وشركة المعادن الأمريكية ، وستاندارد أويل ،

والشركة الأمريكية للصلب ، وشركة مورجان، وروتشيلد وغيرها ، وقد بلغت أرباح شركة النحاس بالناشانجا المسماة الشركة المساهمة لاتحاد مناجم النحاس فى السنة المنتهية فى ٣١ مارس سنة ١٩٦٢ ما يجاوز ٢١ مليون جنيه استرلينى ، مما يدفع بالاستعمار إلى محاولة الإبقاء على نفوذه فى وضع جديد وبأساليب مختلفة عن أساليب الاحتلال والقوة العسكرية ، وفضلا عن ذلك فإن الاستعمار فى تطبيقه لفكرته الجديدة فى إفريقيا يطمع فى أن يربط القارة إلى عجلة أوروبا وأن يعدها لأن تكون منطقة استراتيجية كبرى لمناوراته فى حربه الباردة وفى صراع الغرب والشرق ، وإذا احتدمت الحرب وأضحت ساخنة وعامة تصبح هذه القارة الغنية بمواردها من الرجال والمواد الأوليـــــة وبمساحاتها الواسعة وأحراشها وأدغالها وبراريها وهضابها وفيافيها وحاصلاتها ، معسكراً كبيراً لجيوش الغرب حيث يسهل تجهيزها وتموينها وإعـدادها من جديد فى حالة جلائها عن أوروبا لتعيد الكرة فى غزو شامل عن طريق البحر المتوسط ولتنزل بمعداتها فى شاطىء أوروبا الجنوبى وتقوم بزحف جديد بمعدات وقوى وأسلحة شاملة مجهزة فى شتى مصانع إفريقيا بإشراف احتكارات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .

ويتضح أن طمع الامبريالية الغربية فى القارة يستهدف علاوة على تحقيق الثراء العريض على حساب موارد القارة وسواعد أبنائها المفتولة القوية بالسيطرة على المستعمرات السابقة ، إنشاء قلعة حربية قوية تحتمى بها وتعـد عدتها فيها لضمان كسبها الحرب إذا فشل التعايش السلمى ونشبت حرب عالمية ثالثة شاملة نتيجة صدام الايديولجيتين الغربية والشرقية.

غير أن يقظة شعوب إفريقيا ووقوفها بالمرصاد للمستعمرين السابقين وعزمها الأكيد على جعل مواردها لبنيها وألا تعود الاحتكارات الغربية إلى تسخيرها

اصالحها ولإعداد الحروب الاستعمارية على حساب دماء أهل إفريقيا وعرقهم وموارد بلادهم تفتح صفحة جـديدة للطاقات الإفريقية على أساس الشخصية الإفريقية الوطنية وقد تخلصت من أدران الإمبريالية . ويتعين على شعوب إفريقيا لتسير فى الطريق القويم أن تعالج عدداً من مشكلاتها الرئيسية التى نجمت عن الجمود والاستعمار وتفكك شعوب القارة وفاقتهم وانتشار المرض والجهل ونتيجة استغلال الاحتـكارات استغلال قاسياً لصالح الرأسماليـــة الصناعية الغربية العريضة ، وفيما يلى بعض هذه المشاكل .

ثانياً – مشاكل إفريقيا وانبعاثها :

إن إقامة أوروبا طوال قرن ونصف من الزمان بجماعاتها وجيوشها ونظمها الاقتصادية وقواها الاستعمارية أثرت تأثيراً بعيداً من النواحى الاجتماعية والنفسية والمادية فى أهل القارة ، وقد فصل هبوط المستعمرين ما بين القديم الـكريم بذكرياته الحلوة وتاريخه المجيد وبين الاستعمار المزرى بصخبه وقصف مدافعه وآلامه وبانحدار شعوب إفريقيا فى هاوية التسلط ووهن أهل القارة وانتشار ظلمات التأخر فى شتى أنحائها ، ويمكن تقسيم هذا الوضع إلى ثلاثة أقسام وهى: إفريقيا فى أوجها وسيادتها بمدنها القـديمة وإمبراطورياتها وطابع شعوبها على اختلافهم وسبق أن شرحنا هذه الناحية ، وإفريقيا فى عهد الاستعمار وشتى أنواعه وآثاره فى القارة وقد تناولناه أيضاً بالدراسة الوافية ، ثم إفريقيا القائمة اليوم بعد الإجهاز على الاستعمار وتطهير القارة من شوائبه وشروره ، وقد بدأت عملية إنقاذ القارة من المستعمرين بالـكفاح الوطنى المرير كـكفاح مصر لتحقيق استقلالها منذ سنة ١٩١٩ ونضال الحبشة ضد عدوان الجيوش الإيطالية الفاشية سنة ١٩٣٥ وغليان القارة غداة اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية وقد ضاقت ذرعا بالاستعمار ووعود الغرب العرقوبيه ، ثم تغذية الحركات الثورية الإفريقية

بالمثل الرائع لثورة يولية سنة ١٩٥٢ فى مصر ضد الاستعمار والاحتلال وتحقيق الجلاء الشامل عن أرض الوطن المصرى سنة ١٩٥٤ وهدم صنم الاستعمار الأجنبي الضخم بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ .

وزعم الأوروبيون أنهم وقد أقاموا فى القارة عنوة بقوة أسلحتهم ومستشاريهم وحكامهم ومصارفهم وجالياتهم وصنائعهم أنهم يؤدون الرسالة السامية للرجل الأبيض وينشرون المدنية والتجارة ويباشرون الأبحاث العلمية النافعه بحكم الواجب الملقى على عاتقهم ولكنهم فى الواقع يعملون لصالح الأداة الاستعمارية الجبارة للغرب ويسخرون الأفريقى ، على أسس حديدة كما سخر أجدادهم الذين سبوهم من شواطىء القارة فى عهد الاستكشافات الجغرافية لصالح مزارع العالم الجديد وبلاط ملوك أوروبا .

واضطر الأفريقيون فى المستعمرات يوما ماإلى قبول كل مايطلبه المستعمرون ولا حيلة لهم فى التملص من التسلط وقد غلبوا على أمرهم ، وحاول الضعفاء مؤقتاً أن يقلدوا الأقوياء، وزعم البعض أن فى هذا اندماج الأفريقيين فى السادة الغربيين لكى تصبح الحقوق والواجبات واحدة ، غير أن هذه الفكرة لم تك قائمة على مثل عليا على الأقل فى منطقة النفوذ الفرنسى ، بل قائمة على أغراض الاستعمار ، وظل الفاصل عميقاً بين الجماعتين القومية والفرنسية طوال الاستعمار وقد وضحت الفواصل بشدة وتراكمت مع سائر الأحقاد تبعا لظروف المعارك فى الحرب العالمية الثانية واشتداد الوعى القومى والكفاح فى سبيل الحريات فى أفريقيا وخاصة فى شمالها ، ولم يقف الأمر عند حد الكفاح فى سبيل التحرر بل أخذت الشعوب المجاهدة تصعد بسرعة سلم الحضارة بشخصيتها وثقافتها وأفريقيتها التى تمسكت بشدة بأهدابها .

وأصبحت شعوب هـذه القارة بتصفية الاستعمار تـكوّن شخصاً واحداً بروحها الأفريقية التى تجاهد دائبة ضد الاستعمار وإبعاد العناصر الأجنبية المستغلة عنها وتحريرها من ربقة التفرقة العنصرية صفاً واحداً بلا تمييز ،وكذلك تـكوّن الشعوب عدة شخصيات بحضاراتها العربية والسوداء والأثيوبية والإسلامية والمسيحية ولـكنها تتحد فى الآمال والمصير والأغراض والأهداف ، واستقلت المحميات والمستعمرات السابقة تباعا وبدأ التحرير بليبيـــا والسودان وتونس ومراكش فغانا وغينيا الخ . . وأخذت هذه البلاد جميعها تعمل لتعيد بناءها وفق صالح الأهلين وحضارتهم، وتأسست منظمة الوحدة الأفريقية لـكى تواجه شعوب أفريقيا الاستعمار فى كتلة متراصة يصعب النفوذ إليها وللعمل على تنمية مواردها والتعاون فى الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

ومما لا شك فيه أن هناك روحاً أفريقية وشخصية للأفريقى على مختلف حضاراته ، ولم تعد تسمية الحضارة الزنجية عيبا أو سبة كما كان يقال بل مفخرة وإشارة إلى مدنية من نوع معين ينقل الغير عنها فنونها ومعارفها ، ولأفريقيا الحالية مشكلاتها وإن إدراك وسائل حلها يقضى بتفهم الجو الذى تعيش فيـه المستعمرات السابقة اليوم بعد أن استقلت ، وفيما يلى البيان :

تتعدد دول أفريقيا التى استقلت حديثاً ، وبلغت المستعمرات السابقة التى استقلت سنة ١٩٦٠ سبع عشرة دولة ووصلت دول القارة المستقلة اليوم إلى واحدة وأربعين دولة ضمنها اتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية ، ولم يبق اليوم من المستعمرات إلا انجولا وموزمبيق والصحراء الأسبانية وبعض مناطق نفوذ قليلة الأهمية تتبع فرنسا والبرتغال وأسبانيا،ولا يدخل فى حساب أفريقيا السوداء دول شمال أفريقيا العربية واتحاد جنوب أفريقيا ومصر والسودان والصومال وروديسيا الجنوبية وقد أعلنت هذه استقلالها على أساس عنصرى لصالح البيض ومن طرف واحد .

وتنقسم المستعمرات السابقة التى كانت تتبع الإمبراطوريتين فرنسا وانكلترا وهى الدول المستقلة حديثا من الناحية السياسية الإنسانية إلى قسمين رئيسيين وهما أفريقيا التى تتكلم الفرنسية والأخرى التى تتكلم الانكليزية وفيما يلى البيان :

١ — أفريقيا المتكلمة بالفرنسية : وتشتمل مناطقها على إفريقيا الغربية الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية والتوجو والكاميرون ، ولم تذهب سياسة فرنسا فى إدماج شعوب هذه البلدان فيها إلى الحد الأقصى وخاصة فيما يتناول المساواة التامة فى الحقوق والواجبات لكافة المواطنين وأبناء المناطق المذكورة ، وهذا هو منطق فرنسا التى تعمل فى تحقيقه لإقامة مجتمع فرنسى أفريقى .

واتضح هذا فى مؤتمر برازافيل سنة ١٩٤٤ الذى وجهه وقاده الجنرال أيبويه لتصفية الاستعمار ،ولكن ما لبثت أن سارت التصفية سريعة لمصلحة أفريقيا،وبحثت بدقة مسألة نقل المسئولية السياسية إلى الأفريقيين مع ترك فكرة الاندماج والانصراف عن الوصاية ذلك الموقف الذى تتخذه عادة الدول الحامية والسلطات الاستعمارية على أساس العنصر الراقى وسيادته وتحول المؤتمر نحو الاعتراف عموما بالشخصية الأفريقية ، وكانت أولى الخطوات إنشاء الاتحاد الفرنسى للتوفيق بين تصفية الاستعمار والعيش المشترك بين فرنسا وتابعاتها ، وترتب على هذا إدخال الجمهورية الفرنسية دستوريا فى أحضان نظام جديد أوسع مدى هو الاتحاد الفرنسى غير أن عيب هذا النظام كان فى عدم إشراك الأفريقيين وأهل مدغشقر فى إدارة المصالح المشتركة التى كانت من اختصاص الحكومة ، مع ملاحظة أن عدداً وفيراً من أهل ما وراء البحار يمثلون فى الحكومة وكان هذا الحال مؤقتا ، واتجهت الأفكار سنة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ نحو إقامة نظام تعاهدى بمجلس تنفيذى لضمان سياسة مشتركة يجتمع دوريا فى إحدى عواصم الدول الأعضاء .

وأخذ نظام الجماعة الأول يتطور تدريجيا ، وأجرى استفتاء بعد تقلد دى جول الحكم وراء البحار يطلب من الأهالى أبداء الرأى فيما إذا كانوا يريدون الاستقلال عن فرنسا أو الدخول معها فى مشاركة جديدة ، وقد رفضت دولة واحدة المشاركة وهى غينيا ونشأت هناك جمهورية مستقلة ، واندمجت البلدان الأخرى فى المشاركة وأطلق عليها الجماعة الفرنسية حسب اقتراح زعيم مدغشقر ولكن تفكك الاتحاد الذى كان قائما حديثا بين السنغال والسودان الفرنسى باسم مالى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٦٠ ، ووهنت سائر الصلات بين المجموعات الأفريقية فى النطاق الفرنسى مما أضعف الوحدة السياسية فى ظل فرنسا، وانتهت هذه الجماعة على الأقل من الناحية العملية .

واستقلت البلدان التى كانت تابعة لفرنسا استقلالا تاما فيما عدا صلاتها الأدبية والثقافية والاقتصادية بالمستعمر السابق ، وتأيد استقلال المستعمرات السابقة بمجلس الوصاية للأمم المتحدة ، واتحدت الكاميرون الانكليزية سنة ١٩٦١ ، وسارت غينيا فى طريقها وحيدة منذ سنة ١٩٥٨ مع مساعدات كانت تأتيها بين حين وآخر من الاتحاد السوفيتى ، ثم اتخذت مالى بعد انفصالها عن السودان نفس الإسم ، ونشأ مجلس من الجميع يضم ساحل العاج وداهومى وفولتا العليا والنيجر ، كما نشأ اتحاد مرن من جمهوريات أفريقيا الوسطى يجمع الكونجو وجمهورية وسط أفريقيا (أوبانجى شارى) وتشاد .

ويضاف إلى مجموعة الناطقين بالفرنسية أهل الكونجو البلجيكية سابقاً ، وكانت المستعمرة كما سبق أن بينا ملكاً خاصاً لملك البلجيك بحكم قرارات مؤتمر برلين ، وكانت فى معزل عن التيارات والآراء التى تحرك إفريقيا وتعد ثورتها ، وكان البلجيكيون يتبعون سياسة من شأنها إعداد حكام ومستعمرين منهم يتخصصون فى الإشراف على المستعمرة وإدارتها وكأنهم أصحابها وأهلها

وذلك فى سبيل استغلالها إلى أقصى حد غير عابئين بمصالح الوطنيين وبتعليمهم ورفع مستواهم ، وكأن التعليم هناك فى حكم العدم بما فى ذلك الإعـداد لتولى الوطنيين المناصب الحكومية والأعمال الإدارية ، ولذلك فإنه بمجرد أن اضطرت بلجيكا بضغط الحركات الوطنية والظروف الدولية إلى إعلان استقلال الكونجو فى يونية سنة ١٩٦٠ انفجر مرجل الصراع القبلى والحركات الانفصالية ، وتعذر تنظيم الإدارة الحكومية الجديدة سراعا على يد أهل البلاد ووضع حـد للاضطراب ، وأدت الفوضى الدولية فى المنطقة إلى تعقد الموقف الدولى ، وحاولت الأمم المتحدة وقد جلا البلجيكيون عن البلاد وتركوا خلفهم المؤامرات بأخطارها وأهمها حركة انفصال كاتانجا عن الوطن الأم ، أن تعيد النظام ، وأوفدت قوات للحيلولة دون استمرار إراقة الدماء ولإجلاء الجنود المرتزقة من البيض الذين يعملون لصالح الاستعمار ، ثم بدأت تنقشع الغيوم تدريجياً وتبلورت الأوضاع فى بوتقة الوطن الواحد وانتهت الحركة الإنفصالية .

٢ — إفريقيا الناطقة بالانكليزية : وهذه مناطقها واسعة الرقعة وهى أضخم عدداً من الأولى ، ونذكر منها اتحاد جنوب إفريقيا وهى جمهورية مستقلة منذ مدة ، وكانت فى نطاق الكومنولث ثم انفصلت عنه بسبب إصرار حكومة البيض هناك على السياسة العنصرية رغم معارضة الأمم المتحدة وحكومة لندن فى استمرار الحكومة فى إهدار الحقوق السياسية والمدنية للغالبية من أهل البلاد ، ويكونون أكثر من ثلاثة أرباع السكان الذين يبلغ مجموعهم نحو أربعة عشر مليون نسمة ، ويعيش أحد عشر مليون إفريقى أسود مع أقلية من الهنود والاسيويين الصفر والعرب بلا حقوق ولا مستقبل تحت رحمة نحو ثلاثة ملايين من الأصول الهولاندية والانكليزية ، ويطبق الأوروبيون الذين بدأوا استيطان المنطقة من القرن السابع عشر سياسة عنصرية قاسية ، ويحرمون السود الاشتراك فى الحكم مع عزلهم فى مناطق قحلاء وتحديد الأراضى التى يمكنهم

زراعتها وهى الأراضى الأقل جودة ، وإعطاء أجور دنيا لهم لا تسد رمقهم ، ومنعهم من السكنى فى المدن الكبرى، والمبيت فيها وإيصاد دور العلم والجامعات فى وجوههم وفرض نظام البطاقات عليهم لاستمرار رقابتهم إلى حد الاستعباد وظاهر هذه السياسة القائمة إلى اليوم أن كل فرد يبقى حيث هو ولكن باطنها تسخير السود كأرقاء لمصالح الملاك البيض ، وغالبية البيض من الهولنديين ويطلق عليهم البوير وأقليتهم من الانكليز والفرنسيين وغيرهم من أهل أوروبا ويلاحظ أن الأخيرين لا يتمادون فى التعصب السياسى والعنصرية إلى النهاية ، والجميع يتكلم اللغة الافريكانية وهى الهولندية القديمة مع تحويرها بإدخال ألفاظ محلية وخليط من الانكليزية وغيرها عليها ، وكذلك يتكلم الجميع الانكليزية ، وهاتان اللغتان هما اللغتان الرسميتان فى البلاد ، ويسكن بين السود بعض قبائل من البوشمان والهوتنتوت ، ويسكن السود الشمال أصلاً وبعضهم يتغلغل إلى جنوب البلاد ، ويستمر تنقلهم من جهة إلى أخرى لغرض العمل والكسب وتبعا لخصوبة الأرض والحاجة إلى اليد العاملة والسعى فى رفع مستوى المعيشة ، ومما لا شك فيه أنه ليس هناك فلسفياً واجتماعياً وواقعياً فى تطور الحياة الإنسانية والعلاقات الدولية ما يبرر التعصب للعنصرية كما سبق أن شرحنا فى الأبواب السالفة ، وهذه السياسة تضر بالاقتصاد القومى للدولة ضرراً بالغاً وتحرمها من النهوض بغالبية الأهلين فى سبيل زيادة الإنتاج والصالح العام ، وأنه مما يندى له جبين المدنية أن يشاهد المرء سيارات نقل مطلاة بالأبيض لنقل البيض وأخرى مطلاة بالأسود لنقل السود ، وأن تعين محال الاغتسال ومقاهى ودور عامة لكل من الطائفتين على حدة ، وأن يفرق بين كل منهما حتى فى غطاء النوم فى السكك الحديدية ، والأحوال السياسية هناك مضطربة ومتوترة ولا يمكن تحقيق وحدة سياسية صالحة مع بقاء التصرفات الظالمة لحكومة الأقلية من البيض البعيدة عن العدالة والمساواة فى العمل والتملك والزراعة والصناعة والصحة

والسكنى والتعليم . . إلخ . ، ولا مندوحة رغم إصرار سياسة جنوب إفريقيا على العنصرية من تحقيق النصر للأكثر عدداً والأسوأ حظاً وهم أهل البلاد الأصليين وقد سطا على ديارهم المستعمرون وانتزعوا منهم الأقوات والأعمال بلا رحمة .

وهناك إلى جانب اتحاد إفريقيا المستعمرات التى حصلت على إستقلالها من إنكلترا بعد الحرب العالمية الثانية وفى مقدمتها غانا سنة ١٩٥٧ كما سبق أن ذكرنا فى مناسبات عدة وقد تحقق استقلالها بعد كفاح طويل على يد نكروما، وأعقب ذلك نيجيريا وتكون هناك اتحاد يبلغ عدد سكانه نحو ٤٠ مليون نسمة ، غير أن لهذا الاتحاد مشكلاته وأزماته وثوراته وانقلاباته العسكرية ، وهى تعد من أغنى اصقاع إفريقيا الغربية بضخامتها وثرائها ، وهى تتكون من ثلاثة فروع أساسية متباينة الأصول والثقافات ، والجنوب مقسم بين اليوريا والأيبو والشمال من سلطنات إسلامية متعددة ، مما يجعل هناك فرقة فى التاريخ والجنس واللغة والدين ، مع ملاحظة أن أهل الشمال أكثر مدنية وتطوراً من الجنوب ويسيطرون على الأخيرين ، وبقاء الاتحاد رهين حكمة الزعماء الذين يواصلون جهودهم للابقاء عليه ويحاولون التغلب على العقبات .

وهناك إفريقيا الشرقية وتحتوى على أصول بيضاء من العرب وكانت هذه الأصول تحكم السود ، وتتعدد المستعمرات السابقة ومنها أوغندة وكينيا وقد حصلتا على استقلالهما سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٣ ، وهزت ثورات « ماوماو » المستعمرين ، وقد أخضعتها انكلترا بقسوة وكان رد فعلها قوياً وسريعاً وتم فى فترة قصيرة تحرير البلاد ، ويعتبر كنياتا من أهم زعماء المنطقة ومحرريها ، ويضاف إلى البلدين المذكورين تانجانيقا وقد استقلت فى نطاق الكومنولث سنة ١٩٦١ واتحدت فيما بعد مع زنجبار باسم تانزانيا سنة ١٩٦٣ ، وأخيراً نذكر باتزوتولاند

وبتشوانالاند وسوازيلاند فى إفريقيا الاستوائية وقـــد سارت نحو الاستقلال تباعاً .

وتقف البرتغال وأسبانيا كما سبق أن ذكرنا من الاستعمار موقفاً أكثر تعنتا وعناداً من غيرها ، فالبرتغال تجعل من ممتلكاتها وأهمها انجولا وموزمبيق جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية ، وتستنزف ثرواتها لصالح لشبونة ، كما تعمل على بقاء الحالة فى حضيض التأخر وتقضى على محاولات السكان فى رفع مستوى معيشتهم والـكفاح فى سبيل التحرير ، ولا تبدو بادرة بتحقيق الاستقلال بل حتى بتخفيض بعض الحواجز وإطلاق بعض القيود التى تفت فى عضد الوطنيين الذين بدورهم لا ييأسون من الـكفاح ، كما تحاول إسبانيا ولم تعد لها ممتلـكات مهمة فى القارة غير الصحراء الإسبانيه فى غربها أن تبقى على هذه البقية الباقية من مستعمراتها التى تحررت ، وتبذل محاولات فى تعويق ساعة تحريرها ، كما بقيت لفرنسا قاعدة على البحر الأحمر هى ميناء جيبوتى ويطلق على المنطقة الصومال الفرنسية ويتجه الرأى إلى إجراء استفتاء فيها عقب قيام اضطرابات لاستقلالها أو بقائها ضمن أملاك فرنسا أو فى نطاق نفوذها .

ومشكلات أفريقيا التى استقلت حديثا متعددة وعلاجها ليس من السهولة بمـكان ، ويتعين مراعاة ظروف وطاقة كل بلد على حدة مع الوقوف فى وجه الاستغلال الأجنبى ، ولقد مرت اثنتا عشرة سنة تقريبا منذ بدء تصفية الاستعمار فى أفريقيا ، وتحولت القارة خلال هذه المدة تحولا تاماً إلى عالم وثاب ملىء بالأمل ولم تعد تعرف بالقارة المظلمة أو الغامضة ، ولم نسمع لها وصفا بأنها قارة الموسيقى الصاخبة أو الطبول أو حملات التأديب أو رقصات الحرب ورحلات الصيد ، واختفت صور الزعماء والقبائل الذين يستسلمون لشراذم من الجنود المستعمرين الذين يحملون المدافع الرشاشة ، ولـكن ظلت هناك صور لخزى الاستعمار

ووحشيته فيما يجرى فى ممتلكات البرتغال واتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية ومعسكرات الاعتقال ، واستمر الاستعمار يتحفز للقارة وهى فى نعومة أظفارها وفى حاجة إلى صرف كل جهدها للبناء لينتهى بين ربوعها نفوذه .

وظهرت الأحزاب السياسية تجمع إلى جانبها الأنصار بغية تولى الحكم وتنفيذ برامجها الإصلاحية وللعمل على إزالة الفوارق بين الطوائف وفض المنازعات بين القبائل والعشائر والفرق الدينية المختلفة ، وتحاول أن تقيم بوحدة الهدف وتقارب المنافع والفكرة القائمة على الحضارة السوداء الزنجية التى لم تعد وصمة كما كانت الحال فى الماضى ، وحدة المصالح والسياسات الإفريقية للاجهاز على البقية الباقية من نفوذ الاستعمار ولإنعاش القارة وسيرها قدماً إلى الأمام صفا متراصا قوى المراس ، واتضحت من بطاقة الإنتخاب خصال لم تك معروفة من قبل هى الجرأة على أساس الحرية وللمساواة بين الناس ، وأعطى الرجل المرأة حق تصويتها فى الانتخاب وتصويت المخدوم للخادم ، وانتشرت روح النقد ، وجابه هذا الوضع الثورى الجديد صعوبات بين جماعات طبعت منذ القدم على تسلسل الوظائف والمراكز الاجتماعية ، غير أن أفريقيا السوداء ذللت العقبات لنصرة الديموقراطية واتجهت بكاتيها نحو فضاء الاستقلال والحرية الواسع ، ولم تؤمن إيماناً أعمى بكل مايأتى من الغرب بل أخذت السمين وتركت الغث ، وسخرت الديموقراطية فى قالب الاشتراكية لصالحها ولم تعد هذه السياسة فى نظرها أداة ترف بل هى ضرورة لبناء صرح أوطانها لخدمة الطبقات العاملة .

وخرجت من تربتها الاشتراكية الإفريقية لتعمل جاهدة لتوفير أكبر قسط من الحاجات وضمان العيش مع الكرامة للمواطنين ، ويتطلب الأمر زيادة الإنتاج وحسن توزيع الحاجات وتثمير موارد البلاد إلى أقصى حد ورفع مستوى الأجور والتقارب بين الناس والتخلص من رواسب الماضى وخاصة استغلال

الإفريقى لصالح مصانع الغرب وأداته العسكرية وسلطانه السياسى ، واتخذت الاشتراكية الوضع الإفريقى ولبست لكل حالة لبوسها واختلفت باختلاف المناطق وحاجات الناس، ولكل دار الاشتراكية التى تناسب أهلها فالتطبيق فى غينيا يختلف عنه فى غانا كما لا تباشر تانزانيا وكينيا الاشتراكية للبلدين المذكورين . . . الخ ، وهذا ماسنتناوله فيما بعد .

غير أن الصعوبات التى تصادفها الشعوب الناهضة الشابة ليست مما يستهان به ، وهذه حالة إفريقيا فلها مشكلاتها القومية والقبلية والجماعية ومشكلات الحدود واللغة والتنمية وموقفها من العالم الخارجى، وفيما يلى صور مختصرة فيها:ـ

١ — القوميات فى إفريقيا : لقدقسمت الدول الإستعمارية فيما مضى مناطق نفوذها لاعلى أساس القوميات وماضى الشعوب الإفريقية بل على أساس السباق فى احتلال السواحل وبلوغ أحواض الأنهار ، ونظم مؤتمر برلين هذا الوضع وجعل أن لمن يحتل فعلا أرضا لم يسبقه إليه مستعمر له أن يقيم فيها منطقة نفوذه وهكذا فتت الاستعمار القبائل الإفريقية وقومياتها ، وبانحسار موجته تحررت القارة فى إطار هذا الوضع المفتعل وفق الحدود الإدارية للاستعمار لا الطبيعية لحضارة القارة ودولها السالفة ، وهذا ماشوهد فى معظم أصقاع أفريقيا فيما عدا الكمرون الإنكليزية والكمرون الفرنسية واندماجهما ، ولم نشاهد شعبا أفريقيا قائما بذاته يكون دولة أفريقية واحدة مستقلة حديثا ، بل نشاهد مجموعات متباينة بلغات ولهجات مختلفة فى الدولة الواحدة ، وإن ما ساعد إلى حد ما فى بقاء البناء دون أن يتداعى هو ما يجمع الدول الإفريقية الحديثة من ذكرى الاستعمار المريرة ومايحدوها من أمل فى المستقبل يبرز فى الوحدة الإفريقية ومنظمتها التى نشأت سنة ١٩٦٣ .

كما أن فكرة الشعب لم تأت من القاعدة إنما نبتت ونمت وترعرعت بين

الطبقة المتعلمة والصفوة المختارة من رجال السياسة والطلبة والمثقفين والعديد منهم تلقى العلم فى عواصم البلدان الغربية الاستعمارية ، كما شجعت الأحزاب العمالية حركات النور والعلم والحرية فيما وراء البحار ، وبدأ هذا بإنشاء النقابات واتحاداتها بين البلدان المتسلطة والمستعمرات على أساس التسليم بالمساواة فى الحقوق والواجبات وتحسين أحوال المعيشة ورفع الأجور واللجوء إلى الإضراب فى حالة عدم استجابة رجال الأعمال والمصانع إلى مطالب العمال ، وقد سار فى هذا الجو الإفريقيون لبلوغهم مكانهم اللائق تحت شمس الحريات وولوج أبواب الحياة الدولية واسترداد المواطن الإفريقى مكانته كإنسان حر متمدين له عزته وكرامته ، وصار لكل شعب استقل علمه ودستوره ونشيده الوطنى وخاتم دولته ، ولم تلبث شعوب إفريقيا أن اندمجت فى الحياة الحرة الحديثة ، غير أن روح النشاط طغت عليها مما أثار بعض المشكلات التى تتناول الحدود، ومن أبرز الأمثلة مشكلتا الحدود بين الجزائر والمغرب وبين الصومال والحبشة ، وهناك مشكلات تعدد الانقلابات والانتفاضات والثورات فى سبيل الوصول إلى وضع تطمئن إليه البلاد ويضمن استقرار حياتها السياسية واتزانها ورفاهتها كما رأينا فى نيجيريا وغانا ، والمشكلات التى تخيم على بعض الأوضاع السياسية واختلاف وجهات النظر إلى حد العنف والمجازر كما شوهد فى أحداث زنجبار وتانجانيقا وقيام اتحاد تانزانيا أو انفصام عرى الوحدة كما حدث بين دول اتحاد مالى واضطرابات الكونجو وانفصال كاتانجا ثم عودتها إلى حظيرة الوطن الأم، وربما يرجع هذا الغليان إلى التلهف على وضع حد للفاقة والظلم الاجتماعى والاستغلال الاقتصادى مع بقايا تقاليد عتيقة أهمها الصراع القبلى .

٢ — الأوضاع القبلية :

القبيلة هى تكوين مصغر للجماعة الوطنية أو القومية تقوم على أساس فكرة جماعية أو اتحادية فى العنصر والتاريخ واللغة والثقافة والروح الاجتماعية

وضمنها الدين أو العقيدة ، وأهل القبيلة يعتزون بأصولهم الواحدة إلى أقصى حد ويترتب على التمسك بالعرق استمرار الصراع بين القبيلة والأخرى وقد تغور أسبابه وأعماقه وتختفى فى بطون التاريخ والمجهول ، وتستمر كراهيه لامبرر لها أو موضح لأسبابها تثير العنصر ضد العنصر وهذا ماشاهدناه فى الكونجو ، وكلما ضعفت الحكومة المركزية اشتد الصراع القبلى ، وتختفى الأحقاد القبلية تدريجيا تبعا لاشتداد ساعد الفكرة الوطنية والقومية وأخذ الناس بأسباب الحضارة، ويتطلب الأمر أن يراعى رجال السياسة هذا الجو وأن يتبعوا الحكمة لتخطى العقبات وأن يأخذوا بفكرة الشعب بلا اعتبار للقبيلة ، مع ملاحظة أنه يتعذر تطبيق المبادىء الاشتراكية تطبيقا صحيحا فى حالة التعصب للعرق ، ويلاحظ أنه فى الكونجو ونيجيريا يتمثل الشعب فى اتحاد من مقاطعات وقبائل لها شخصياتها ، وقد يكون الاتحاد علاجا للحد من خطر القبيلة وانتقالا من القبيلة إلى وحدة الوطن لمجابهة مشكلات إفريقيا الحديثة ،وسيواجه الإفريقيون وقد كسبوا بتجاربهم الجديدة كجماعة متحدة الثقة فى أنفسهم مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية الخطيرة فى إطار شعب متماسك قوى ، وهذا ما يقودهم للتخلص من رواسب الماضى كحتمية تاريخية لامفر منها ، إلى الإشتراكية لإنقاذ العامل الإفريقى من براثن الفقر والجهل والمرض وفتح باب العمل الكريم وضمان عيشه لينصرف إلى البناء والإنتاج وإلى الاشتراك فى قيادة الوطن الجديد ونهضته وإلى الوحدة أو الاتحاد الإفريقى لعلاج مشكلات الوطن والقارة فى ضوء المصالح المشتركة وتوثيق التعاون بين مختلف الدول والأوطان الجديدة التى تجمعها ببعض الآلام والآمال والرغبة الملحة فى حياة أسعد ،والهدف واحد وهو تحطيم العقبات التى يضعها الاستعمار الجديد فى طريق شعب إفريقيا والسير قدما إلى الأمام لايلوى على شىء ، ويدخل ضمن أخطار الاستعمار مشكلات العنصرية وما تثيره الأحداث السياسية للبيض ضد السود فى اتحاد

جنوب إفريقيا وفى روديسيا الجنوبية وفى مستعمرات البرتغال .

ووحدة إفريقيا التى سنتناولها بالبحث فيما بعد سياسية أصلا وتحلق فى فضائها فكرة الروح الواحدة للشعوب السوداء أو الوحدة الزنجية التى لم تعد وسمة وإنما هى وصف لحضارة وفن وتاريخ معين ، وقد استمدت هذه التسمية من كتابات الأمريكيين أساساً والذين اهتموا بمشكلات العبيد فى العالم الجديد، وما ترتب على ذلك من صعوبات قامت حول اندماج السود فى مجتمع البيض الذى يرفضهم، والزنجية هنا فيها معنى أرض الأسلاف ولغتهم وبيئتهم ، ومركزها الأصلى فى إفريقيا وبالتبعية فى بعض الجزر الصغيرة فى المحيط الباسفيكى وغيره حيث سبى الأرقاء فيها ليعملوا فى حقول السادة البيض فى العالم الجديد، وتتخذ المشكلة وضعاً سياسياً كذلك بمشكلات العنصرية ومحاربة السود فى أرزاقهم وأعمالهم وحرمانهم من تبوء مكانهم فى أرض الله الواسعة لكسب أرزاقهم .

٣ — المشكلات الاقتصادية :

تتعدد المشكلات الاقتصادية فى القارة نتيجة تطورها وتحررها السريع وضرورة مجابهتها حاجات الشعوب النامية ؛ وسد العجز فى الإنتاج الناجم عن تزايد السكان بسرعة مع ضعف وسائل الزراعة والصناعة، ولتفهم هذه المشكلات بعمق يحسن أن نشرح بعض صفحات الحياة الاقتصادية للقارة التى تبرز فى وسائل الإنتاج فى القارة الإفريقية .

وتكمن أزمات أفريقيا فى وسائل الإنتاج وطرق المعيشة فيها فإن اقتصاد إفريقيا اليوم يقوم على أسلوبين متناقضين ، وهما حياة اقتصادية تقليدية تنبع من ذاتها وليس لها نظائر أخرى وهى من النوع القديم الغابر ، ولا تستخدم الآلات والمعدات وغرضها سد رمق الإنسان فحسب ، وحياة اقتصادية أخرى

إلى جانبها تقوم على المعاملات غرضها التصدير وهى متطورة وإلى حد ما راقيه، والأولى تتبع فى تبادلها الحاجات المقايضة والعملات القديمة كالودع والأحجار ، وعلى أى حال من الأحوال فإن فن الزراعة والصناعة بوجه عام قديم بال والإنتاج ضعيف ، وليس كما يتبادر إلى الذهن أن كل اقتصاد يكمل الآخر ، وهذه الحالة تؤدى إلى اختلال التوازن الاقتصادى فى القارة ، ويزيد الطين بلة الاستعمار ورواسبه وضعف عدد السكان والإنتاج بالمقارنة إلى الأوضاع الأخرى خارج القارة، فسكانها أقل من ٨٪ من سكان العالم بينما مساحتها بالنسبة لليابسة ٢٣٪ والقوة المحركة التى تحكم عليها ممثلة بأطنان الفحم تعادل نسبتها ٨ فى الولايات المتحدة الأمريكية لكل فرد إلى ٢½ فى فرنسا و ¼ فى إفريقيا ، وهناك تفاوت كبير فى مستوى المعيشة فى نطاق اقتصاد لا يمكن أن ينعت إلا بأنه وضع لسد الرمق أو التبلغ بلقمة العيش ، وللفرد بصفة عامة نصيب يقل عن عشرين جنيها استرلينيا فى السنة وإذا تعالى قدره فإنه لا يبلغ أكثر من ٣٠ جنيها استرلينيا مما يتعذر معه أن يحصل على حاجاته الضرورية لمعاشه . وهكذا يظل فى فقر مستمر .

غير أنه يلاحظ فى أحوال عدة أن الإفريقى الفلاح يعيش بين قطاع الزراعة وأصحاب الأراضى الملاك على الكفاف . وقد يحكمون على وسائل زراعة متقدمة وينتجون فى مزارعهم وفق أحدث الوسائل من الحاصلات الدولية الوفيرة كالبن والكاكاو والموز وزيت النخيل التى تأخذ طريقها إلى التصدير، ويثرى أصحاب رؤوس الأموال وهم جالية أجنبية تعيش بمعزل عن الوطنيين وعددها لا يستهان به من الأوروبيين وخاصة اليونانيين والسوريين واللبنانيين والإسرائيليين، كما لا ننسى الموظفين الاوروبيين المترفين بمرتباتهم الضخمة وتأثيرهم فى الحياة العامة واقتصاديات البلاد ، ومما يجعل نزف مواردها شديداً تلك

الاحتكارات التعدينية والصناعية وأرباحها العريضة التى تدخل أولاً بأول فى خزائن الغرب .

ومن أبرز الأزمات التى تواجه القارة فى تحولها اليوم مأساة ضعف إنتاجها ليواجه تزايد السكان المطرد ، وهى نفس الأزمة التى يعانيها ثلثا الإنسانية ، وهذه الأزمة تعرض لها إفريقيا السوداء وكذا إلى حدما أفريقيا البيضاء، ويزداد عدد سكان إفريقيا السوداء بنحو ٢ ٪ سنويا رغم ارتفاع رقم الوفيات فى الأطفال وخاصة فى الريف عنه فى المدن ، وذلك تبعا لضعف الوسائل الصحية والتغذية وانتشار المجاعات والأوبئة والأمراض والجهل والجفاف بين حين وآخر ، ومعدل حياة الفرد بين ٣٥ و ٤٠ سنة وعدد الشيوخ بين الإفريقيين السود قليل ، بينما معدل الحياة فى فرنسا ٧٠ سنة وهى أعلى فى المرأة عنها فى الرجل ، ووسائل انقاذ حياة الإنسان هذه القارة الناشئة ضعيفة فلكل عشرة آلاف إفريقى أسود طبيب واحد ، بينما أن لكل ٧٨٠ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية طبيبا .

والمستقبل فى إفريقيا ينبىء عن تزايد عدد السكان نتيجة انتهاء الرق والتسلط الأجنبى بسلاحه وحملاته وتحسين وسائل الصحة وزيادة المواصلات والإكثار من الأراضى المزروعة والدورات الزراعية وتعدد المحاصيل، ولكن بينماسيتضاعف العدد لن تسير الزراعة بنفس السرعة فى سبيل النمو ولن تفى بالغرض إذ أن الأرض لن تستجيب إلى نداء البطون لنحو ٢ ٪ من زيادة السكان سنوياً ، ولكى ينتج الإنسان ويزيد إنتاجه يتعين عليه أن يدخر نسبة معينة من دخله وأن يوظفه فى الإنتاج فلا يتركه عقيماً ويجب أن يوجه إلى الزراعة والصناعة والطرق والسدود وكافة وسائل الإنتاج بما فى ذلك تزويد المصانع بحاجاتها ، ويرى الخبراء أن زيادة السكان بنسبة ٢ ٪ تتطلب إدخاراً يبلغ نحو ١٠ ٪

من الدخل القومى حتى لا ينحدر المستوى المعيشى للسكان . وفضلا عن ذلك يتعين ألا يظل المستوى على حاله دون تحسين وأن يتخذ سلم الصعود ، ويمكن أن تتحقق هذه الغاية فى القارة بالالتجاء إلى التخطيط والتنظيم الفنى والمعونة الخارجية ، على ألا تمس هـذه المعونة حريات البلاد وقوميتها وألا تخضعها لسلطان الدائن السياسى .

والحياة الاقتصادية العتيقة لا تزال قائمة فى قلب القارة وأحرشها إلا أنها ستنقرض بحكم التطور ، ويمكن أن نعدد وسائل الحياة الاقتصادية الجديدة فيما يأتى : —

(أ) التصنيع : لم يهتم المستعمر بالصناعات إلا بما يفيد منها مصانعه ، وقد نظر إلى المستعمرات الإفريقية كبقرة حلوب لمشروعاته ومصارفه ، واحتكر المتسلط الصناعات فى دياره فى الغرب ، واقتصر الإنتاج الصناعى على استخراج المعادن وصهرها وعصر الزيوت ولم تستغل مساقط المياه ولم تقم السدود لهذه الغاية ، ولم تحول الخامات فى مناطق استخراجها بل حملتها السفن إلى الخارج ، وتعمد المستعمر أن يحرم الإفريقى من العلم والتدريب والتخصص المهنى الراقى حتى لا ينافس الغرب فى الإنتاج والعمل وحتى يظل على حاله من الضعف فلا يطالب بحقوقه وحتى لا يزيد أجره على ٢٠ ٪ من أجر العامل الأوروبى فى الميناء أو المنجم أو المصنع فى إفريقيا ، ولكن بعد انحسار موجة الاستعمار بدأ القطاع الصناعى يتسع تدريجياً ، غير أنه يتعين ألا يكون هـذا الاتساع على حساب القطاع الزراعى واستخراج المعادن واستثمار الغابات ، كما أخـذ ينشط قطاع التجارة والتداول والتبادل وشتى الأعمال الإدارية .

(ب) بناء المدن وإتساعها : هـذه الظاهرة مشاهدة فى العديد من أقطار ما وراء البحار ، وهى نتيجة حتمية للتصنيع والتنمية الإقتصادية وقيام دول

مستقلة بأعبائها ومسئولياتها ومجتمعاتها الحديثة ، وتعددت المدن الكبيرة في إفريقيا ولم تك منذسنوات معدودات إلا قرى صغيرة نذكر منها دا كار وبعض مدن الكونجو ، كما تتابعت الهجرة من الريف إلى المدينة ، وقد بدأت بالذكور في القرى ثم بالإناث ، وشوهد أن عدد الذكور يزيد على عدد الإناث في المدن ويزيد تدفق الشباب من الريف والأحراش إلى المدن في متاعبها ، ويكون جيشاً من المتعطلين الذين ليس لهم مهن معروفة ويضاعفون عدد البروليتاريا المتذمرة ، وهم يتكدسون في الأحياء الفقيرة في مساكن من الصفيح تنبيء عن فاقة مدقعة ويعتبرون عالة على المجتمع ، كما يحشرون في منازل أقاربهم انتظاراً لحصولهم على العمل بلا جدوى ، وهكذا تشجر مشكلات البطالة في صورة ضخمة بشعة تفغر فمها لابتلاع أبناء القارة في تخبطهم الحالي ، ويزيد في خطورة الحالة تفشي الأمراض تبعاً لضعف الوسائل الصحية مع صعود عدد السكان بما يفوق طاقة القارة على الإنتاج في وضعها القائم .

(ح) الوسائل الفنية الحديثة : أصبحت هذه الوسائل في متناول القارة اليوم وتغلغلت إلى قلبها وأخذت تختفي تدريجياً الصناعات اليدوية والحرفية ، وكان العالم الإفريقي وهو عالم قديم تاريخه غابر ينبيء عن فجر الحياة الإنسانية ، يقوم على القوى الطبيعية المعروفة للقدماء وهي الطبيعة وعضلات الإنسان وقوة الحياة وجريان المياه وسير الريح ، ويضاف اليوم إليها حركة الآلة التي تسير بالبخار أو الكهرباء كأساس للقوة والإنتاج ، كما أن طرق النقل المتعددة تساعد في اتصال الناس ومختلف الأجناس وتبادل المنافع والأفكار مع رواجها ، وهذا التطور إلى أساليب الغرب يسهله انتشار العملات الحديثة في القارة كأساس للتعامل وإختفاء العملات القديمة والمقايضة .

كما بدأ الفلاح الإفريقي وقد تحرر من ربقة الاستعمار يدرك أهمية المزرعة كمدرسة له ولجماعته ، وأخذ يترك الوسائل العتيقة في الزراعة والفلاحة ويهتم

باختيار البذور الصالحة واتباع الطرق الحديثة واستخدام الأسمدة الكيماوية ، ووضحت عنايته برفع مستوى معيشته لا فى الإنتاج فحسب بل كذلك فى طعامه وإهتمامه بالوسائل الصحية الناجعة وبزخرفة منزله وبحياته اليومية واقتنائه الأثاث وأدوات الطبخ والملابس ولوازم المنازل على آخر طراز وبوسائل الترف وهو فى طريقه نحو تنسيق حضارته المادية وفق ما يتبعه الغرب على حد قول البعض ووفق المدنية العالمية، إذ أن ما فى الغرب هو وجه عالم اليوم وهو نفس ما يتبع فى المدن الكبرى بآسيا والعالم الجديد وإفريقيا من استخدام ابرة الخياط إلى القاطرة والسيارة وطائرة السياحة والنقل والثلاجة والراديو والترانستور والتلفزيون وهكذا . . .

(د) تحول الأفكار والعادات : إن هذا التحول له أهميته إذ يمكننا من إدراك الروح الحقيقية الإفريقية ، وله نواحيه السياسية والعمالية والحضارية ، ويمكن شرح ذلك فيما يلى : —

١ — أن تحرر إفريقيا أدى إلى فقدان غالبية زعماء القبائل وحكام المناطق الوطنين السابقين أهميتهم اليوم وقد رموا بأنهم صنائع الاستعمار وعيونه وأبواقه، ونشأت أحزاب سياسية وبدأ نشاط نخبة ممتازة من المثقفين والعاملين ، ومنهم من ينتمون إلى الأرستقراطية التقليدية القديمة ، غير أنه نشأ مجتمع جديد وقد انقضى وولى القديم ، ولم تعد السلطة السياسية بين أيد مقدسة أو شبه مقدسة ولا صلة تربط الحكام الجدد بالزعامات الدينية أو بالأسلاف وأرواحهم ، وهذا نتيجة تغلغل النظم الديموقراطية والأفكار السياسية الغربية ، والعدالة والمساواة وقد أصبح صوت المواطن يعادل صوت الآخر فى الانتخاب بلا تمييز ، وتواصل إفريقيا كفاحها السياسى وتباشر الشعوب إدارة دفة الحكم والأخذ بناصر المواطنين فى أجواء عاصفة من مؤامرات الاستعمار وبقايا المنازعات القديمة بين القبائل والعشائر وأطماع الساسة .

٢ — أن الأسرة الحديثة فى إفريقيا تقوم اليوم على أساس الزوج والزوجة والأولاد وطبيعة العمل والحياة السياسية لا على أساس القديم البالى وهو اعتبار الأسرة عشيرة مكونة من مجموعة من الأسرات تكون عصبية معينة ، وقد تدهور بالتبعية سلطان زعيم الأسرة ولم يعد هناك تسلسل فى النفوذ تدريجى بين الجماعة ، وأصبح الزوج وزوجته يقيمان صرح الأسرة باختيارهما لا بأمر زعيم العشيرة ويسكنان مستقلين عن الأهل والآباء ، كما تتضاءل تدريجياً الفوارق بين الرجل والمرأة ، ونشأ بينهما تعاون على قدم المساواة اجتماعياً واقتصادياً ، كما أخذت تختفى عادت الغابر التى ينكرها الإسلام والمسيحية فى قيام الأسرة وانتساب الأبناء إلى الأم لا إلى الأب وإلى الخال وسائر فروع الأمومة .

٣ — أدى رواج الصناعات وإنتشار استعمال الآلات والسعى فى كسب العيش بلا تردد وبجرأة وهمة ، وقد شعر الإفريقى بمسئولياته واتسع نطاق المدنية ، إلى بدء هدم سياج الطوائف والحرف ، ونشأت طبقة عاملة قوية تقدر مدى وزنها فى المجتمع وتسعى إلى كسب حقوقها بلا انتقاص منها وتؤيدها نقابات واتحادات ، ويسعى إليها رجال السياسة لكسب المقاعد البرلمانية بأصوات أبنائها ، وأخذت تتضاءل الأهمية القبلية ودار عقرب الساعة من جماعة الأسرة والقرية والعشيرة والأخوة فى الدين والطريقة ، إلى عمال الزراعة والصناعة والصفوة الواعية والمشتغلين بالإدارة وسائر الوظائف المكتبية ...إلخ وهذا المجتمع الجديد بنظامه الذى يتمشى مع تيارات التحرر السياسى يتطلب بعض الوقت كى يستقر وتتلاشى نهائياً أوضاع الماضى، على أنه يتعين على الإفريقى الحديث أن يعمل جاهداً لتلافى ما قاسته المجتمعات الغربية وهى تنزل إلى حلبة الصناعات الحديثة لتتصارع فى نطاق الطبقات صرعاً مريراً.

(٤) إن أوضاع أفريقيا الجديدة لها خطوط حضارية تتفق مع اتجاهاتها السياسية وأخذها بأسباب المدنية الحديثة ، ويتعين ألا يكون هذا على حساب

الشخصية الإفريقية حتى لا يؤدى انحدارها فى التيار الغربى بلا تحفظ ودون أن تبعد ما يضر وتبقى ما ينفع إلى فتح منافذها على مصاريعها لاستقبال الاستعمار فى صورة جديدة ، ولكن يتعين ألا يترتب على الإبقاء على الروح الإفريقية تعويق التقدم المادى الضرورى لحياة الإفريقى ولطعامه ، ولا يقف الأمر عند حضارة عمرها أكثر من ألفين من السنين كما هى الحال فى الحبشة مثلا ، لضمان الأخذ بأسباب العلوم والمعارف والصناعات الحديثة ، ويتعين البحث عن أسباب تأخر النمو ورسم الخطط والسياسة الصالحة لتقدم القارة وإعداد القوت لأبنائها دون هوادة ، وهذا واجب الصفوة القيادية الواعية والتضامن الإفريقى ومنظمة الوحدة الإفريقية التى سنتكلم عنها فيما بعد .

ولن يتقدم الإفريقى إلا فى ظل صلات اجتماعية طيبة بينه وبين سائر أبناء جلدته ، وليست هذه مزايا معنوية فحسب بل هى صلات يترتب على توثيقها نجاح العمل فى تنمية موارد القارة لصالح أبنائها مادياً ، وإن المشكلة الأساسية للقارة اليوم شأنها شأن سائر البلدان التى فى طريق التنمية الاقتصادية هو أن هناك هوة سحيقة بين أقلية ناعمة البال تتمتع بثراء عريض وكثرة تعيش فى ضنك وشظف تكاد لا تجد الضرورى، وسبق أن اجتازت أوروبا هذه المرحلة ، غير أن الفارق كبير ، وينتشر الإسراف فى الإدارة فضلا عن عجزها ويشتد فقر الزارع والصانع رغم ذلك ، وإن الدخل السنوى لزارع فى إفريقيا الغربية مثلا لا يبلغ أجر مسكن وطعام فى فندق عادى فى داكار أو لاجوس أو بيدجان لمدة خمسة أيام ، ولكن ما يبرز شجاعة أفريقيا وقدرتها أنها تباشر تحولا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سنوات قليلة بينما صرفت أوروبا عدة قرون فى تحقيقه ، لذا قد ينتحل العذر فى الصراع والاضطراب والقلق ، وليس من السهل أن تمر إفريقيا باعتبارها مجتمعاً عتيقاً فى مفازة ضيقة وعرة المسالك يعيش حياة الفطرة والجماعة إلى مجتمع حديث يشعر الفرد فيه وكأنه قد فقد سبيله بيعده

عن عشيرته وهو يكافح فى سبيل العيش فى وسط لا توازن فيه لمستوى المعيشة وعلى المرء أن يحقق بكده كمواطن حر أسباب عيشه وأن يدرك أهدافه فى الحياة الحديثة ، كما أنه يصعب على الجماعة أن تأخذ بأسباب الصناعات الآلية الحديثة دون أن تصبغ عيشها بروح إنسانية سمحاء . وإفريقيا تتحول من مدنية تقليدية عتيقة إلى مدنية صناعية حديثة ، وعليها أن تدرك أهمية الناحية الإنسانية فى تحقيق تقدمها الحديث ، وهى ترى العالم اليوم ناحيتها الإنسانية على أساس التعاطف والتضامن .. وللتمسك بأهداب هذه الناحية أهميته فى نجاح رسالات الشعوب النامية الفضة العود الحديثة البناء .

ثالثاً — الإشتراكية الأفريقية :

الاشتراكية الإفريقية اشتراكية ذاتية ليس لها نظائرها خارج القارة ، وتختلف عن الاشتراكية المعروفة فى أنها لم تسبقها فلسفات ومثل عليا ومدائن الأحلام على نسق جمهورية أفلاطون واليوتوبيا لتوماس مورو كامبانيلا وكابيه وأحلام برودون وسان سيمون وغيرهم ممن كتبوا فيها قبل أن تبرز المشكلات الجسام التى تتطلب العلاج عن طريق الاشتراكية ، بل هى اشتراكية عملية وتطبيقية جاءت كعلاج حتمى للأمراض الاجتماعية والمادية التى قاستها الشعوب الإفريقية ولا زالت تئن منها لشفاء أوجاعها والخروج عن طريق الاشتراكية إلى النقاهة فالشفاء ، ولقد ألقيت على عاتق الصفوة الواعية والمسئولين ورجال السياسة وزعماء القارة مسئوليات جسام منذ بدء ثورة القارة وغليانها وسعيها نحو تحريرها واستقلال بلدانها ، ويمكن التسؤل كيف يكون القضاء على الفقر والجهل والمرض وتوزيع الرزق والعمل على الإفريقيين وفق الكفاية والعدالة وما يحفظ للافريقى كيانه وكرامته ؟ وكيف التوفيق بين موارد القارة وما ينتظر من تزايد عدد السكان بنسبة أعلا من تزايد موارد الإنتاج ؟ وكيف يمكن التمشى

مع ركب الحضارة العالمية ؟ الرد على ذلك دائما هو ضرورة الأخذ بنظام جديد موجه تخطط الدولة أساليبه لكى بنى بحاجات الشعب ويضاعف الإنتاج الزراعى والصناعى. على أن يضع أيضاً حداً لبطش الاحتكارات ونظم الإقطاع واستنزافها دماء الشعوب الأفريقية وأموالها وثرواتها وضرورة اشتراك الشعب ككتلة واحدة وجماعية فى التشييد والبناء . فالإشتراكية حتمية لامندوحة عنها للنهوض وإفريقيا وهى ليست فلسفة فحسب بل هى روح النهضة الإفريقية بشرط أن تتمشى مع البيئة وعقلية الأهلين وحضاراتهم وعقائدهم .

وليست هـــذه بدعة دخيلة على القارة فإن الأرض فى كثير من أصقاع إفريقيا السوداء جماعية فى امتلاكها وزراعتها ، وتوزع المحصولات وفق حاجات الأسرات ، فضلا عن الأرض روح الإفريقى فهى مصدر غذائه مما يدفع المجدين إلى الإقبال على بذر البذور ورجاء الثمار وانتظارها أينما وجدت الأرض فهى فى خدمة العشائر ، وهذه دائمة التنقل تبحث عن الزرع والعشب والمرعى والمياه الغزيرة ، وهناك مثل شائع فى ساحل العاج يقول « ليس المرء بسيد للأرض ومالك لها بل الأرض هى التى تسوده » ، ورب العشيرة ليس بمالك للأرض بل هو منظم للانتفاع بها ، ومن السهولة بمكان فى هذا النظام الجمعى بحكم البيئة والعادات أن تنجح الجمعيات التعاونية ، وفضلا عن ذلك فقد لاقت الاشتراكية وهى الحل الحتمى لمشاكل السكان والإنتاج والتنمية والنهوض بالقارة الترحيب من سواد الإفريقيين تبعاً لوقوف الأحزاب اليسارية فى القارة ولم تكن مستعمراتها قد استقلت ضد الغرب والمتسلطين المستعمرين، ومما لا شك فيه أن الحياة القاسية فى أفريقيا وبساطة الناس وقناعتهم وحياتهم الفطرية ووجوب تكتلهم لمقاومة عناصر الطبيعة وتوفير القوت تحدو بهم إلى التمسك بالنظام الجماعى . وفى ذلك يقول سنغور « إن الحياة الإفريقية بطبيعتها التقليدية اشتراكية ومعنى ذلك أن المجتمع الإفريقى الزنجى هو مجتمع يقوم على

النظام الجماعى .. فى صورته الافريقية والمسألة ليست فى كيف يمكن وضع حد لاستغلال الإنسان للإنسان بل فى الحيلولة دون حدوث هذا فى أى وقت من الأوقات وبأى حال من الأحوال » ، وهـــذا النظام الجماعى Communautaire هو طبيعى بالنسبة للشعوب الإفريقية ويناسبها ويساعد فى تعاون الفرد واشتراكه فى جهود الجماعة اجتماعياً وسياسياً واقتصاديا ،ولا غرو فى هذه الحالة أن يستمر اتجاهه نحو الأحزاب اليسارية فى القارة وأن يتزايد نشاطها وتلتف حولها الجماهير تطلب الخلاص عن طريقها مما يعترضها من أزمات ومشكلات .

ومهمة الإشتراكية الأساسية فى إفريقيا يمكن أن نحصرها فيما يأتى :

١ — المهمة الاقتصادية : مردها أن القارة تجابه تضخما سكانيا كما سبق أن ذكرنا ، وهى غير مزودة بمعدات الإنتاج الحديث بما يتناسب مع وضعها الجديد ، وهى تسعى نحو مكانها فى الميدان الدولى وتطمح فى سياسة صالحة وواقعية لتحقيق نموها وتقدمها ، وأمامها عدة وسائل لبلوغ غايتها وهى النظام الرأسمالى الفردى كما فى الغرب أو رأسمالية الدولة أو الإشتراكية أو الماركسية ، وقد اختارت بعض الدول الإفريقية النظام الرأسمالى الفردى مثال ذلك اتحاد جنوب إفريقيا والحبشة والسودان وساحل العاج وروديسيا الجنوبية وليبريا وزامبيا إلى حد ما وتوجو وفولتا العليا ومدغشر والنيجر واختار بعضها الآخر فى مرحلة معينة من تنميتها الماركسية أو مايشبهها على أساس جمـــاعى كمالى وغينيا والكونجو برازافيل ، غير أن الغالبية وقع اختيارها على الإشتراكية ولكن لا يكفى الشعار لاعتبار البلاد اشتراكية كما هو الحال فى رواندا وتشاد ، والاشتراكية ليست مجرد التأميم فإن رأسمالية الدولة تباشر بدورها التأميم كذلك كما نراه فى صميم النظم الرأسمالية الفردية وبالمثل التخطيط والجماعية فى الزراعة

وهذا مشاهد فى السودان فى أرض الجزيرة ، وهذا الاختيار لثمار الإشتراكية أكثر واقعية وأقرب إلى الفهم وخاصة للصراع القائم ضد الاستعمار الأوروبى، وكذلك لأن تقدم البلدان الاشتراكية فى أوروبا وآسيا السريع ونمو صناعاتها فى الإتحاد السوفييتى والصين وغيرهما أعطى المثل الواضح فى نجاح التجربة وفى أنها المفضلة فى إفريقيا ، والمهم الهدف أما الوسائل فهى تتغير بتغيير البيئة وروح الشعوب وكفاياتها ، وكلما نما عدد السكان وتردد المسئولون فى طرق العلاج تعقدت مشاكل القارة تبعا لاعتمادها على زراعة رقيقة الحال وبعد الشقة بين أسعار محاصيلها المنخفضة وأسعار المواد المحولة والمصدرة منها إلى مصنوعات يبيعها الغرب بإضعاف أسعارها إلى الشعوب الفقيرة التى تحتاج إلى كل درهم لتنمية مواردها ، وأصبح أمام إفريقيا لعلاج ضعف إنتاجها وضحالة أسعار محاصيلها بمقارنتها بأسعار الإنتاج الصناعى أن تأخذ بهمة بأسباب التنمية الصناعية ، وهناك طريقان بما يشاهده العالم فى الدولتين الصناعيتين الجبارتين وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى بإعدادهما الصناعى الضخم ، فإما أن تختار القارة الديموقراطية الرأسمالية الفردية وتترك الإنسان للمنافسة فحسب أو تأخذ بحزم وقوة النظام الجمعى واضطلاع الدولة بالسياسة الإشتراكية ، ومما لاشك فيه أن فى اختيارها أثراً عميقاً على علاقاتها الخارجية ، وقد اختارت دول متعددة الاشتراكية بتنظيم الدولة وتخطيطها كل صغيرة وكبيرة فى الإنتاج .

٢ — المهمة السياسية: الاقتصاد والسياسة صنوان لا يفترقان، والاشتراكية يعنى بها انتهاء استغلال الانسان للانسان وتسخيره لصالحه وبالتالى انتهاء الوصاية الاستعمارية ، ومما لاشك فيه أن الدول الغربية بما فيها بروليتاريتها حققت رفاهتها إلى أقصى الحدود على حساب البروليتاريا ودولها فى إفريقيا عن طريق الاستعمار ، وظلت سياسة فرنسا وانكلترا والبرتغال وبلجيكا مائعة وغامضة حيال قضية تصفية الاستعمار، وكثير من الزعماء فى إفريقيا اغترفوا من الاشتراكية

يبعدوا سياستهم القائمة على مكافحة الاستعمار وتحرير أوطانهم ، وهذه نفس الفكرة التي تحدو بهم إلى بناء بلادهم على أسس حديثة وإقامة الوحدة الإفريقية ويتطلب هذا تحقيق الوحدة السياسية ، وهي لاتتم إلا عن طريق الوحدة القومية وانهاء نظام رؤساء العشائر والنظام القبلي وإقامة حكومة قوية بدستورها ووحدتها وتغذية الروح الوطنية وتخطيط سياسة ثقافية ، وتحقيق هذه الغايات ليس من السهولة بمكان فلا تزال المنازعات القبلية سائدة في غانا والكونجو ورواندا وكونجوبرازافيل وكينيا وزانزبار ، كما تتمسك القبائل في بعض البلدان الحديثة باستقلالها والذهاب بالنظام المحلي إلى أقصى الحدود كما في نيجيريا حيث يسود الحياة السياسية تعدد الأحزاب والأجناس والعشائر ، كما نرى تعارضاً وتناقضاً شديداً بين البلدان الغنية والأخرى الفقيرة كما في نظرساحل العاج إلى إفريقيا الغربية الفرنسية سابقاً ، ورأينا أيضاً السياسة تطغى على المسائل الاقتصادية رغم أهميتها القصوى وتبرز فيها أخطر المؤمرات كما حدث في انفصال كاتانجا عن الكونجو وذلك بتآمر رؤوس الأموال الأجنبية ، وكذلك قد تكون المبالغة في الاشتغال بها معرقلة للمضي إلى الامام ويتضح هذا في بوروندي وهي بلاد صغيرة وعدد الأحزاب السياسية فيها لا يقل عن ٢١ حزباً ، كما أن حداثه الحياة السياسية وخلوها من التجارب العميقة مع مؤامرات الاستعمار تؤدي هذه العوامل إلى تعدد الانتفاضات والثورات في شتى بلدان القارة كما حدث في الكونجو ونيجيريا وغانا ، وتتعدد الخلافات بين النقابات والحكومة وتضاعف هذه رقابتها عليها بالاشتراك مع الحزب كما هو الحال في مالي وغينيا والسنغال وموريتانيا والنيجر وفولتا العليا وداهومي وغانا والكونجو ليوبولدفيل مما يؤدي إلى احتجاجات الطلبة وشباب العمال ، وهكذا يشتد الغليان وتستمر الثورات الواحدة تلو الأخرى ، وبعضها ينجح كما هو الحال في السنغال وتوجو وداهومي وزانزبار والكونجو برازافيل وفولتا العليا ونيجيريا

وبعضها يجهض كالحال فى ساحل العاج وأوغندة وتانجانيقا وجابون والكاميرون كما أن تعدد القوميات وتقسيمها إلى حدود بعيدة لإنشاء دول مستقلة تصبح عقبة فى سبيل الوحدة الإفريقية وتبذر بذور سياسات انفصالية أو تساعد عليها كما حدث فى كاتانجا وبوجاندا وأشانتى ، وكذلك فإن أحلام الماضى ومجده الضائع يؤديان إلى الحنين إلى الإمبراطورية الكبرى الزائلة مثال ذلك غينيا الكبرى والسودان الكبير والصومال الكبير وما تدعيه ليبريا ومالى وغانا حيال جاراتها ومطالبتها بأراض منها ، يضاف إلى ذلك أحلام تحقيق الفكرة القومية على أساس الجنس والعنصر ، وآمال الزعماء فى الانفراد كل منهم بقيادة القارة وتوجيهها .

وقد خفف ميثاق الوحدة الإفريقية وإقامة منظمة محكمة البناء من حدة الاضطراب السياسى فى أولى خطوات الاستقلال فى بلدان القارة ، وشجع الميثاق الأعضاء على التعاون الاقتصادى والبحث بطريق الحسنى عن علاج لمنازعاتهم ، كما اتخذوا موقفاً موحداً فيما يتناول الحياد وعدم الانحياز وتحريم استخدام السلاح الذرى وتجريد القارة منه وذلك فى المجال الدولى ، غير أن وحدة خططهم لم تتضح جلية بعد إلا فيما يختص بمناهضتهم للاستعمار ومكافحتهم للعنصرية ، أما فيما يختص بسياستهم الاقتصادية الفنية وهى التى تساعد فيما بعد على تحديد خطة موحدة لتحقيق الاشتراكية الإفريقية للقارة مع جعل نقاباتها صفاً متراص البنيان وتشمل الاتحاد الجمركى وتنسيق البرامج والخطط الصناعية بما فى ذلك السوق الإفريقية المشتركة ووحدة العملة فلم تصادف بعد ما يرجى منها ، وقد يمكن تذليل العقبات السياسية المذكورة عن طريق مثل مشتركة تنبع من الاشتراكية الإفريقية لصالح مختلف الدول الإفريقية ، وتصبح الاشتراكية فى هذه الحالة وسيلة وغاية ، ولكن رغم ما يحيق بالاشتراكية من صعاب فى الفهم والتطبيق فإن مثلها أخذت تنفذ شيئاً فشيئاً إلى صميم حياة القارة الاجتماعية لتصبح مستقبلاً السياسة المسيطرة عليها والتى ترجو منها الكثير

لحل مشكلاتها ، وهى فى تطبيقها تتخذ وضعاً ذاتياً خاصاً بإفريقيا يختلف عما تم فى أوروبا ويمكن أن تسمى بحق « الاشتراكية الإفريقية » وتختلف عن الرأسمالية الفردية للنظام الاقتصادى الحر مع صبغها بالطابع الإفريقى لروح القارة وشخصية الإفريقى وطبيعة أرضه وحاجاته .

وتتميز الاشتراكية الإفريقية بالصفات الكامنة فى أهل القارة وروحها ورغبتهم فى الإبقاء على القديم مع التجديد ، وتحمل الاشتراكية الإفريقية فى طياتها الروح الدينية والعقائدية لأهل القارة على اختلافهم من وثنيين ومسلمين ومسيحيين ، ولا يتنازل الإفريقى عن عقيدته للاشتراكية ومبادئها القائمة على المادية التاريخية، والروحانيات لا تذهب وتقضى إرضاء للأفكار المستوردة من أوروبا ، وإذا وجدت قلة لا يعتد بها تتشدق بالماركسية واللينينية وتريد إنكار ما عداهما من مثل تنبع من ماضى إفريقيا وتاريخها وأرض الوطن فالغالبية الساحقة التى تحررت من الاستعمار لا تريد أن تذهب ضحية عبارات براقة دخيلة عليها فتذوى قوميتها وتذر رياح النفوذ الأجنبى الذى يهب من الاتحاد السوفييتى أو الصين استقلال إفريقيا وقومية شعوبها وشخصية الإفريقى ، وكل ما يهم الإفريقى هو رفاهة إفريقيا ورخاؤها وسيرها نحو مضاعفة الإنتاج وذلك فى سبيل وضع حد لفاقة الجماعات وبؤسها ، ويلاحظ أن الأديان على اختلافها تحض على مكافحة البؤس وكسب القوت بعرق الجبين والعمل والجد والمثابرة كما تسوى بين البشر أمام الإله القوى وفى سبيل الحساب عن أعمال الخير والشر ، ولا فرق بين الإفريقى الوثنى والآخر أمام عناصر الطبيعة الجبارة وقسوة الحياة .

والمسلم الإفريقى للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً والمسلمون متساوون كأسنان المشط ، وجاء فى آيات الله الحكيمة بخصوص التعاون

والتعاضد فى الإسلام « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات أولئك لهم عذاب عظيم » ، وجاء بخصوص تقارب الشعوب بلا تمييز أيضاً « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله خبير عليم » ، وجاء بخصوص ضعف الإنسان أمام قدرة الإله وقوته ولعل فى ذلك عبرة « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره » ، وكذلك « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ، وجاء فى آية شريفة فى حض المسلمين على التواضع والرحمة والبعد عن الفساد وطبيعى أن يقوم فى هذه الحالة مجتمع الرفاهة والمساواة والبعد عن التفاخر بالأحساب والأنساب واستعلاء أقوام على آخرين « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياه الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ، ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد، يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ، وجاء فى الحديث الشريف عن تعاون المؤمنين وحسن معاملة كل للآخر « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وفى حديث آخر عن التعاون ، «إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم

موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا ما تصنع . قال هذا مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإذا أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » ، وقال الرسول يوم فتح مكة فى خطبته على باب الكعبة لقريش « يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب » ، وتدل هذه العبارات البليغة على بساطة الإسلام وديموقراطيته وتمسكه بالمساواة التى تنادى بها الاشتراكية بعد انقضاء عشرات القرون على بزوغ الإسلام ، وفى ذلك يقول الرسول أيضاً « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ، والعدل هو أساس الحكم فى الإسلام وقد جاء فى كتاب الله الحكيم « وإذ حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وفى ذلك يقول الرسول فى حديث قدسى « ياعبادى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » وردد هذا القول أبو بكر فى مبايعته بالخلافة مما يدل على قوة الاشتراكية وسياسة النقد فى الإسلام.. « أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوى حتى أريح عليه حقه ، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، ولا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » وكرر هذا المعنى عمر بن الخطاب حينما ولى الخلافة فقال « ياأيها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » ، وقال فى نفس المعنى على بن أبى طالب ، والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً وأجر فى الاغلال مصفداً أحب إلى من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشىء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول فى الثرى حلولها » ، كما

أن دار الإسلام واحدة تأوى الناس من مسلمين وذميين وتسود فيها نظم الإسلام وتعاليمه ويعيش الفريقان فى تعاون ووئام وكل يباشر عمله وقد اطمأن إلى عدالة التشريع وسماحة الحاكم وديموقراطية الروح الإسلامية .

وأخيراً نذكر المسيحية وموقفها من رعاياها فهى تشجع العمل ولا ترى غيره من سبل الحياة الشريفة والإنسان يكسب قوته بعرق جبينه وذلك فضلا عن حضها على التحاب ونشر السلام بين رعاياها ، ولا غرو أن يكون العمل والمحبة أساسين لحياة الأسرة المسيحية وقد كان رأس أولاها نجارا، وهى لم تحبذ البذخ والثراء العريض كهدف للحياة ولصالح فرد أو نفر لما يكمن فيها من خطيئة، وفى ذلك يقول سان توماس الأكوينى Saint Thomas D'Aquin وهو من رءوس الكنيسة المسيحية فى القرن الثالث عشر ما خلاصته أن الذهب والفضة ليسا الهدف الأسمى الذى يجب أن يسعى إليه الإنسان وأن السعادة البشرية التامة هى فى تأمل الرب والابتهال إليه وهو وحده السيد الأعلى الصحيح .

وتختلف الاشتراكية الإفريقية عن الاشتراكية الأوروبية فى أن الأولى كما بينا لم تسبقها فلسفات ومدائن أحلام بل جاءت سراعا لنجدة أبناء القارة من ورطاتهم وأزماتهم أما الثانية فقد سالت الأقلام فى وصف سعادة الناس بتحقيقها وتعددت الوسائل كما وصف المفكرون مايؤدى إليه تحقيقها من نتائج تختلف باختلاف عصر الكتابة والآراء والميول ، وبينما أن كتاب الرأسمالية الفردية لم يتحمسوا لدراسة مسائلها إلا بظهور أزماتها واستحكام حلقاتها نجد أن تصورات رجال مدائن الأحلام فى أوروبا تتتالى منذ كتابات أفلاطون فى جمهوريته ، وكذلك يشاهد فى الاشتراكية الغربية وفى ذات الوقت فى الراسمالية التقدم الفنى والآلى وتقسيم الأعمال وتنظيم الإنتاج واتباع طرق التخطيط إلى أقصى الحدود وكذلك تتعدد هناك المشروعات وتتعدد وسائلها الفنية والإدارية ، وفى الإتحاد السوفيتى نرى النظام الجمعى يراعى فى الإنتاج

الصناعى بصفة كاملة وفى الزراعة بصفة جزئية ،وفى أوروبا الغربية تعتبر الملكية الزراعية الفردية من الأسس الهامة للرأسمالية بينما أن الصناعة تخضع لعدة نظم فبعض المصانع يمتلكها الأفراد وبعضها يتبع نظام الشركات المساهمة بأسهم لحاملها دون اعتبار للأشخاص وهى تتداول بسهولة فى السوق وهناك أيضاً المؤسسات الصناعية والمشروعات الاقتصادية المؤممة لصالح الشعب وفى مقدمتها بنوك الإصدار وشركات التعدين وصناعات الصلب والسكك الحديدية ، أما إفريقيا فالوضع يختلف عن أوروبا فى جل البلدان التى تحررت من الإستعمار وتلك التى لاتزال ترزح تحت عبء الإستعمار وهى فى طريق التنمية وفى أشد الحاجة إلى تجهيزها بالفنيين والمصانع وهى لاتزال زراعية ، والاشتراكية تبرز بوضوح فى المجال الزراعى ويمكن تشبيه وضعها إلى حد ما بوضع الصين الزراعى وبطغيان مشكلات الزراعة وتوفير الغذاء للشعب على التصنيع ولاشك أن الأثر التاريخى والجغرافى والثقافى له اعتباره فى إفريقيا ، وهكذا تنأى الفلسفة الإشتراكية فى إفريقيا عن نظيرتها فى أوروبا ، ومما يلفت النظر كذلك ويبعد الشقة بين الإشتراكيتين ، أن اشتراكية أوروبا صحبها كفاح الطبقات العنيف والحركات العمالية وثورات العمال ونداء ماركس فى منتصف القرن الماضى يطالب العمال فى العالم بالإتحاد ويقول « ياعمال العالم أجمع اتحدوا » ونجم عن هذا الكفاح عدد من المصادمات الدموية بين الأجيرين وأرباب الأعمال والمصانع والقوى الحكومية التى تعضد الرأسمالية الفردية ولم يظهر هذا اللون من الصراع فى إفريقيا فالرأسمالية الفردية الإفريقية الصحيحة ضعيفة رقيقة الحال والقوى الرأسمالية التى تتصارع مع الأهلين أجنبية استعمارية وقد بدأ نجمها يأفل بذبول الاستعمار . فضلا عن أن الطبقة العاملة محدودة العدد فالصناعات فى القارة تعد على الأصابع وهى قليلة الحيلة بينما أن الزراع والفلاحين هم سواد الشعب ويضاف إليهم جيش الموظفين والإداريين وتأتى أوامر الثورة عادة من النقابات العمالية

للصناعات . والمشكلة الأساسية التى تهم الإفريقى هى محاربة الاستعمار وصنائعه ورؤوس الأموال الأجنبية المستغلة والاحتكارات الغربية ، ويلاحظ أن أوروبا تحتوى على نظم اجتماعية اقتصادية متعددة فهناك الرأسمالية الفردية التقليدية ورأسمالية الدولة والنظم العمالية المتعددة التى تدير المشروعات والاشتراكية الإنسانية بمشروعات إصلاحها القائمة على التطور والاشتراكية العلمية التى جاءت فى أعقاب ثورات دامية ونظرياتها فى المنطق المادى للتاريخ ، وإفريقيا تحتوى على اتجاهات عدة فيما يتناول النظام الرأسمالى فهناك النظام الجماعى مع مايصحبه من تخطيط عام يفرض بإرادة الحكومة وقوتها وسلطان المسئولين والالتجاء إلى الادخار الجبرى واستخدام الانسان بتوجيهه إلى العمل كما فى غينيا والجزائر وغانا ومالى وهناك النظام الجماعى الأكثر مرونة وحرية وهو لايصل حلقاته بالماركسية كما هو الحال فى السنغال وتانزانيا وتونس وهناك النظم المختلطة حيث الاعتقاد قوى فى أهمية الربح والرأسمالية القائمة على توظيف الأموال فى المشروعات وتمشيها مع الاشتراكية الزراعية على أساس الجمعيات التعاونية وحشد الجماعات للنهضة الزراعية كما فى داهومى والمغرب ، وهناك الاتجاهات المحافظة أو الرجعية فيما يتناول الرأسمالية كما فى ليبريا ونيجيريا وأثيوبيا ، ويضاف إلى ذلك اتباع شتى الدول الإفريقية سياسة التأميم لصالح الشعب لعلاج أزماتها الاقتصادية ورفع مستوى الفرد وزيادة دخله كما حدث فى مصر والكونجو وتانزانيا وغيرها أخيراً .

ويمكن أن نستخلص من التطبيق الإشتراكى فى إفريقيا حسب ماذكرناه آنفا أن الهدف مايأتى :

١ — الذهاب فى استثمار موارد الثروة فى بلدان القارة الاشتراكية إلى أبعد الحدود والاستعانة فى هذا الغرض بالكفايات الوطنية وغيرها، والاسترشاد

بالاشتراكية الزراعية للصين فى بلدان كمالى وبروسيا السوفيتية فى بلدان أخرى كغينيا .

٢ — توفير الأعمال للطبقات الكادحة ومكافحة الفاقة عن طريق ضمان العيش الكريم لأكبر عدد من السكان ورفع المستوى الصحى بينهم ونشر التعليم وخاصة الفنى مع الاستعانة بالخبراء المحايدين وبالمساعدات الأجنبية فى حدود محدودة .

٣ — تخطيط اقتصادى واجتماعى على نطاق واسع وإعداد مشروعات متتالية لسنوات محددة وتتجدد بنجاح الخطة ، وهى تتناول الإنتاج وتوزيع الحاجات .

٤ — حصول الفرد على حاجاته على أساس نشاطه وأن لكل فرد وفق كفايته وعمله ، مع وضع حد أقصى للكسب وتحديد الدخل وغير ذلك من التشريعات الاشتراكية كما فى مصر .

وطريق التطبيق الاشتراكى كما سبق أن أشرنا فى إفريقيا محفوف بالأشواك ، ولم تسبق الاشتراكية الإفريقية فلسفة جدلية ودراسات مذهبية ذات بال ، كما حدث فى الغرب ، وقفزت الشعوب الإفريقية فى فترة وجيزة من الاستعمار إلى التحرر وكان عليها لاستعاضة مافاتها تحقيق تكنولوجية فنية رفيعة ورفع مستوى المعيشة المعنوى والمادى للفرد سريعاً ، وكان على القادة علاج المشكلات الجسام التى تجابههم عن طريق الإشتراكية كتطبيق وتجربة ، غير أن التطبيق لم يخلو من نشاط فكرى بل إنه فى بعض البلدان الإفريقية مارس شبابها ومثقفوها وأعضاء نقابات واتحادات العمال فيها التفكير الإشتراكى وتوثيق صلاتهم بالأحزاب الخارجية كاتصال أعضاء النقابات فى المستعمرات الفرنسية السابقة وما تسمى البلدان الناطقة بالفرنسية فى إفريقيا بالأحزاب اليسارية فى

فرنسا وخاصة الحزب الشيوعى ، كما أن الاشتراكية العربية على ضفاف النيل جاءت كتفكير عميق لزعيم الثورة وقائدها وبطل الوحدة العربية الرئيس جمال عبد الناصر وهو مادار فى خلده فى فلسفة الثورة وماعبر عنه فى كتاباته وخطبه وما اختط فى الميثاق الوطنى ، وفيما يلى ملخص للناحية الفكرية لهذه الاشتراكية العملية موزعة على بلدان إفريقيا :

١ — الاشتراكية العربية : ويتزعم تطبيقها قائد الثورة المصرية الرئيس جمال عبد الناصر وهى تبرز فى سياسة مرسومة لخطط الثورة وتطبيقاتها لصالح الجماعات وفى القضاء على الاستعمار والنفوذ الأجنبى وتحقيق الإصلاح الزراعى والتصنيع والتأميم لصالح الشعب واقتلاع جذور رأس المال الجشع والمستغل والأجنبى ورفع مستوى الأجور وتوفير الحاجات للناس،ووصف الميثاق الوطنى لمايو سنة ١٩٦٢ هذه الاشتراكية وحتميتها فيما يأتى «إن الاشتراكية بدعامتيها من الكفاية والعدل هى طريق الحرية الاجتماعية » كما جاء فيه « إن الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وصول ثورى إلى التقدم لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى وإنما كان الحل الإشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين » ، وذكر الميثاق أيضاً «إن هذا الحل الاشتراكى هو المخرج الوحيد إلى التقدم الاقتصادى والاجتماعى وهو طريق الديموقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية » ، ويعاون الاشتراكية العربية فى دراسة حاجة الشعب إليها ووجوه علاج مشكلاته وفى مراقبة تطبيقها جهاز سياسى شعبى منظم هو « الاتحاد الاشتراكى » ، وهو يقوم على أساس التدرج صعودا من القاعدة الشعبية وفق تكوين هرمى حتى القمة ، ولجانه تبدأ من الريف والقرية لتنتهى فى البنادر والمدن الكبرى

والعاصمة ، ويجتمع الأعضاء بانتظام لمناقشة المشكلات والمشروعات ومعالجة الشكاوى ، ثم يرفعون مقترحاتهم للمسئولين ، وهذا الاتحاد بلجانه وأمنائه ورؤسائه ورئيسه الأعلى يعتبر لسان حال العامل والمواطن ، وتبذل اللجان قصارى جهدها لخـدمة الشعب بلا تمييز وفارق بسبب الطبقة أو العمل أو الوظيفة .

٢ — الاشتراكية الإفريقية الماركسية اللينينية : انتشرت الأفكار الماركسية اللينينية ، ويعنى بها تكييف لينين فى كتاباته وتطبيقاته بعد إقامة الاتحاد السوفييتى الاشتراكية العلمية لماركس ، نتيجة نشاط النقابات فى البلدان الإفريقية الناطقة بالفرنسية واتصالاتها بالاحزاب اليسارية وخاصة الشيوعية فى فرنسا وموسكو ، وانحصرت مثلها بين عدد محدود من المثقفين فى السنغال وغينيا ومالى والكمرون والجزائر وجمهورية أواسط إفريقيا ، وسرعان مااصطدمت أفكار دعاة هذه الاشتراكية بالروح الوطنية الإفريقية التى لم تقبل فكرة التطور المادى للتاريخ ودكتاتورية البروليتاريا وتلقى التعليمات من الخارج ، وتغلبت فكرة الحياد الإيجابى والاستقلال والقومية بكافة معانيها وضرورة بعد نقابات العمال عن المؤثرات الخارجية ، على الفلسفة الاشتراكية الغربية ، ووضحت دائما الروح الإفريقية وشخصية الإفريقى .

٣ — الاشتراكية الإفريقية الماركسية : وهى لاتقبل فكرة الدكتاتورية العمالية وكفاح الطبقات وابتلاع ما خلفه ماركس ثم اعاد لينين صياغته وحوره وطبقه بحذافيره ككل ، بل هى تسلم بعلو كعب مؤلف ماركس عن رأس المال شأنه لها ككتاب مقدس لايخطىء على أن تبقى لأفريقيا شخصيتها الاشتراكية وهذا لايمنع من تعاونها مع شيوعيتى الاتحاد السوفييتى والصين ، كما أنها تتجه فى دراساتها وجهودها نحو الاشتراكية الزراعية على

أساس العمل الجماعى والمساواة وألا تتقيد الفكرة بالتقاليد على أن تراعى الروح الإفريقية والحياد الايجابى وعدم الانحياز ، ويرى أنصارها قبول المعونات من الجانبين الشرقى والغربى فى حدود المحافظة على السيادة القومية وكان هذا النوع من الاشتراكية فى غانا وإلى حد ما فى الجزائر ومن ناحية التطبيق فى غينيا وإلى حدما فى مالى .

٤ — الاشتراكية الإفريقية التجريبية : ويعنى بها الاشتراكية القائمة على حاجات الشعب وما تصادفه الحكومات من صعاب تعمل على تذليلها عن طريق الواقع وطبائع الأهلين والروح القومية ، وهى لا تستورد من الخارج ولا تشترك فى منازعات مذهبية كما هى الحال فى الغرب ، بل تنبع من صميم الوطن ، وإن ما تهدف إليه هذه الاشتراكية هو رسم الحكومة الخطط لتوزيع أكبر قسط من الرفاهة على الناس والتقارب بين فئات الشعب ودخول الناس فى إطار المحافظة على الروح القومية والحضارية للأمة ، وهذا التطبيق الاشتراكى مشاهد فى الجمهورية العربية المتحدة وداهومى وتانزانيا والسنغال وتونس والجزائر ، ومن أوضح الأمثلة الأخيرة على الاشتراكية الإفريقية التجريبية أو التطبيق الاشتراكى ما قامت به تانزانيا فى فبراير سنة ١٩٦٧ فى سبيل تحرير اقتصاديات البلاد من الاستغلال والنفوذ الأجنبى وتحقيق رفاهة أوسع نطاقاً للمواطنين بتأميم أهم شركات الاستيراد والتصدير بعد أن أممت البنوك والمطاحن.

٥ — الديموقراطية الاشتراكية : يعنى بها الاشتراكية التى تجمع بين الحريات والحقوق الفردية على نسق ما هو متبع فى الغرب والنظام الاقتصادى الجماعى ، وهى تبرز فى كينيا وأوغنده ولدى الجماعات السياسية التى يسودها التوتر نظراً لتصادم النظام القبلى فيها بجماعات سياسية وفيرة العدد من الأوروبيين البيض ، وهى ديموقراطية لأنها تقوم على تأييد الديموقراطية الغربية ويباشر

الفرد فى ظلها نشاطه وكفاياته وينميها لخدمة المجتمع ، وهى إفريقية لأنها تتمشى مع الحضارات الإفريقية والمحافظة على شخصية وكرامة الشعب واعتداده بنفسه ليشيد ما هو خليق بنهضة البلاد ، وهى اشتراكية لأن الحرية السياسية والمساواة القانونية فى نظرها لا يكفلان وحدهما تحرير الشعب من الاستغلال الاقتصادى وتحقيق العدالة الاجتماعية للكادحين ، وهى لا تأخذ بفكرة كفاح الطبقات ولكنها تحارب الاستعمار الجديد وتتمسك بالحياد الإيجابى وعدم الانحياز والوحدة الإفريقية ، ونراها فى كينيا وزامبيا وإلى حد ما فى الكونجو .

الباب السابع

أصول الوحدة الافريقية

يتعذر التفكير فى تعاطف وتآزر مجموعات بشرية لتحقيق اتحادها السياسى إلا إذا صحب ذلك رغبة حقة فى العيش المشترك فى إطار متجانس أساسه تفاهمها فى التمسك بهذا الوضع ، ويتطلب الأمر اجتماع عوامل شتى لتحقيقه من أهمها التقارب الروحى بينها على أساس تشابه حضاراتها ولسانها وتفاهمها المعنوى فضلاً عن مركزها الجغرافى والمصالح المشتركة التى تدفع نحو ارتباط جهودها وتبادلها المنافع ، وتقوم فكرة اتحاد الشعوب الإفريقية على أساس تكوين القارة العنقودى الذى تلتئم فيه حياته وضرورة تعاونها للمحافظة على رباط هذا العنقود وصلابته وحتى لا ينفرط عقده ، وجاء فى فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر «إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الإفريقيين » ويواصل البيان فيقول « ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء ، ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة » ، وهذا قول حق فمصر وهى فى أعلى الطرف الشرقى للعنقود الإفريقى فى مقدمة الدول التى يجذبها مغناطيس الرغبة فى العيش المشترك فى إطار القارة والعمل على تحقيق فكرة اتحاد إفريقيا والاهتمام بكل ما يجد فى القارة من تطورات وأحداث .

وقوة إفريقيا هى فى تعاون شعوبها من عرب وإفريقيين حيث تجمعهم مصلحة واحدة فى الجهاد ضد الاستعمار والتفرقة العنصرية والاستغلال لصالح الاحتكارات الشرهة للامبراطوريات الكبرى ، وفى ضرورة تنظيم هذا التعاون على أساس وقوف الشعوب الإفريقية على اختلافها فى وجه الغاصب ، ويلاحظ أن مصر بنيلها تذهب إلى قلب القارة وهى فروع وأغصان شجرة باسقة فارعة جذورها تغوص فى أعماق المنطقة الاستوائية ، وجذعها يمتد عبر السودان ، وثمرات ثورتها الناجحة ليولية سنة ١٩٥٢ شهية تبث فى الشعوب الإفريقية الشقيقة والصديقة القوة لتحطيم سلاسل الاستعمار والركود وتجمعها فى صالح مشترك هو محاربة الاستعمار والسير قدماً إلى الأمام والوصول إلى مكانها اللائق تحت شمس الحرية ، وينادى الميثاق الوطنى لمايو سنة ١٩٦٢ بضرورة قيام وحدة عربية وجامعة شعوب إفريقية علاوة على تضامن الشعوب الأسيوية والإفريقية وهى الشعوب الشقيقة والصديقة فى كفاحها لتحريرها من نير الاستعمار ، وفى ذلك يقول « وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة إفريقية ويؤمن بتضامن أسيوى إفريقى يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ... » ويواصل الميثاق رسم السياسة الثورية للشعب المصرى المنبثقة من آماله فى حياة أفضل بفضل ثورة يولية سنة ١٩٥٢ فيقول « إن شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لإفريقيا المناضلة وهو لا يستطيع إن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى » ، ونرى فى هذه المبادىء وضوح سياسة ضرورة قيام وحدة الشعوب الإفريقية بلا فارق ولا تمييز لا فى سبيل تصفية الاستعمار والسياسة العنصرية الباغية فى صميم ديارها فحسب بل فى سبيل السير بالقارة قدماً لتحقيق رفاهة الشعوب التى قاست طويلا من رصاص المحتلين واستنزاف دماء وأموال أهل البلاد الأصليين والإثراء العريض على حساب قوتهم وعرقهم واغتصاب ثروات القارة البكر الدسمة .

وتعددت الأمثلة التى تتناول وصف السياسة الطاغية للاستعمار فى إفريقيا فى ثوبه القديم ووضعه الحديث غير المباشر ، وانضحت فى محاولة الغرب ربط العديد من دول القارة الإفريقية الحديثة النشأة بالسوق الأوروبية المشتركة لمساعدة الاحتكارات الفرنسية والألمانية وغيرها على مضاعفة استغلالها لموارد الأقطار الإفريقية التى تضامنت بالاتفاق مع السوق وتحقيق سياسة إفريقيا لأوروبا أو تعاون إفريقيا لمساعدة أوروبا Eurafrique على أن يكون التعاون لصالح أوروبا وعلى حساب أهل القارة رغم تأخرهم وأن تصبح القارة قاعدة استراتيجية للحرب القادمة المحتملة لتساعد الجيوش الغربية للعودة إلى الكر بعد الفر والإنسحاب من أوروبا بفضل قوى إفريقيا وجوارها ، وقد هاجم نكروما فى خطاب وجهه إلى المحاربين الإفريقيين فى غانا فى يونيه سنة ١٩٦٢ هذه السياسة بقوله « هناك محاولة لإحلال نظام استغلال المستعمرات القديم بنظام جماعى استعمارى حديث أقوى وأخطر من النظام القديم وعلينا أن ننقذ القاره من شروره » ، ومما يدل على تحيز سياسة المشاركة الإفريقية فى السوق الأوروبية المشتركة أنه وفق الإحصاءات زادت صادرات إفريقيا المنطقة الحرة من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٩ نحو ٩٠٪ بينما أن ما جنته من ربح من الزيادة يعادل ١٠٪ فضلا عن تهديد الصناعات الإفريقية الناشئة نتيجة انضمام بعض دولها إلى السوق المشتركة التى تصبح مزرعة حلوباً للدول الغربية أعضاء السوق .

ويتعين مجابهة أساليب الغرب ، فى الاستعمار الحديث بعد زوال الاستعمار التقليدى ، وخاصة أن معظم المعونات الغربية التى تقدم إلى الدول الإفريقية الحديثة الاستقلال هى لتمهيد السبيل لزيادة حاصلات إفريقيا التى تصدرها إلى الغرب ولسهولة نقلها عبر أقطارها إلى الموانىء مع التباطؤ فى إنشاء الصناعات

وفى استغلال مساقط المياه ، ويتعين أيضاً للقضاء على التمييز العنصرى والجهل والتأخر والفاقة أن توحد الشعوب الإفريقية صفوفها لتصبح كالبنيان المرصوص، وقد تحققت الوحدة الإفريقية اليوم وعليها أن تعمل على نموها وتدعيمها لتباشر مهامها الخطير ، وفى مقـدمتها إنهاء تسخير إفريقيا لصالح الغرب ، ومساعدة الجماعات فى القارة النامية فى رفع مستواهم المعنوى والمادى .

ولقد تنبهت شعوب إفريقيا إلى ما للمسائل الاقتصادية من أهمية وأنه يتعين علاجها عن طريق السياسة، وأن التيارات المتعددة المتضاربة التى تتجاذب أوطانهم التى تحررت حديثاً والصعوبات التى تعترض نهوضهم وتنمية ثروات القارة يمكن تلافيها عن طريق إنشاء وحدة لدولها لها نظامها فى طرح مشكلاتها على أعضاء الوحدة وتشاورهم فيها وتصفية منازعاتهم بالحسنى تحت قبتها وتعاونها فى تحقيق استقرار وحريات ورفاهة شعوبها وتصفيــة الاستعمار والتفرقة العنصرية والاستغلال والاحتكار الغربى لموارد ثرواتهم دون إعارة أى اعتبار لصالح الإفريقيين ، مع شد أعضاء الوحدة أزر بعضهم بعضاً بالمساعدة بمد العضو الذى فى حاجة إلى خبرة فنية ومساعدات ثقافية ومالية وصناعية بحاجاته منها فى حدود كفاية سائر الأعضاء واستعدادهم ، مع ملاحظة أن الجمهورية العربية المتحدة بما تحكم عليه من أيد عاملة فنية ومتخصصين فى الصناعة وتثمير الثروات والتعليم يمكنها أن تبذل الكثير فى هذه الوجوه ، وهى لا يفتر لهـا عزم فى مساعدة الشعوب الشقيقة والصديقة فى إفريقيا التى فى حاجة إلى المعونة المـادية والمعنوية الثقافية وهى لا تزال فى أولى خطوات تحررها من الاستعمار .

وبدأ التفكير فى الوحدة الإفريقية منذ أوائل القرن الحـالى كرد فعل لسياسة الاضطهاد العنصرى فى اتحاد جنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية وضرورة إنهائه ، ومن رواد هذه الفكرة والداعين لهـا سلفتر ويليامز وهو

محام من ترنداد ، وقد تزعم عقد مؤتمر لبحث فكرة التمييز العنصرى وشرورها ووضع حد لاضطهاد السود والاستيلاء على أراضيهم فى إفريقيا فى لندن سنة ١٩٠٠ ، وتعدد زعماء حركة تحرير السود منذ انتصار الشمال المتحرر على الجنوب المتعصب للتمييز العنصرى فى حرب الانفصال الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) وكان من أبرزهم بوجارد دى بوا ، ويعد بحق الأب الروحى لفكرة اتحاد إفريقيا ، ثم قامت محاولات من مفكرين شبعت روحهم بالمشاعر والآراء الانسانية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا فى منتصف القرن الماضى بإقامة جمهورية ليبريا فى إفريقيا لإعادة السود الأمريكيين إلى وطنهم الأصلى بناء على رغبتهم وكرمز لتحرير السود ، ونشأت على أساس هذا الاعتبار جمهورية ليبريا الحرة المستقلة القائمة حالياً على نسق النظام الأمريكى ، إلا أن هجرة السود إليها كانت فى أضيق نطاق لأن سود أمريكا لا يعرفون وطناً لهم إلا البلاد التى استوطنها أجدادهم منذ قرون وأجيال ، وهم لا يتكلمون لغاتهم الأصلية ولا يريدون بديلا عن وطنهم الأمريكى علاوة على ضحالة موارد الجمهورية الحرة الحديثة فى إفريقيا ، ولا يزيد عدد سكان ليبريا اليوم عن مليونين تقريباً وميزانية الدولة نحو ٣٥ مليون دولار مما لا يساعد على تحقيق فكرة هجرة السود إلى إفريقيا ، ثم تتالت مؤتمرات اتحاد إفريقيا منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان أهمها مؤتمر باريس سنة ١٩١٩ ثم لندن سنة ١٩٢١ ، ثم مانشستر سنة ١٩٤٥ ، واشتدت الحركة تدفع نحو تضافر الإفريقيين بعد الحرب العالمية الثانية وبدء تصفية الاستعمار وتحقيق المساواة بين الألوان والأجناس .

ونجحت الفكرة بقيام الاتحاد الإفريقى فى مؤتمر أديس أبابا فى مايو سنة ١٩٦٣ بعد محاولات فى كازابلانكا وبرازافيل ولاجوس وغيرها من

العواصم الإفريقية ، ومن أهم أغراض هذه المنظمة تعاون الشعوب الإفريقية فى شتى الميادين السياسية والاقتصادية والفنية والاجتماعية وجمع صفوفها لمجابهة الاستعمار الجديد وتحقيق نهضتها وتنمية اقتصادها سريعاً وتسوية مشكلاتها كمنازعات الحدود بالحسنى .

ويمكننا أيضاً أن نعزو التفكير الجدى فى هذه الوحدة إلى روح مؤتمر باندونج لسنة ١٩٥٥ الذى كان الخطوة الأولى فى إعلان فكرة التضامن بين الشعوب الشقيقة والصديقة فى آسيا وإفريقيا لتحريرها من الاستعمار ورواسبه، ولسيرها قدما فى طريق النهوض على أساس تعاونها فى الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم إلى فلسفة اجتماعات القاهرة لسنة ١٩٥٧ وكوناكرى سنة ١٩٦٠ وموشى من أعمال تانجانيقا أى تانزانيا اليوم سنة ١٩٦٣ ، وكان الاجتماع الأخير حامياً فى تصميمه الشديد على الإجهاز على الاستعمار ثم سائر الاجتماعات المماثلة على أساس تنظيمى فنى من شعوب إفريقيا فى ظل اتحادها .

ولقد انقسمت فكرة الوحدة الإفريقية إلى رأيين الأول كان يرى إنشاء الدول الإفريقية المتحدة على أن تتنازل هذه الدول لرباط الوحدة عن سيادتها . وكان نكروما رائد هذا الرأى فى أول الأمر حينما أقر مبدأ الوحـدة فى بيان سينا كيلى سنة ١٩٥٩ ، غير أنه أخذ شيئاً فشيئاً يميل إلى فكرة الاتحاد مع محافظة الأعضاء على استقلالهم ، وكان الرأى الثانى يرى إنشاء اتحاد من دول إفريقيا على أن تظل كل دولة مستقلة تماماً ومحتفظة بسيادتها مع ارتباطها بالتضامن الذى ينص عليه ميثاق الوحدة .

وأخذ صرح الوحدة الإفريقية ينمو بزيادة عدد الدول المستقلة فى إفريقيا ابتداء من استقلال غانا سنة ١٩٥٧ إلى أن ارتفع العدد اليوم إلى ٣٩ دولة مستقلة فى القارة عدا اتحاد جنوب إفريقيا وروديسيا الجنوبية ، ويقوم تضامنها

فى إطار الوحدة على أساس استقلالها واحتفاظ كل بسيادتها كاملة مع نسجها على منوال سياسة هذه المنظمة الجديدة ، وبدأت الخطوات الأولى للوحدة فى اتحاد غانا وغينيا فى نوفمبر سنة ١٩٥٨ ثم تأييد الفكرة بمؤتمر اكرا فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، وانضمت إلى الدولتين المذكورتين مالى بعد انفصالها عن السنغال فى أغسطس سنة ١٩٦٠ ، وأعقب ذلك دعوة من المغرب وغانا إلى اجتماع الدار البيضاء (كازابلانكا) فى يناير سنة ١٩٦١ علاوة على اجتماع أيضاً بين المغرب وجبهة التحرير الجزائرية وغانا ومالى ، وتقرر فيه إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية بجمعية استشارية وبلجان للشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية ، وعرف الاجتماع وما وصل إليه باسم مجموعة كازابلانكا ، وهى رغم مابين شطريها الشمالى والجنوبى من خلافات وخاصة موقف كل من المغرب وغانا من مشكلة موريتانيا فإن المجموعة بلا شك تمثل أفريقيا الثورية التى تسير بقوة وحزم إلى الأمام لا تلوى على شىء ، بفضل القوة الفكرية التى توحى بها الثورة المصرية ثم الكفاح الجزائرى وروحهما العربية الوثابة التى أضفتها على الميثاق الجديد ، ووضح بين الناطقين بالفرنسية من أهل القارة السود تفكير مماثل فى إقامة وحدة منظمة تزعم فكرتها بين اثنتى عشرة دولة « فيليكس هوبوى بوانيه » رئيس ساحل العاج ، وعقد اجتماع فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ ببرازافيل لبحث المشروع على أساس إنشاء منظمة اقتصادية إفريقية وملجاشية تقوم على التضامن والتعاون بين الأعضاء ، ثم أعقب ذلك اجتماع مونروفيا حضرته جل دول إفريقيا السوداء وذلك بقصد تحديد خطوط الوحدة الإفريقية ، ولم تحضره الدول العربية الثلاث لمجموعة برازفيل ، وكان من أهم أعمالها الاعتراف باستقلال موريتانيا ومنح تأييدها لكازافوبو رئيس الكونجو ، كما أنها أقرت مبادىء عدم اللجوء إلى العنف وعدم تدخل الدول الأعضاء كل فى شؤون الأخرى الداخلية واحترامها الحدود المقررة بينها

وأن تقوم المساواة بينها فى تعاونها الإفريقى هذا ، واجتمع الخبراء الإفريقيون المنجاشيون فى داكار من ١٧ إلى ٢٤ يوليه سنة ١٩٦١ لإعداد العدة للاجتماع الكبير فى لاجوس كنتيجة لمؤتمر مونروفيا ، ثم وقعت اثنتا عشرة جمهورية جديدة تتكلم الفرنسية فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٦١ بتناناريف عاصمة جمهورية مالاجاش ميثاق اتحاد إفريقيا مالاجاش ، وأظهر أعضاء الاتحاد فى اجتماعاتهم شدة تعلقهم بالأمم المتحدة كما أكدوا غرض الاتحاد ، وهو وفق الميثاق الذى وقعوه يشمل تنظيم التعاون بين الأعضاء واتجاهاتهم السياسية الخارجية على أساس ضمان سلامتهم المشتركة مع العمل متعاونين على تقدمهم وإنعاشهم وحفظ السلام فى إفريقيا والعالم ، ثم اجتمع مؤتمر لاجوس بين ٢٢ و ٣٠ يناير سنة ١٩٦٢ لمحاولة إقامة تعاون بين الشعوب الإفريقية السوداء على أساس من التطور الواقعى كما يزعم المؤتمر، ولم تحضره أو تؤيده الشعوب العربية ولاشك أن لها وزنها فى التيارات السياسية الإفريقية وفى مستقبل القارة إذ لم تدع إليه الجزائر المجاهدة والممثلة فى جبهة التحرير والثورة ضد الاستعمار الفرنسى ، وانتهى المؤتمر إلى نتائج ليست على قدر ثورة إفريقيا وروحها الوثابة ونهضتها العريضة .

ولكن هذه الجهود المتعددة التى ترمى فى النهاية إلى توحيد القوى الإفريقية اتجهت اتجاها واحدا فى نهر خضم عظيم يسير فى تيه وقد دفع أمامه العقبات ، ونشأت الوحدة الإفريقية فى مؤتمر أديس أبابا الذى دعا إلى عقده هيلاسيلاسى فى مايو سنة ١٩٦٣ وحضره مندوبو واحد وثلاثين دولة ، وتقرر فى اجتماع وزراء الخارجية الذى أعد العدة للمؤتمر للاتفاق على إنهاء موقف ميثاق « كازابلانكا » و « مونروفيا » ، وتقرر بمقتضاه إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية ، ولها جمعيتها العمومية من رؤساء الدول والحكومات ومجلسها من الوزراء وسكرتاريتها ولجان الوساطة والتوفيق والتحكيم ، واستقرت فيما بعد سكرتاريتها الدائمة فى

أديس بابا ، وتقرر أن يعقد اجتماع سنوى للمنظمة من رؤساء الدول الأعضاء فضلا عن سائر الاجتماعات للمجلس واللجان ، ولهذه المنظمة ميزانيتها التي يساهم فيها الأعضاء كل بقدر معين على نسق سائر المنظمات الدولية ، وغرض هذه المنظمة كما جاء في ميثاقها تقوية الروابط والتضامن بين الشعوب والدول الإفريقية وتنظيم وتوفير حياة أفضل للأهالين في ظل حرياتهم الجديدة والدفاع عن سيادة الأعضاء وأراضيهم واستقلالهم ووقاية القارة من محاولات الاستعمار الجديد وتحقيق أهداف الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخاصة مكافحة التمييز العنصري والاستعمار في كافة صوره ، كما نص الميثاق على أن تنفيذ هذه السياسة يكون عن طريق رسم دبلوماسية معينة وتخطيط إفريقي على أساس التعاون بين الأعضاء في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والغذائية والصحية والبحوث العلمية وفي تنظيم وتحسين وسائل النقل في أراضيهم وعبر حدودهم ، كما أن ضمن أهداف الميثاق ضمان سلامة البلاد الأعضاء في المنظمة وحدودها والدفاع عنها ضد الاعتداء واستقرار الأمن بينها ، على أن يقوم التعاون بين الأعضاء على أساس فكرة احترام السيادة والمساواة والاستقلال والحدود وسلامة الأراضي وعدم تدخل دولة في شؤون الأخرى الداخلية وضرورة حل مايشجر بينهامن خلاف بسبب الحدود أو غيرها بالوسائل السلمية عن طريق المساعي الحميدة والمفاوضات والوساطة والتحكيم ، واستنكر الميثاق القتل السياسي في شتى صوره والنشاط الهدام الذي يحدث بسبب الجيرة أو تدخل دولة ما في شؤون الأخرى من الدول الأعضاء ، وأكد الميثاق ضرورة تحرير كافة الأقطار التي لاتزال تابعة لدول أخرى مستعمرة مع تأييد سياسة عدم الإنحياز في الصراع الدولي ، وهكذا تمسك الميثاق بأهداب مبادىء الأمم المتحدة والاتجاهات الدولية السلمية للعالم الحديث في الصراع الدولي القائم اليوم والحرب الباردة .

وجاء فى المادة الأولى من الميثاق إنشاء الوحدة باسم «منظمة الوحدة الإفريقية » وتشمل الدول الإفريقية ومدغشقر والجزر المحيطة بالقارة ، وجاء فى المادة الثانية أن أغراضها : — (١) تدعيم وتشجيع الوحدة والتضامن بين الدول الإفريقية ، (٢) تنظيم وزيادة نشاط التعاون والجهود لتحقيق حياة أفضل لشعوب إفريقيا ، (٣) الدفاع عن سيادتهم وأراضيهم وحدودهم واستقلالهم ، (٤) اجتزاز الاستعمار فى كافة صوره ، (٥) تحقيق التعاون الدولى فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، كما تعهد الميثاق فى الفقرة الثانية من المادة المذكورة أن يعمل الأعضاء للوصول إلى غايتهم بتنسيق سياساتهم العامة وخاصـــة فى ميادين : (١) التعاون السياسى والدبلوماسى ، (٢) التعاون الاقتصادى بما فى ذلك النقل والمواصلات ، (٣) التعاون فى التعليم والثقافة ، (٤) التعاون فى وسائل الصحة والتغذية والأعمال الوقائية ، (٥) التعاون فى الشؤون الفنية والعلمية ، (٦) التعاون فى شؤون الدفاع والسلامة المشتركة ، وعددت المـادة الثالثة مبادىء المنظمة فذكرت أن الأعضاء يعملون لتحقيق الأغراض المنصوص عليها فى المادة الثانية على أساس : (١) المساواة فى السيادة بين كافة الأعضاء ، (٢) عدم تدخل الأعضاء فى الشؤون الداخلية لـكل منهم (٣) احترام العضو لسيادة وحدود وأراضى الأعضاء الآخرين وحقوقهم ويجب ألا تمس بحال من الأحوال المنظمة الحياة المستقله للدول الأعضاء ، (٤) فض المنازعات بينهم بالمفاوضات والوساطة والمصالحة والتحكيم ، (٥) الاستنكار بلا قيد ولا شرط فى كافة الصور للقتل السياسى ومـكافحته وكذا مـكافحة أنواع النشاط الهـدام للدول المجاورة من الأعضاء وكذا لغيرها (٦) بذل الجهود وتـكريسها فى سبيل تحرير كافة أراضى إفريقيا التى لا تزال محـكومة وتابعة لدول أخرى ، (٧) توكيد سياسة عدم الانحياز حيال كافة الـكتل .

وتناولت المادة الرابعة من الميثاق شروط العضوية وذكرت أن للدولة

المستقلة صاحبة السيادة أن تصبح عضوا فى المنظمة ، ونصت المادة الخامسة على الحقوق والواجبات المتساوية لكافة الأعضاء ، وتناولت المادة السابعة نظام المنظمة وأجهزتها لمباشرة مهامها وتحقيق أغراضها ، وتكونت بمقتضاها هيئات المنظمة على الوجه الآتى .

١ — هيئة أو جمعية رؤساء الدول والحكومات

٢ — مجلس الوزراء

٣ — السكرتارية العامة

٤ — لجنة أو لجان الوساطة والمصالحة والتحكيم

وحددت المادة الثامنة من الميثاق إختصاصات جمعية رؤساء الدول والحكومات وذكرت أنها الجهاز الأعلى للمنظمة ، وهى تبحث المسائل العامة التى تهم إفريقيا لتنظيم وتنسيق السياسة الرئيسية للمنظمة ، كما أنها تبحث تنظيم واختصاصات وأعمال شتى أجهزة المنظمة والهيئات المتخصصة التى قد تنشأ طبقاً للميثاق ، وحددت المادة التاسعة طريقة تكوين الجمعية من رؤساء الحكومات، فذكرت أنها تتكون من المندوبين المزودين بخطابات اعتمادات صحيحة ويجتمعون مرة كل عام على الأقل أو بناء على طلب إحدى الدول الأعضاء فى المنظمة ويشرط موافقة ثلثى الأعضاء على الاجتماع ويكون الإجتماع فى جلسة غير عادية، وحددت المادة العاشرة التصويت فذكرت أن لكل دولة من الأعضاء صوتاً واحداً فى الجمعية ، وأن القرارات تتخذ بأغلبية ثلثى الأعضاء على أنه فيما يختص بمسائل الإجراءات فيكتفى فيها بالأغلبية النسبية أى البسيطة على أساس عدد الأعضاء جملة ، وتعتبر الإجتماعات صحيحة بحضور ثلثى الأعضاء للمنظمة ، كما بينت المادة الحادية عشرة كيفية وضع اللائحة وذكرت أن الجمعية تنظم إجراءاتها وترسم القواعد التى تسير عليها فى أعمالها .

وحددت المادة الثانية عشر اختصاصات مجلس الوزراء ، وذكرت أنه مكون من وزراء خارجية الدول الأعضاء أو من فى حكمهم الذين تعينهم حكوماتهم ، وهو يجتمع مرتين على الأقل كل عام أو بناء على طلب إحدى الدول الأعضاء وموافقة ثلثى الأعضاءعلى الاجتماع ، ويكون هذا الاجتماع غير عادى ، وذكرت المادة الثالثة عشرة أن المجلس يبحث الموضوعات التى تكلفه ببحثها الجمعية العمومية للرؤساء وهو مسئول أمامها ، كما يعد لاجتماعات الجمعية ومؤتمراتها ويباشر تنفيذ قراراتها ويعمل على تدعيم التعاون الإفريقى على أساس ما يتلقاه من تعليمات من الجمعية العامة ، وبحكم المادة الرابعة عشرة من الميثاق فلكل عضو من أعضاء المجلس صوت واحد فى الاجتماع وتتخذ القرارات بالأغلبية العادية كما يكون الاجتماع صحيحاً بحضور ثلثى الأعضاء ، وبحكم المادة الخامسة عشر يباشر المجلس وضع لائحته التى ينسج على منوالها فى مباشرته أعماله .

وتناولت المادة السادسة عشرة اختصاصات السكرتارية العامة، فذكرت أنها الجهاز الإدارى للمنظمة وأن على رأسها سكرتيراً عاماً يصرف أعمالها، وتعينه الجمعية العامة لرؤساء الدول والحكومات وذلك بناء على توصية مجلس الوزراء ، وهو يباشر المسائل الإدارية للمنظمة وتسيير دولاب أعمالها ، وتناولت المادة السابعة عشرة تعيين المساعدين فذكرت أنه يجوز للجمعية تعيين سكرتير عام وأكثر ، وذكرت المادة الثامنة عشرة أن اختصاصات السكرتير العام ومساعديه وسائر موظفى السكرتارية يحددها الميثاق واللوائح والنظم التى توافق عليها الجمعية العامة لرؤساء الدول والحكومات ، وحظرت عليهم اتباع أية تعليمات تصدر مباشرة من أية حكومة أو منظمة خارج نطاق منظمة الوحدة الإفريقية ، كما حظرت عليهم السعى لدى الحكومات لتلقى تعليمات ما تبين تحيزهم أو تؤثر فى أعمالهم كموظفين دوليين .

وتناولت المادة التاسعةعشرة اختصاصات لجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم وذكرت أن الأعضاء يتعهدون بفض مشكلاتهم بالوسائل السلمية ، ولتحقيق هذه الغاية تشكل لجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم ويحدد تكوينها وتنظيم عملها ببروتوكول مستقل توافق عليه الجمعية العامة لرؤساء الدول والحكومات، وهذا البروتوكول يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الميثاق .

ونصت المادة العشرون على إنشاء لجان أو هيئات متخصصة حسب ما تقضى به الحاجة وذلك للشؤون الآتية :

(١) الاقتصادية والاجتماعية (٢) التعليمية والثقافية

(٣) الصحية والغذائية (٤) مسائل الدفاع

(٥) العلمية والفنية والبحوث .

وتكون لهذا الغرض لجان لكل منها ، وذكرت المادة الحادية والعشرون أن كل لجنة من هذه الهيئات تتكون من وزراء متخصصين أو وزراء ومبعوثين دبلوماسيين تعينهم حكوماتهم الأعضاء فى المنظمة ، وتباشر هذه اللجان الاختصاصات حسب ما جاء فى المادة الثانية والعشرين فى نطاق الميثاق ووفق ما يرسمه مجلس الوزراء من نظم ولوائح فى هذا الصدد .

ولم يغفل الميثاق رسم وجوه إيراد المنظمة وميزانيتها ، فذكرت المادة الثالثة والعشرون أن الميزانية يعدها السكرتير العام ويوافق عليها مجلس الوزراء ، ويغذيها ما تدفعه الدول الأعضاء على أساس النسبة المتبعة فى جدول حصص الدول الأعضاءفى الأمم المتحدة وعلى أساس أن ما يفى به العضو لا يتجاوزسنويا ٢٠٪ من الميزانية العادية للمنظمة .

كما قام أساس إنشاء المنظمة على فتح الأبواب على مصاريعها للدول الإفريقية ذات السيادة التى ترغب فى الإنضمام إليه ، وأن الدول المؤتمرة لإنشاء المنظمة تصدق عليها كل منها حسب دستورها .

ووكل إلى إثيوبيا الاحتفاظ بوثائق الميثاق والأصل بالانكليزية والفرنسية وباللغات الإفريقية على قدر الإمكان، وأن إثيوبيا تسلم لكل دولة من الدول الأعضاء صورة طبق الأصل من النسخة الرسمية ، كما وكل إلى إثيوبيا أيضاً الاحتفاظ بوثائق التصديق على الميثاق وبإبلاغ الدول الموقعة على الميثاق على التصديق ، وكان لاختيار إثيوبيا لمباشرة هذا العمل معنى هام فمؤتمر تأسيس المنظمة عقد فى عاصمتها كما اتفق على قيام السكرتارية العامة فيها .

ولكل دولة من الدول الإفريقية ذات السيادة التى لم تنضم بعد إلى الميثاق بحكم المادة الثامنة والعشرين أن تنضم إلى المنظمة إذا شاءت وذلك كما سبق أن بينا ، وفى هذه الحالة ترسل برغبتها إلى السكرتارية العامة للمنظمة لتتخذ الإجراءات اللازمة فى هذا الصدد ، وإجراءات القبول تكون بإبلاغ هذه الرغبة إلى كل عضو من الأعضاء ، وبالتصويت بالأغلبية العادية للدول الأعضاء على القبول والعضوية ، ويبلغ رأى كل عضو من الأعضاء إلى السكرتارية العامة ، ثم تبلغ الدولة المعنية بنتيجة الاقتراع وقرارات الدول ، ولكل دولة من الدول الأعضاء إذا شاءت الإنسحاب وذلك بحكم المادة الثانية والثلاثين أن تبدى هذه الرغبة كتابة وتبلغها إلى السكرتارية العامة للمنظمة . وإذا لم تعدل عن رأيها خلال نهاية عام من تاريخ إبلاغ الرغبة فى الانسحاب فلا يسرى بالنسبة لها الميثاق ولا تصبح مقيدة بأحكامه ولا تصبح عضوا فى المنظمة .

واهتم الميثاق بوسائل تعديله فنصت المادة الثالثة والثلاثون على جواز تعديل الميثاق ، ويكون ذلك بطلب مكتوب ترسله إلى السكرتارية العامة الدولة العضو التى تقترح التعديل ، على ألا تأخذ علما بهذا الطلب الجمعية العامة للنظر فيه إلا بعد إبلاغ كافة الدول الأعضاء فى الوقت المناسب بهذا الاقتراح ومرور سنة على هذا الطلب ، ولا يصبح التعديل له أثره ونافذاً إلا إذا وافق عليه ثلثا الدول الأعضاء فى المنظمة .

ولقد وافقت ثلاثون دولة إفريقية وهى الغالبية الساحقة لدول إفريقيا الناهضة على الميثاق فى ٢٥ مايو سنة ١٩٦٣ بإديس أبابا فى مؤتمر إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية ، ولم يحضر المؤتمر المغرب وتوجو ، أما الدول التى وقعت الميثاق فهى : الجزائر ، بوروندى ، كاميرون ، جمهورية إفريقيا الوسطى ، تشاد، كونجو برازافيل، كونجو ليوبولدفيل،داهومى، إثيوبيا،جابون،غانا، غينيا، ساحل العاج ، ليبريا ، ليبيا ، جمهورية مالاجاش ، مالى ، موريتانيا ، نيجير ، نيجيريا، راوندا ، سنغال، سيراليون، جمهورية الصومال ، السودان، تانجانيقا ، تونس ، أوغنده ، الجمهورية العربية المتحدة ، فولتا العليا .

وإن منظمة الوحدة الإفريقية تمثل القارة الوثابة فى سياستها القائمة على تضامن شعوبها من إفريقيين وعرب ، وهم يعملون سويا لا فى إقامة تعاطف بينهم فحسب بل فى إنشاء توازن دولى على أساس مجموعة من الشعوب والدول الحرة الجديدة فى العالم الدولى ، ويقفون موقف الحياد وعدم الانحياز إزاء صراع الغرب والشرق على وتيرة صراع المثل فى عصر الإصلاح الدينى فى أوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحرب الثلاثين سنة للامارات الألمانية الكاثوليكية والبروتستنتية سنة ١٦١٨ — ١٦٤٨ الذى ترك البلدان الجرمانية قاعاً صفصفا .

كما أن هذه الوحدة رغم أنها لا تزال فى المهد فهى تحاول خدمة الأمن الدولى واستتباب السلام والابتعاد عن المنازعات المسلحة والإلتجاء إلى التحكيم وما إليه لعلاج المشكلات الدولية فى القارة، كذلك تؤيد المنظمة المساواة بين الأجناس والألوان ووجوب تصفية الاستعمار ، وهى تنهج فى أعمالها نهج النظام السائد فى سائر المنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة على أساس أن لكل دولة من الأعضاء صوتاً فى المنظمة بصرف النظر عن مساحتها وعدد سكانها ، كما تحتفظ

كما بينا كل دولة بسيادتها داخل المنظمة فيما عدا ما تفرضه عليها قواعد الميثاق ، وكذلك تعنى المنظمة حسب ما سبق أن شرحنا بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهى نفس ما تهدف إليه هيئة اليونسكو فى الأمم المتحدة ، وتسعى إلى تضافر الشعوب الإفريقية فى النهوض بمواردها وتنميتها ، وكانت باكورة أعمالها فى هذا الميدان إنشاء البنك الإفريقى وتبادل المدرسين الإفريقيين .

وأعباء المنظمة الجديدة ليست بالهينة ، فعليها فى حدود الميثاق أن تعمل أيضاً على نشر وتنسيق النواحى التطبيقية للاشتراكية كعامل أساسى فى رفع مستوى المواطن الإفريقى وأن تعالج مشكلات الحدود بحكمة ، وسبق أن شجرت بين الجزائر والمغرب والحبشة والصومال ، وأن تعيد دراسة الحدود بين المستعمرات السابقة لفرنسا وهى ليست واضحة التخطيط ومراعاة العـــــوامل الجغرافية كالأنهار والصحارى والجبال فى هذا التخطيط ، وأن تعالج مشاكل جنسيات وحاجات الرحل بقطعان ماشيتهم وهم ينشدون المرعى ويعبرون الحدود دون أن يحفلوا بالقوانين ونظم الجنسيات الحديثة ، وأن تعالج مشاكل الهجرة الاقتصادية والسياسية حسب حاجات العمل وتثمير الثروات وزراعة الأراضى البور القابلة للزراعة ومسائل الأنهار الدولية وتنظيم الملاحة فيها والاغتراف من مياهها ، ومشاكل نقل السلع والحاصلات عبر الحدود والترانسيت ، وأن تدرس وضع الصحارى والفيافى المشتركة دون حدود واضحة فى القانون الدولى وترسم الفواصل بينها ، وقد تتعقد الأمور بخصوصها بسبب العثور على معادن فى أراض معينة قرب الحدود تدعى كل دولة أنها ضمن أراضيها ، وربما يمكن علاج المشكلة وتلافى الصدام المسلح عن طريق إنشاء مناطق محايدة لتطبيق السيادة على الأهلين فيها دون الأراضى .

ويتعين على المنظمة أيضاً مواجهة خطر الجماعة الأوروبية وسوقها المشتركة

مع المبادرة إلى إنشاء سوق إفريقية مشتركة وتنفيذ المشروع فوراً حتى لا تستمر سيطرة الاستعمار على موارد القارة ، وسبق أن وقع اتفاق بالأحرف الأولى بين ثمانى عشرة دولة إفريقية والملجاش فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٦٢ يسرى من سنة ١٩٦٣ إلى سنة ١٩٦٨ ينظم تعاملها مع منظمة بروكسل، ويقرر الاتفاق معاملة المثل فيما يختص بالحاصلات الزراعية والسلع المصدرة من وإلى الأعضاء ، كما يمنح تدريجياً حق تخفيض فإلغاء الرسوم الجمركية على الصادرات من البلدان المتعاقدة إلى الجماعة الأوروبية ، وتمنح جماعة السوق الأوروبية بمقتضى الاتفاق مساعدات مالية إلى البلدان الإفريقية المتعاقدة مع السوق الأوروبية تصل إلى ٧٤٠ مليون دولار منها ٦٢٠ مليون دولار لا تسدد فضلاً عن ٤٢ مليون دولار كقروض خاصة و ٦٤ مليون دولار من البنك الأوروبى لتوظيف الأمـــوال ، وهذه المساعدات من وسائل الإغراء فى سياسة الاستعمار الجديد ، وتباشر تنفيذ الاتفاق هيئة من مجلس الدول الشريكة بالتعاون مع مجلس وزراء الجماعة الأوروبية وبرلمان للشركاء مكون من الإفريقيين مع البرلمان الأوروبى على قدم المساواة وأخيراً محكمة للتحكيم فى المنازعات .

وتصبح مهمة السوق المشتركة إزاء تحقيق هذا المشروع الهام تحرير القارة اقتصادياً وتنسيق تثمير مواردها وقواها العاملة على أساس تبادل المنافع بين الأعضاء مما يوفر على شعوبهم الجهد والمال ويساعدهم على الحصول على الحاصلات والمصنوعات بأسعار زهيدة وقد خفضت رسومها الجمركية دون حاجة إلى الالتجاء إلى الأسواق الأوروبية وغيرها خارج القارة ، ويترتب على نشاط السوق أيضاً خروج الأهلين من الفاقة إلى الرخاء وارتفاع مستوى معيشتهم سريعاً ، ويكون تحقيق منهاج السوق على خطوات فيخفض السياج الجمركى تدريجياً إلى حد هدمه والاندماج فى وحدة اقتصادية بعد سنوات وتوحيد تشريع العمل والتجارة وكذلك توحيد العملة أو رسم أسعار ثابتة بينها حتى لا يهدد تقلباتها المعاملات،

كما تفضل الحاصلات والمصنوعات الإفريقية على غيرها وتخطط حاجات المصانع إلى المواد الأولية والأيدى العاملة وحاجات الأهلين إلى الحاصلات الزراعية والمصنوعات على أساس الطاقات الإفريقية وتثميرها ونموها المطرد ، وأول ما تحتاج اليه بلدان هذه السوق قيام اقتصاد فى بلد ما يكمل اقتصاد البلد الآخر وكذلك الخبرة واليد العاملة المثابرة الماهرة والكفاية الفنية وهو ما يمكن تحقيقه بما قد تقدمه الدول المتقدمة صناعياً إلى غيرها فى القارة ، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة ، وإذا كان يمكن تحقيق التعاون بين بلدان غرب إفريقيا الساحلية الصغيرة المتجاورة فقد يصعب هذا بين سائر الأقطار تبعاً لاتساع القارة وصعوبة المواصلات ، وسبق أن قامت تجربة لاتحاد جمركى سنة ١٩٥٩ بين دول إفريقيا الاستوائية التى تتكلم الفرنسية لفترة وهى جمهوريات وسط إفريقيا وجابون والشاد والكونجو برازافيل .

وجاء مؤتمر القمة الإفريقى الثانى الذى عقد فى يوليه سنة ١٩٦٤ فى القاهرة يؤكد تعاون الشعوب الإفريقية ووقوفها صفاً واحداً فى مواجهة الاستعمار والمشكلة العنصرية والاجتماعية وأزمات الحدود فى جو من حسن التفـــاهم والسلام وتأييدها للأمن الدولى ، وكان الخطوة التالية فى التضامن الإفريقى بعد مؤتمر أديس أبابا الذى سبق أن رسم سياسة إفريقية فى إطار ميثاق الوحدة وقد زالت الحواجز بين مجموعات دول الدار البيضاء ومونروفيا وبرازافيل ، ورسمت الخطوط العريضة واللجان الفنية لدراسة حاجات القارة ومشكلاتها بدقة وتعرض على مؤتمر القمة الثانى .

ومؤتمر الوحدة الإفريقية بأديس أبابا ثم بالقاهرة هما نقطة تحول هام فى حياة القارة ومستقبلها ، وقد اجتمعت حول مائدتيهما دول إفريقيا المستقلة وقد عقدت شعوبها العزم على العيش سويا فى إطار ميثاق ترتضى به يكفل لها

النهوض المطرد والبعد عن التيارات السياسية المتعارضة التى تهدد بالزج بها فى أحداث العالم واضطراباته الدامية وتخرج بها من موقف الحياد وعدم الانحياز إلى الانغماس فى صراع الغرب والشرق ، وكانت أهم قرارات مؤتمر القمة الثانى فى القاهرة الذى عقد من ١٧ إلى ٢١ يولية سنة ١٩٦٤ علاوة على ما قرره فى صدد دراسة اللجان المختصة التقارير التى تتناول إنشاء قيادة عليا وتصفية الاستعمار ومقاطعة اتحاد جنوب إفريقيا ردا على إصراره على موقفه من التمييز العنصرى مع مناشدة البلاد التى تنتج البترول (ومن أهمها البلاد العربية بشبه الجزيرة وشمال إفريقيا) أن تكف عن تزويد بلاد هذا الاتحاد بهذا المعدن النفيس والدعوة إلى الإفراج عن زعماء النضال من أجل التحرر من الاستعمار ومن التفرقة التى تخضع لسيطرتها فى تقرير مصيرها وتنظيم الوساطه والتوفيق والتحكيم وشتى الإجراءات الخاصة بسير العمل فى المنظمة وإنشاء وتعيين اللجان المختصة وضرورة علاج مشكلة روديسيا الجنوبية وموقف حكومة البيض وهى تمثل الأقلية فحسب التى تمضى فى إعلان استقلالها دون اشراك الغالبية فى الحياة السياسية بما يكفل حريات الغالبية وتسليم السود مقاليد الحكم ، واختيرت فى اجتماع المؤتمر بصفة ثابتة أديس أبابا مقراً دائما لسكرتارية المنظمة ، ويعد بحق هذا المؤتمر المنبثق عن منظمة الوحدة الإفريقية ذا أهميـــة كبيرة فى حياة الشعوب الإفريقية وهذا ما أكده بحق الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه بمناسبة انفضاض جلساته فقال « ... كان تجديدا خلاقا لمتابعتها الواعية (أى الشعوب الإفريقية) لكل أهداف نضالها ، خرجت منه بزاد فكرى ومعنوى تستعين به على مواصلة زحفها . . » وهو يعبر عن وحدة النضال والآمال والأهداف للشعوب الإفريقية والاسيوية التى سبق أن تقاربت أحاسيسها ومشاعرها فى اجتماعات باندونج .

وعقد مؤتمر القمة الإفريقى الثالث من ٢١ إلى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٥

فى أكرا بعد إعداد مجلس وزراء الخارجية لجدول أعماله ، وعمل الأعضاء بلباقة للمحافظة على كيان المنظمة واستبعاد ما يضر بالثورة الإفريقية وإزالة المحاولات الاستعمارية الخفية للتفرقة بين الدول الإفريقية ، وكان المؤتمر أكثر هدوءاً من سابقه الذى أصر فيه تشومبى رئيس وزراء الكونجو على حضوره ورفض الأعضاء قبوله بشخصه نظراً لخضوعه للاستعمار ، وشمل جدول الأعمال المسائل الآتية : تطور الموقف فى روديسيا ومشكلة الكونجو وتدهور الموقف فى جنوب إفريقيا لإصرار حكومة الاقلية على إعطاء الأرض الخصبة للأوروبيين وطرد الإفريقيين منها ومسائل المحميات الباقيــة وهى باشوكولاند وبتشوانالاند وسوازيلاند وضرورة مساعدتها على التحرر الوطنى وتحديد العلاقة القانونية بين لجنة تحرير إفريقيا وصندوق تمويل حركات التحرر الوطنى وعلاقة اللجنة بالمنظمة وتدعيم مكتب مقاطعة جنوب إفريقيا وتحديد اختصاصات أجهزة المنظمة لتلافى الإسراف والازدواج والتضارب فى العمــل ، وبحثت اللجنة السياسية للمجلس العديد من المقترحات الخاصة بروديسيا ووجوب أن تعيد دول المنظمة النظر فى علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع انكلترا فى حالة إعلان روديسيا استقلالها من جانب واحد وعــدم تحمل بريطانيا مسئولياتها كاملة تجاه حقوق الأغلبية الإفريقية وأن تنسحب دول الكومنولث منه وأن تسحب ودائعها من بنوك انكلترا ، على أنه استبعد بعــد ذلك الاقتراح الخاص بالانسحاب من الكومنولث وسحب الودائع من البنوك الإنكليزية ، كما بحثت اللجنة مشروع الاتفاقية الخاصة باللاجئين فى إفريقيا ويبلغ عددهم نحو نصف مليون .

وتأجل إقرار ديباجتها على أن تكلف لجنة من الخبراء لصياغتها فى ضوء الاتفاقية الدولية للأمم المتحدة لعام ١٩٥١ ، وناقشت اللجنة السياسية توصيات لجنة الدفاع وحصرت التدخل العسكرى من دول المنظمة عند وقوع عدوان أو

غزو على القارة من الخارج واستبعد التدخل فى حالة الاضطرابات الداخلية ، وبحثت موضوع تحرير إفريقيا وأمر اللجنة التى تتخذ مقرها فى دار السلام ، والتدريب العسكرى للتحرير ، وتقرر تشكيل لجنة لإعداد مشروع قرار فى هذا الشأن على أن تبقى لجنة تحرير إفريقيا كجهاز سياسى تنفيذى ويشرف عليها السكرتير العام المنظمة من الناحية الإدارية ، وبحثت اللجنة الوزارية موضوعات مناطق الاستعمار البرتغالى وتنظيم الحركات الوطنيـة فى أنجولا ، وطالبت هذه لجنة المواصلات بالمزيد من الدراسات فى دائرة اختصاصها ، كما أحالت اللجنة الإدارية إلى السكرتارية العامة عدداً من الموضوعات لإجراء المزيد من الدراسات منها مسألة إنشاء محكمة إدارية لمنظمة الوحـدة ونظام المعاشات والتأمين للموظفين واختيار شعار المنظمة والعلاقة بين المنظمة واللجان التابعة للأمم المتحدة العاملة فى إفريقيا ، وبحثت اللجنة تطورات قضية جنوب غرب إفريقيا وكانت مطروحة أمام محكمة العدل الدولية ، وبحثت ميزانية المنظمة وقدرها نحو خمسة مليون دولار وشكلت لجنة استشارية بصددها وفقا لمقترحات السكرتير العام .

وأبدت ٢٤ دولة رغبتها فى حضور المؤتمر وأخيراً تغيب عن الاجتماع ثمانى دول وهى : النيجر وفولتا العليا وساحل العاج وداهومى وجابون وتوجو وتشاد ومالاجاش لأسباب ترجع إلى الأمن وحضر رؤساء تسع عشرة دولة هى : إثيوبيا وغينيا ومالى والجمهورية العربية المتحدة والكامرون والجزائر وليبيريا وملاوى وموريتانيا والكونجو (برازافيـل) والكونجو (ليوبولدفيل)والصومال وتانزانيا وزامبيا وغانا والسودان ونيجيريا وسيراليون وجامبيا ، وناقش الرؤساء مشكلة روديسيا وإعلان الحكومة غـير الشرعية الاستقلال من جانب واحد وما تتعرض له زامبيا من خطر وضرورة اتخـاذ موقف الحزم من الحكومة الفاشية البيضاء هناك ومشكلة الكونجو والجنود

المرتزقة هناك وصرحت حكومة الكونجو بأنها ستصفى هؤلاء وستبدأ عهداً من التضامن الإفريقى بعد تصفية عملاء الاستعمار من البلاد ، وبحث المؤتمر موضوع التخريب فى إفريقيا وضرورة وضع حد له وخاصة أن الاستعمار يمول عملياته التى يقوم بها الهاربون تحت ستار اللاجئين ، واتجهت الفكرة إلى التفرقة بين اللاجئين السياسيين وهم يستحقون المعونة والمخربين وهم يقومون بأعمال إجرامية ويتعين وضع حد لها ، كما ناقش المؤتمر اقتراح الرئيس الغانى بشأن إقامة حكومة موحدة لإفريقيا ، ونص الاقتراح على ما يأتى : «أن يشكل الرؤساء هيئة دائمة أو مجلساً تنفيذيا للمنظمة ليكون بمثابة الجهاز التنفيذى لمؤتمر رؤساء الدول والحكومات وأن يعين المؤتمر رئيساً لهذا المجلس التنفيذى من بين الرؤساء ، ويكون مسئولا عن تنفيذ قرارات المؤتمر ويقوم أيضاً بالمبادرة السياسية وتقديم التوصيات بشأن ما يتعلق بتحقيق أهداف المنظمة ومقاصدها». وقد لقى المشروع معارضة من بعض رؤساء الدول الإفريقية وعلى رأسهم رئيس نيجيريا ورئيس الكاميرون وانتهى الأمر بناء على اقتراح إمبراطور إثيوبيا بإحالة الاقتراح إلى لجنة يعينها المؤتمر لدراسته ، غير أن الاقتراح لم يصادف فى النهاية الأغلبية المطلوبة ، وبذا اقترح إحالته على الدول الأعضاء لدراسته وتقديم كل ملاحظاتها وتم الاقتراع عليه بالموافقة ، ولم يتسع الوقت لدراسة موضوع حركات التحرير الإفريقية بدقة وتوسع ، وكانت قراراتها فى هذا الشأن غامضة ولا تتسم بالثورية المطلوبة ، كما قرر المؤتمرون أن يعقد مستقبلا مؤتمرات القمة فى أديس أبابا وأن يكون الموعد القادم فى نوفمبر سنة ١٩٦٦ ، كما انتخبوا لجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم .

واجتمع مؤتمر القمة الإفريقى التالى من ٥ إلى ٩ نوفمبر سنة ١٩٦٦ فى أديس أبابا وسبقه كما جاء فى ميثاق المنظمة اجتماع مجلس وزراء الخارجية للإعداد له وتحضير جدول الأعمال ، وساد جو اجتماع المجلس التوتر نظراً لحجز أكرا

وفد غينيا المسافر إلى أديس أبابا فى هبوط الطائرة فى أكرا ولم يك من المقرر أن تقف الطائرة الأمريكية المقلة للوفد فى العاصمة الغانيـة ، ومعروف أن العلاقات بين الانقلاب الذى قام فى غانا ضد الرئيس نكروما ثم التجاء الرئيس إلى غينيا كان يشوبها التوتر الشديد ، وقرر مجلس الوزراء للمنظمة الذى اجتمع فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٦٦ إرسال بعثة من ثلاثة أعضاء تضم ممثلى ليبريا وسيراليون وتانزانيا إلى أكرا ثم كوناكرى لتعمل بمساعيها الحميدة لإطلاق سراح الوفد الغينى نظراً لأن عملية الاحتجاز منافية للقانون الدولى فإن القبض على الوفد الغينى وهو فى طائرة أمريكية أى أرض أمريكية يخالف القانون الدولى، ثم لتسعى إلى تحسين العلاقات بين الدولتين، كما أبلغت الجزائر السكرتير العام للأمم المتحدة بتصرف حكومة غانا ، وتقدمت احتجاجات متعـددة من شتى الحكومات والرأى العام ، وقام إمبراطور إثيوبيا بعمل إيجابى لإطلاق سراح المعتقلين بإيفاد وزير العدل لبحث الأمر مع حكومة أكرا ، وصرح الإمبراطور بأنه إذا فشلت المساعى الحميدة فى إطلاق سراح المحتجزين فلا مناص من اتخاذ المنظمة الإجراءات الحازمة لتدخلها فى الأمر ، وإشار إلى أن بذر الخلاف بين البلدان الإفريقية يهدد كيان المنظمة السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وساد الإعداد للمؤتمر جو من التوتر قبيل الموعد المحدد للاجتماع فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٦، واعتزمت بعض الوفود الانسحاب إذا لم يشترك وفد غينيا ولم يحضر وفد الجمهورية العربية المتحدة ، وأبلغ السكرتير العام للأمم المتحدة حكومة غانا ضرورة فك اعتقال وفد غينيا وأنذر رئيس غينيا فى أول نوفمبر سنة ١٩٦٦ مع أسفه أنه إذا لم يتم الإفراج عن الوفد فإنه سيتخذ إجراءا حاسماً ضد حكومة غانا ، ووجه لوما شديداً إلى الولايات المتحدة الأمريكية للاشتباه فى تواطئها أو تغاضيها عن الاعتداء على الطائرة ورفضها الوفاء بالتزاماتها الدولية علماً بأن الطائرة المسافر عليها الوفد الغينى أمريـكية

الجنسية ، وأغلقت حكومة كوناكرى مكاتب شركة الطيران الأمريكية لديها وألغيت رحلات هذه الطائرات إلى كوناكرى ، وكذلك حددت مهمة البعثة إلى أكرا وقد انسحبت ليبيريا وتانزانيا منها ، وكونت من جديد من مبعوثين من الكونجو وكينيا وسيراليون وانحصرت مهمتها فيما يأتى : «ضمان إطلاق سراح الوفد الغينى » ، وردت حكومة واشنطون بأنه لم تكن لهـا السيطرة على الطائرات المدنية الأمريكية وعملية الاحتجاز وأنه بتوقفها فى أكرا ، وكان من المقرر توقفها فيها ، تصبح الطائرة فى نطاق سيطرة السلطات ، ثم أبدت حكومة أكرا بعض المرونة وصرحت بأنها على استعداد لإطلاق سراح المحتجزين نظير تبادلهم الغانيين الذين فى غينيا ، وردت حكومة غينيا بأنه ليس لديها أى شخص معتقل من رعايا غانا وأنهم يقيمون فيها بمحض رغبتهم ولهم أن يغادروها إذا شاءوا ذلك ، وبدأ الجو يصفو ، وتقاطرت الوفود إلى أديس أبابا وفى مقدمتها وفد الجمهورية العربية المتحدة وعلى رأسه الرئيس جمال عبدالناصر وهو فى طليعة زعماء التحرير العربى والإفريقى ، وأفرج عن الوفد الغينى وسافر فى الوقت المناسب إلى الاجتماع على أن تضمن غينيا عودة الغانيين الذين يرغبون فى العودة إلى وطنهم ، وانتهت الأزمة التى كادت تهدد كيان المنظمة ووحدة إفريقيا وهى لا تزال فى نعومة أظفارها ، وهنأ سكرتير عام الأمم المتحدة المؤتمر على نجاح المساعى الحميدة وتمنى له النجاح .

وبحث مجلس وزراء المنظمة للإعداد للمؤتمر الموضوعات الآتية : روديسيا ، ومشروع صندوق تمويل الدول الإفريقية لحركة التحرير من الاستعمار ، وزيادة مساعدة الحركة الوطنية فى نضالها ، وذلك بصفة أساسية ، وأعد مشروعات قرارات عن طريق اللجنة السياسية تناولت : منح حق تقرير المصير للصومال الفرنسى ومقاطعة النظام القائم فى اتحاد جنوب إفريقيا وبحث موقف أنجولا ومساعدتها فى كفاحها ومعاونة جنوب غرب إفريقيا أيضاً فى نضالها ضـد

الاستعمار وتحقيق الاستقلال، ومساعدة اللاجئين السياسيين ودراسة حالتهم. إلخ، كما رفض مشروع حقوق الإنسان الإفريقى الذى تقدمت به السودان اكتفاء بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان للأمم المتحدة، وتقرر بناء على شكوى راوندا ضد بوروندى بأن الثانية تجند قواتها على الحدود للاعتداء عليها بإرسال برقية لكل منهما للحث على حل منازعاتهما بالطرق السلمية .

وبحث المؤتمر الموضوعات الآتية وذلك بناء على جدول الأعمال وهى : إنشاء مقر دائم للمؤتمر تكاليفه نحو ٩ مليون دولار ، تصفية الاستعمار وخاصة مستعمرات البرتغال وإسبانيا وتحريرها ، وحل مشكلة روديسيا وفى صالح أهلها الحقيقيين ومطالبة بريطانيا باستخدام القوة لإسقاط الحكم غير الشرعى لأيان سميث وضرورة التشدد فى فرض العقوبات الاقتصادية الكاملة ضد روديسيا وفق ميثاق الأمم المتحدة ، وبحث تقرير تحرير إفريقيا بصفة عامة بما فى ذلك تقرير التحرير لروديسيا والتفرقة العنصرية ومساعدة الغالبية الإفريقية فى كفاحها ضد حكومة البيض وناشد الحكومات الإفريقية أن تتخذ الحزم حيال الأشخاص والشركات والمؤسسات الاقتصادية التى تعمل مع حكومة روديسيا البيضاء تحقيقا للمصالح الاستعمارية ، والدعوة إلى استقلال الصومال الفرنسى، وتحديد موقف المنظمة من مشكلة جنوب غربى إفريقيا، وتنظيم تعاون المنظمة مع الأمم المتحدة، ودراسة مشروع اتفاقية حل مشكلة اللاجئين السياسيين، وبحث تقرير لجنة التحكيم والوساطة واقتراح أن تكون القاهرة مقرا دائما لها ، ودراسة تقرير لجنة الشئون الاقتصادية والاجتماعية والنزاع بين راوندا وبوروندى، ثم دعوة الدول الإفريقية إلى الاشتراك فى المؤتمر الاقتصادى الذى يعقد فى دلهى فى ديسمبر ، وتحديد موعد ومكان المؤتمر القادم .

وقد أقر المؤتمر جدول الأعمال المذكور آنفا دون تعديل ، كما خفض عدد

لجان المنظمة من سبع لجان إلى ثلاث ، بادماج بعض الوكالات وهى اللجنة الاقتصادية والاجتماعية ولجنة التعليم والعلوم والثقافة والصحة ولجنة الدفاع ، واستمر وضع العلاقات بين بريطانيا والدول الإفريقية على حاله بعد مناقشة طويلة ، واختار المؤتمر رئيس الكونجو (كنساشا) للوساطة فى النزاع بين رواندا وبوروندى ، وظهر من البحث أن الغانيين المقيمين فى غينيا لا يرغبون فى مغادرتها وأنهم يعملون بأجور حسنة وبذا انتهى النزاع وتعهدت غينيا أنها ستصفيهم مستقبلا ويصبح المقيمون فيها عشرة هم الرئيس نكروما وصحبه .

وهكذا تسير منظمة الوحدة الإفريقية نحو تنسيق لسياسة الأعضاء وتوثيق عرى التعاون بينهم على ألا يؤثر هذا على سيادتهم واستقلالهم وألا تتدخل الدولة فى الشؤون الداخلية للأخرى ، ولا تخضع سياسة الدول الأعضاء فى المنظمة فيما يتعلق بنظامها الداخلى وعلاقاتها الخارجية وبعثاتها الدبلوماسية وقواها العسكرية للدفاع عن كيانها للمنظمة ، وهو أن الرأس الذى يدير دفة حكومة إفريقية ليس واحدا بل مؤتمر من الرؤساء غرضه تنظيم الصفوف لمحاربة الاستعمار وتبادل المنافع والحاجات وسير الجميع فى صف متراص نحو النهوض والتقدم للحاق بركب الحضارة العالمية .

خاتمة

إن دراسات المسائل الإفريقية وعلاقات القارة مع الخارج وتغلغل العرب بلسانهم وجنسهم ودينهم فى شعوبها ليست بالسهلة المعبدة ، وهى متسعة أفقياً تبعاً لترامى أطراف القارة وصعوبة المواصلات فيها وتباين الطبائع والعادات والعقائد . وعميقة الجذور رأسياً نظراً لقدم مدنياتها التى اندثر العديد منها ولفقدان حلقات الاتصال بين الغابر البعيد والحاضر المليء بالأمل والتفاؤل ، ومما يضاعف فى صعوبات الدراسات أن البحوث تنصب على مؤلفات ومراجع ودوريات تصدر جلها فى عواصم الدول الاستعمارية السابقة فيما عدا ما ألفه بعض الزعماء الإفريقيين المبرزين فى ثقافتهم والذين درسوا خارج القارة ، وهذه المؤلفات والبحوث الأوروبية أو الغربية القحة لكتاب مشربين بالروح الاستعمارية وإمبراطورياتهم سبق أن تحكمت بالاستعمار فى مصائر إفريقيا وشتى أصقاعها وسخرت شعوبها وقوى سواعدها وموارد رزقها لصالحها ولثراء شركاتها واحتكاراتها ، وهى التى بدأت منذ الاستكشافات الجغرافية باسترقاق الإفريقيين وسبيهم عن طريق تجارة النخاسة لتستخدمهم قسرا فى مزارعها وموانئها وبلاط ملوكها فى أوروبا والعالم الجديد ، وهى التى ترمى العرب فى كتاباتها بالباطل بأنهم اتبعوا سياسة الرق فى القارة بينما أن العرب دخلوا القارة تجاراً وبثوا الدعوة للأسلام بالحسنى ودخل الإسلام الملايين من الإفريقيين تبعاً لسماحة الدين وديموقراطيته وبساطة تعاليمه . ولأن الله سبحانه وتعالى يعبد حيث وجد العابد فى فضاء الله الواسع فى العراء وفى المساجد ، ولقد كانت مصادر دراساتنا ومراجع بحوثنا مؤلفات الغرب وغيره التى لمسنا فيها الاتزان وعدم التحيز ، كما وردنا مناهل بعض الدوريات والمجلات التى لها اعتبارها فى الشئون

الإفريقية ولم نأل جهداً فى الالتجاء إلى مؤلفات رجال إفريقيا من الزعماء والسياسيين والكتاب والمفكرين الذين بحثوا مشكلاتها اليوم وقارنوا بين وضع القارة الحالى وما كانت عليه فى الماضى، كما أننا لجأنا إلى بعض المؤلفات العربية التى تعرض لمسائل الإسلام ودخول العرب القارة كمؤلف « حاضر العالم الإسلامى » The New World of Islam للمستشرق ستودارد Stoddard وتعليق شكيب أرسلان وكمؤلفى الإمام الشيخ محمد عبده بعنوان « الإسلام والرد على منتقديه » و « المسلمون والإسلام » .

وحبذا أن تبذل الشعوب الإفريقية الجهد بإنشاء مراكز لبحث الشؤون الإفريقية وذلك فى نطاق منظمة الوحدة الإفريقية أو خارج نطاقها بمعونة إحدى الدول الإفريقية الشقيقة أو الصديقة التى يمكنها الاضطلاع بالدراسات والبحوث ولها من ماضيها وصلاتها ما يساعد فى هذا الشأن كالجمهورية العربية المتحدة ، وتعد مراكز البحوث التى يتفرغ لها باحثون يباشرون مهامم فى نفس المكان وبين القبائل والعشائر والشعوب والتى يبحثون مسائلها ومشكلاتها من الدراسات على الطبيعة ومما يستخلصونه من مشاهداتهم وتجاربهم، وطبيعى أنها تكون بعيدة عن التحيز والروح الاستعمارية وتقارب الحقيقة والواقع ، ويصبح لمراكز البحوث باحثون ومساعدون يعالجون المسائل العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ويجوبون الأقطار الإفريقية وينقبون فى الماضى ويخططون للمستقبل ويعدون المؤلفات الجدية والتقارير والوثائق التى يمكن الرجوع إليها دون تردد أو وجل ، ويزودون شتى عواصم الدول الإفريقية التى استقلت حديثاً بالمكتبات اللازمة لدراسات المشكلات الإفريقية وموقف الاستعمار من شعوب القارة ، ويتعين عليهم البعد عن الدراسات التى قام بها الاستعمار متحيزاً وقد نهش قلبه وضميره التمييز العنصرى ونهم الاحتكارات ورغبتها فى مزيد

من الثراء على حساب الشعوب الإفريقية وهى فى أولى خطوات نهضتها ، هذه الدراسات التى شوهت تاريخ إفريقيا وحضارتها وطاقاتها وكفاية شعوبها ، ويحسن فضلا عما ذكرنا أن تزود مكتبات المراكز بالمؤلفات والمجلات والنشرات الدورية الهامة المتخصصة فى شئون إفريقيا حتى يجد من يرتادها حاجته لا فيما يتناول القارة فحسب بل وفى علاقاتها مع الخارج ، ولا تدرس فى المراكز الدروس لمنح الاجازات العلمية بل تلقى بين حين وآخر المحاضرات العامة لأساطين المفكرين والمتخصصين وتعقد المؤتمرات والموائد المستديرة وحلقات البحث والندوات واجتماعات كتاب القواميس الإفريقية ، كما يعمل المركز على توثيق عرى التعاون الثقافى بين شعوب القارة بنشر اللغات الوطنية الهامة لأبنائها بينها كلغة مشتركة وفى مقدمتها اللغة العربية .

وقد قمنا فى دراستنا هذه وتتناول مجموعة من الدراسات الإفريقية العربية بعنوان « الإفريقيون والعرب » ببحث أهم ما يشغل بال الإفريقى الوطنى الصميم من شؤون وطنه وأوطان الشعوب الشقيقة والصديقة وهم العرب ويجتمعون فى بوتقة واحدة وهى القارة العريقة فى ماضيها والتى بليت بوباء الإستعمار ثم قامت من كبوتها اليوم لتعاود السير وتستعيض مافاتها ، وشرحنا فى الباب الأول حضارات إفريقيا وأجناسها وروح شعوبها وتوزيعهم فى مختلف أصقاع القارة وقارنا بين الوديان والسهول النضرة والأدغال والأحراش الكثة والجبال والهضاب والبطاح الوعرة والصحارى والفيافى القحلاء وتعاريج سواحلها وأثر مناخها وطرق مواصلاتها بما فى ذلك الأنهار فى حضارتها ، وبينا فى الباب الثانى ماهية الروح الإفريقية ومدنيات القارة وزراعاتها وصناعاتها وازدهار الإمبراطوريات القديمة ثم اندثارها نتيجة العوامل السياسية الاقتصادية والصراع الحربى واشتداد التنافس بينها وهى فى إبان أفولها وكذلك طبائع الأهلين وميولهم ومعيشتهم وملبسهم ومأكلهم وسكناهم وأعمالهم وحرفهم

وطبقاتهم والوثنيين منهم والمسلمين والمسيحيين وبينا كيف أن أهل إفريقيا لهم ذاتيتهم المستقلة ،وشرحنا فى الباب الثالث ما ساد إفريقيا من فوضى وغموض فى عصور الظلام والتدهور وتأثر القارة ونضوب معينها من الرجال والثروة والإنتاج نتيجة الرق الذى اتبعه الأوروبيون حيالها ابتـــداء من عصر الاستكشاف الجغرافى مما أدى إلى فقدان القارة مئات الملايين من الأهلين فى مدى خمسة قرون ، وقارنا فى الباب الرابع بين العرب والأوروبيين فى إفريقيا وبينا سماحة العرب والإسلام فى القارة وأن العرب ولجوها ونشروا الدعوة فيها على أساس حسن المعاملة والتعاون وتبادل المنافع مع أهلها مما أدى إلى رسوخ تعاليم الإسلام لا فى شمال أفريقيا العربى فحسب بل فى شواطىء إفريقيا الشرقية وقلبها حتى تشاد وفى غربها من النيجر إلى غينيا وأن عدد المسلمين السود فى القارة يبلغ نحو ثلث السكان ، ثم بينا أن سيرة الأوروبى فى إفريقيا توصم بالاستعمار والرق والحراب ورصاص البندقة والقسوة حيال الإفريقى وبالتمييز العنصرى الذى لم يعرف فى الإسلام وبالفارق البالغ فى الأجور بين العامل الإفريقى والعامل الأوروبى ، وشرحنا أن التبشير للمسيحية فى القارة كان فى كثير من الأحوال لخدمة الاستعمار مما شكك الوطنيين فى الدين وجعلهم يعزفون عن اعتناقه ، والمسيحيون فى القارة يميلون إلى فصل كنيستهم عن الكنائس الأوروبية ويختارون مسيحا أسمر البشرة على نسق روحهم الإفريقية ، كذلك تناولنا فى نفس الباب فى دراسات مقارنة بحث ولوج الإسلام وقيام غيره من الأديان فى كل بلد على حدة واهتممنا بصفة خاصة بالرق والاسترقاق فى القارة ، وشرحنا فى وضوح كيف أن الأوروبيين يهاجمون الإسلام بالباطل ويدعون أنه نشر الرق فى حين أنهم الذين فرضوه على القارة لصالحهم الاقتصادى ثم تبعوه بالاستعمار التقليدى فالجديد ، ودرسنا أن الرقيق فى الإسلام قديما كان جزءا من أسرة السيد وكان يرقى سلم الحرية ويصل إلى

أعلى مراتب الدولة وكثيراً ما كان يتزوج إبنة سيده برضاه ومن الخلفاء من كانت أمه من الأرقاء كما ولى السلطنة فى مصر من استحضروا كأرقاء من بلاد الشركس فى عهد السلاطين المماليك ، كما بحثنا ثورة السود ضد الرق وحركات التحرير التى بدأت من مفكرين منهم فى الولايات المتحدة الأمريكية وأثر حرب الإنفصال الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) فى تحرير العبيد وما أضفته على الحركة فى إفريقيا وإنشاء جمهورية ليبيريا كمحاولة لإيواء السود وإبعادهم عن طغيان البيض فى العالم الجديد وكيف أنه لم يك علاجا ناجعا حاسما ، وشرحنا الحركة العنصرية فى جنوب أفريقيا بما فى ذلك روديسيا الجنوبية ومدى اضطهاد البيض وهم أقلية للملونين وانتزاع الأرزاق منهم وحصارهم فى مأزق الفاقة يركدون فيه بلا حقوق سياسية وبلا أمل فى مستقبل أفضل ولم يجد نفعاً تدخل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية ، وبحثنا فى الباب الخامس الاستعمار القديم فى أفريقيا أى الاستعمار التقليدى ثم الاستعمار الجديد ، ووسائل وأهداف الاستعمار القديم واستخدامه القسوة ونشر الذعر بعسكره واحتلاله وصنائعه وأشياعه وأتباعه وقبضه على مقاليد الإدارة والتجارة حتى يمكنه أن يستنزف أقصى ما يمكن استنزافه من ثروات البلاد لصالح الاحتكارات والشركات والمؤسسات الاقتصادية فى الغرب وكيف أن الاستعمار القديم كان يحكم بالسلاح والقوة ويفرق فى التشريع والمعاملات والأجور بين الوطنين والجاليات الأخرى وخاصة الأوروبية ولا حقوق سياسية أو مدنية للإفريقيين أصحاب البلاد ، وشرحنا سياسة الاستعمار الجديدة وهو يحاول ولوج القارة من النافذة بعد أن خرج القديم من الباب الكبير ، وعمله على القبض بتلابيب منابع الثروات وشتى المناجم والإبقاء على الاحتكارات وشراء بعض ضعاف النفوس ومساعدتهم بالمرتزقة من جنود البيض وبث الفرقة بين الزعماء والأحزاب ونشر الدعايات الواسعة عن طريق الصحافة والإذاعة ومكاتب

الإعلام التى تتلقى المساعدات والتعليمات من عواصم البــلدان الاستعمارية السابقة ، وبعض الصحف تتبع فى تمويلها وسياستها مباشرة الصحف الرئيسية فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك بينا كيف أن إفريقيا الناهضة المتأججة وطنية وحماساً تقف بالمرصاد للاستعمار الجديد وتحول دون أن ينال منها، وشرحنا فى الباب السادس أهم المشكلات الإفريقية الاقتصادية والاجتماعية وقارنا بين موارد وطاقات إفريقيا وما يرجى للقارة مستقبلا واطراد تزايد عدد سكانها بعد تحريرها بنسبة تفوق إنتاجها الزراعى والصناعى وقدرتها على توفير الغذاء الكافى للأهلين، وبينا أن على عاتق المسئولين فى القارة أعباء جساماً أهمها سرعة تنمية القارة وتخليصها بصفة حاسمة من الاستعمار والاستغلال والتمييز العنصرى ، وشرحنا مشاكل القارة واتجاهات شتى بلدانها فى إفريقيا المتكلمة بالفرنسية وإفريقيا المتكلمة بالانكليزية واختلاف وجوه العلاج فى كل منها ، وعالجنا فكرة القوميات فى إفريقيا والأوضاع القبلية ، والتصنيع واتساع المدن والمواصلات والأخذ بالوسائل الفنية الحديثة وأثر العادات والطبائع فى تحرر القارة وأخذها بأسباب النهضة والأسرة الإفريقية الحديثة وانتشار استخدام الآلات وكفاية العامل الإفريقى ، كما أننا اهتممنا اهتماما بالغاً بالاشتراكية فى إفريقيا وكيف أنها تتخذ طابع القارة وهى تختلف عن الاشتراكية فى أوروبا وهى تطبيقية لم تسبقها كتابات وفيرة على نسق مدائن الأحلام فى الغرب . وشرحنا أنها زراعية تتبع الفكرة الجماعية السائدة فى إفريقيا السوداء فيما يختص بزراعة الأرض وتوزيع المحاصيل ، وبينا أن الاشتراكية الإفريقية هى الحل الحتمى لرفع مستوى معيشة الفرد فى القارة وتوفير العمل والغذاء له وزيادة الإنتاج لمجابهة تزايد السكان ، وبينا أيضاً كيف أن الاشتراكية الإفريقية وهى تنبع من تربة القارة وصميم قلوب أبنــاء إفريقيا تتمسك بالروح والمبادىء الإفريقية وبأهداب العقيدة والدين وهدفها واحد وهو السير بإفريقيا إلى الأمام

وإن اختلفت الأساليب، وأخيراً درسنا أصول الوحدة الإفريقية وكيف نشأت فكرتها وهى منبثقة من الشخصية الإفريقية وهدفها اليوم تآزر المجموعات البشرية الإفريقية وتعاونها لتحقيق رفاهة القارة وتوجيه سياستها الخارجية والإجهاز على الاستعمار وإنهاء بقايا التمييز العنصرى ، وبينا أنها تمخضت عن منظمة الوحدة الإفريقية وهى منظمة دولية قارية لا تقوم على فكرة حكومة إفريقية واحدة بل على تعاون أعضاء المنظمة فى سبيل تقوية روابط التضامن بينهم دون أن يتدخل العضو فى السياسة الداخلية للآخر أى أن العضوية فى المنظمة تقوم على قدم المساواة مع احتفاظ كل بسيادته ، وهى تعمل على توفير حياة أفضل للأهلين فى ظل حرياتهم الجديدة والدفاع عن أراضيهم واستقلالهم ووقاية القارة من محاولات الاستعمار الجديد وكذلك المحافظة على مبادىء الأمم المتحدة ومكافحة التمييز العنصرى وفلول الاستعمار ، والتعاون يتناول الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والغذائية والصحية والعلمية ، وتكونت للمنظمة التى تأسست سنة ١٩٦٣ أجهزة عدة ولجان لبحث شتى المسائل الفنية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التى تطرح على مؤتمر القمة المنظمة الذى يجتمع سنويا من رؤساء الدول الأعضاء فى المنظمة ويعد جدول أعماله مؤتمر وزراء الخارجية الذى يعقد لهذه الغاية ، واختيرت عاصمة إثيوبيا مقراً للسكرتارية الدائمة للمنظمة وقد عقدت فيها الاجتماعات النهائية لإنشاء المنظمة وأخذ إمبراطور إثيوبيا على عاتقه الأعباء الأولى فى شرح أغراضها والدعوة لها كما أبرم الميثاق فى هذه العاصمة الإفريقية العريقة ، وعالجت وعرضت المنظمة العديد من المسائل منذ نشأتها ضمنها تصفية الاستعمار ومشكلة روديسيا الجنوبية بإعلانها استقلالها من طرف واحد للحكومة البيضاء غير الشرعية وقد ضربت بحقوق الغالبية السوداء عرض الحائط وضرورة مقاطعتها اقتصاديا واتخاذ سياسة حازمة حيالها والتمييز العنصرى فى اتحاد جنوب إفريقيا

وموقف حكومة البيض من الغالبية ، وقضايا الاستعمار فى موزمبيق وأنجولا وغيرهما من بقايا المستعمرات والنزاع على الحدود ومشكلات الكونجو والجنود المرتزقة البيض هناك وسائر المشكلات بين الأعضاء مع ضرورة تسويتها بالحسنى ومشاكل اللاجئين الإفريقيين وتقوية الروابط الاقتصادية بين الأعضاء ، ولا تزال منظمة الوحدة الإفريقية فى بداية خطواتها ولكنها ترسخ يوماً بعد يوم وتتضح أهميتها القصوى لتنسيق سياسة الأعضاء داخل القارة وخارجها .

ونستخلص من دراساتنا المتنوعة عن أفريقيا وما عرضناه بخصوص دولها وشعوبها والنهضة الشاملة فى القارة وتضافرها فى سبيل تحقيقها أن شعوب القارة ويقصد بذلك السود والعرب ويستبعد الأوربيون الدخلاء المستعمرون يعملون فى عزم وتعاون تام لتصفية الاستعمار والقضاء على التفرقة العنصرية ويتفادون المنازعات بينهم ويتمسكون بسياسة الحسنى والتوفيق لتسوية ما قد يشجر من مشكلات ويبذلون قصارى جهدهم لاستعاضة ما فاتهم واستعادة مجدهم التليد فى إطار الشخصية الإفريقية مع احتفاظ كل بقوميته ووطنه ، وعلى أساس مبادىء تنبع من تراثهم وحضارتهم وأرض وطنهم وتحقيق أسباب الرفاهية المادية والمعنوية للأهلين وتوفير الأعمال والأرزاق للأيدى العاملة ، وهم يتمسكون بعقائدهم وطبائعهم وفى الوقت ذاته يأخذون بأسباب التقدم المادى والمدنية الحديثة وخاصة مدنية الصناعات والآلات والتطور الفنى فى ميادين الزراعة والصناعات والمواصلات وبناء المدن وتعمير الأراضى الواسعة، وحبذا أن تذلل بعض العقبات باختيار لغة مشتركة أو أكثر وأسهلها وأكثرها انتشاراً بينهم لغة الضاد،وببذل جهود أوفى فى ميادين التعليم والثقافة وخاصة التعليم الفنى والصناعى وبالمبادرة بإنشاء مراكز بحوث للشئون الإفريقية ، كما أن العديد من حركات التقدم والنهضة فى القارة بإعادة تخطيط نظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية

للجماعة ترى ألا مندوحة من الأخذ بالمبادىء الاشتراكية وفق طبيعة القارة والبيئة لسد حاجات السكان واتساع نطاق الإنتاج وحسن توزيع الحاجات وتحقيق حياة أفضل للناس فى إطار تعاون شعوب القارة لرسم الخطة العامة لسياساتها وسيرها فى العالم الحاضر دون تحيز لفريق من المتنازعين خارج القارة، ذلك العالم الملىء بالأزمات والذى يتهدده السلاح الذرى ، و الطريق وإن بدا سهلا فهو محفوف بالمخاطر والعقبات ، إن لم يكن الرائد فيه الصبر واليقظة ووحدة الهدف والكفاح .

مـــراجع هامـــة

١ — مراجع باللغة الإنجليزية :

"A Handbook of African Affairs"— Edited by Helen Kitchen Published for the African — American Institute, I Vol., New York, 1964.

"Africa To-day and Tomorrow" : by John Hatch, I Vol., New York, 1963.

"Politics in Africa," by Herbert J. Spiro, I Vol., Englewood Cliffs 1952.

"Tropical Africa," by Kimble, 2 Vols., New York, 1962.

"Africa," by Mary Cathart Borer, I Vol., London, 1963.

"The Geography of African Affairs," by Paul Fordham, I Vol., Pelican Original, 1965.

"African Profiles," by Ronald Segal, I Vol., Penguin, 1962.

"A Short History of Africa," by Oliver & Fage, I Vol., Penguin, 1962.

"African Outline," by Paul Bohannan, I Vol., Penguin, 1964.

"The Story of Nigeria," by Michael Trowder, London, 1966.

"Mau Mau Detainee," by Brockway, I Vol., London, 1963.

"The Politics of African Nationalism," by Shepherd Jr., I Vol., New York, 1963.

"Africa Speaks," Edited by Duffy & Manners, I Vol., London, 1961.

"White Settlers in Tropical Africa," by Hann & Duignan, I Vol., Penguin, 1962.

"I Speak of Freedom," by Nkrumah, I Vol., London, 1962.

"The Changing Map of Africa," by Hodgson & Stoneman, I Vol., London, 1963.

"Africa Before the White Man," by Labouret, I Vol., New York, 1962.

"Trojan Horse of Neocolonialism," by Yermolov, I Vol., Moscow, 1963.

"Africa's Economic Prob'ems," by Alexandrowskaya & Rybakov I Vol , Moscow, 1963.

"Africa" by Pickles, I Vol., London, 1961.

"Africa's Freedom", by Several African Leaders, I Vol., London, 1964.

"Congo Background of Conflict," by A. P. Merriam, I Vol., Northern University Press, (U.S.A.,) 1961.

"Race of Democratic Society," by Boas, I Vol , New York, 1945.

٢ — مراجع باللغة الفرنسية :

"Afrique Noire l'Ere Coloniale 1900—1945," par Suret-Canale, I Vol., Paris 1964.

"L'Afrique quite la Brousse" par Gizela Boun, I Vol., Paris 1966.

"Le Dossier do l'Afrique," édité Marabout Université, I Vol., Paris 1962.

"Histoire do l'Afrique," par Robert et Marianne Gornevin, I Vol., Paris 1963.

"Vue Générale de de l'Histoire de l'Afrique," par Hardy, I Vol., Paris 1922.

"Le Panafricanisme," par Decraene, I Vol., Paris, 1959.

"Les Religions de l'Afrique Noire" par Deschamps, I Vol. Paris 1960.

"Les Civilisations Africaines," par Paulme, I Vol., Paris 1959.

"L'Afrique Noire,"par Holas, I Vol., Paris, 1964.

"Europe Afrique Noire," par Matip. I Vol , Paris, 1959.

"Histoire de l'Afrique", par Savéliev et Vassiliev, I Vol., Moscow, 1963.

"Geographie Economique du Monde," par Gornonng, I vol., Moscow, 1962.

"L'Afrique des Africains," par Wauthier, I Vol. Paris, 1964.

"L'Afrique est Mal Partie," par Dumont, I Vol., Paris, 1965.

"Afrique, Africaine," par Michel Huet, I Vol., Paris, 1960.

"Afrique. Les Civilisations Noires," par Maquet, I Vol., Paris, 1962.

"Histoire des Peuples de l'Afrique Noire," par R. Cornevin I Vol., Paris, 1960.

"Histoire de l'Afrique des Origines à nos jours," par R. Cornevin, I Vol., Paris 1956.

"Le Noir d'Afrique," par Sefron, I Vol., Paris, 1943.

"L'Apport de l'Afrique à la Pensée Humaine," par Guernier, I Vol., Paris 1952.

"Brève Histoire de l'Afrique Noire," par Joos, I Vol , Paris, 1961.

"Les Colonies Françaises," par Stern, I Vol., Paris 1943.

"Dépossession du Monde," par Jacques Berque, I. Vol., Paris, 1964.

"La Décolonisation 1919 — 1963," par Henri Grimal I Vol., Paris 1965.

"Belles Pages, de l'Histoire Africaine," par Cardot, I Vol., Paris, 1961.

"L'Epoque Contémporaine," par Crouzet, I Vol., Paris, 1961.

"Experience Guinéenne et Unité Africaine," par Sékou Touré, I Vol., Paris, 1961.

'L'Afrique vers l'Unité," par Arboussier, I Vol., Paris, 1961.

"Nations Africaines et Solidarité Mondiale," par Mamadou Dia, I Vol., Paris 1960.

"Réflexions sur l'Economie de l'Afrique Noire," par Mamadou Dia, I Vol., Paris, 1960.

"L'Afrique Occidentale Française," par Pouquet, I Vol., Paris, 1958.

"Histoire des Missions Françaises," par Jean-Marie Sédès, I Vol., Paris, 1950.

"L'Afrique Equatoriale Française," par Pouquet, I Vol., Paris, 1954.

"Les Idéologies Négro-Africaines d'Aujourd'hui," par Thomas, I Vol., Dakar, 1965.

"Les Dirigeants Africains Face à Leur Peuple," par Badegan, I Vol., Paris, 1964.

"Histoire de la Race Noire Aux Etats Unis," par Schoell, I Vol., Paris, 1959.

"Le Préjugé de Race et de Couleur," par Burns, I Vol., Paris, 1949.

"La Race dans la Civilisation," par Hankins, I Vol., Paris, 1935.

"Les Tensions Raciales Dans l'Union Sud-Africaine," par Schoell, I Vol., Paris 1956.

"L'Afrique Complement de l'Europe," par Zichka, I Vol , Paris, 1652.

"L'Islam Noir," par Monteil, I Vol., Paris, 1964.

"Les Musulmans d'Afrique Noire," par Froelich, I Vol., Paris, 1962.

"L'Avenir de l'Afrique," par Woddis, I Vol., Paris, 1964.

"Les Ressources Minerales de l'Afrique," par Furon, I Vol., Paris, 1944.

"T'Industrialisation de l'Afrique," par Chardonnet, I Vol., Paris, 1956.

"L'Industrialisation de l'Afrique" par, Jonchay, I Vol., Paris, 1953.

"Le Socialisme et l'Afrique," par Thomas, I Vol., Paris, 1966.

"Nations et Voie Africaine du Socialisme", par Senghor, I Vol. Paris, 1961.

"L'Avènement de l'Afrique Noire", par Brunschwig, I Vol., Paris, 1963.

"Le Monde Contemporain", par Bouillon, Sarlin, Rudel, I Vol., Paris, 1963.

"Les Peuples et Les Civilisations de l'Afrique," par Baumann et Westermann, I Vol., Paris, 1962.

"L'Afrique et Les Africains", par Herskovits, I Vol., Paris, 1965.

"Le Syndicalisme Africain," par Meynaud et Salah Bey, I Vol, Paris, 1963.

Bulletin Economique pour l'Afrique (Nations Unies) Vol., V, Janvier 1965.

مراجع باللغة العربية :

« حاضر العالم الإسلامى » ، لشكيب أرسلان ، أربعة أجزاء ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هجرية .

« حضارة العرب » ، تأليف جوستاف لوبون ، نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر ، جزء واحد ، القاهرة ١٩٤٥

« تاريخ التمدين الإسلامى » ، لجورجى زيدان ، خمسة أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٠٦

« السلالات الإفريقية » للأستاذ الدكتور محمد عوض محمد ، القاهرة ١٩٦٦

« السياسة والحكم فى إفريقيا » ، للدكتور عبد الملك عوده ، جزء واحد ، القاهرة ١٩٥٩

« منظمة الوحدة الإفريقية » للأستاذ الدكتور بطرس بطرس غالى ، جزء واحد ، القاهرة ١٩٦٤

« ما يقال عن الإسلام » للاستاذ عباس محمود العقاد ، جزء واحد ، القاهرة ١٩٦٦

« الإسلام والرد على منتقديه » للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، جزء واحد ، القاهرة ١٣٤٣ هجرية .

« المسلمون والإسلام » ، للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، تقديم وتحقيق طاهر الطناحى ، جزء واحد ، القاهرة ١٩٦٣

مجلة « السياسة الدولية » التقارير والوثائق — تصدر عن جريدة الأهرام كل ثلاثة شهور .

فهرس

المطبعة الفنية الحديثة
٤٠ شارع الأصبغ الزيتون ت ٨٦٤٨٧١



مكتبة الأنجلو المصرية